ألبرتو مانغويل

المكتبة في الليل

ترجمة: عباس المفرجي







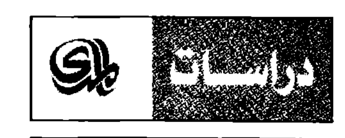


ألبرتو مانغويل

المكتبة في الليل







المؤلف: ألبرتو مانغويل
عنوان الكتاب: المكتبة في الليل
ترجمة: عباس المفرجي
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: ٢٠١٢
تصميم الغلاف: ريم الجندي
جميع الحقوق محفوظة

Author: Alberto Manguel
Title: The Library at Night
Translator: Abbas Al-Meferji
Al-Mada P.C.
First Edition: 2012
Cover Designed by: Reem Al-Jundi
Arabic Copyright © Al-Mada

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
www.daralmada.com Email:info@daralmada.com

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
E-mail:almada112@yahoo.com

ISBN: 978-2-84306-137-0

في القرن السادس عشر، دعا الشاعر العثماني عبد اللطيف شلبي، المعروف أكثر بلطيف، كل كتاب في مكتبته بـ "صديق حق ومحب يبعد الهموم كلها."

هذا الكتاب إلى كريغ

الفهرس

تقديم ٩

المكتبة أسطورة........................ ١٣

المكتبة ترتيباً........................ ٣٧

المكتبة مكاناً........................ ٦٣

المكتبة سلطة........................ ٨١

المكتبة طيفاً........................ ٩٣

المكتبة شكلاً........................ ١١٣

المكتبة عامل مصادفة........................ ١٣٣

المكتبة ورشة عمل........................ ١٤٣

المكتبة عقلاً........................ ١٥٥

المكتبة جزيرة........................ ١٧٣

المكتبة وسيلة بقاء........................ ١٩١

المكتبة والنسيان........................ ٢٠٥

المكتبة خيالاً........................ ٢١٩

المكتبة هوية........................ ٢٣٩

المكتبة وطناً........................ ٢٥٣

خاتمة........................ ٢٦٥



كل ما تبقى من مكتبة أثينية: نقش ينصّ على أوقات الافتتاح "من الساعة الأولى حتى الساعة السادسة" وآخر "يحظر إخراج الأعمال من المكتبة".

تقديم

"كان عندي دائماً هذا المزاج المتلّون(وإن كان متفاوتاً)، ومثل كلب صيد هائج، ينبح على كل طير يراه، تاركاً لعبته، لاحقت كل شئ عدا ما هو مهم، ويمكنني أن أتذمّر بحق(فمن هو في كل مكان، هو ليس في أي مكان)... ذلك أنني، مع الافتقار إلى منهج جيد، قرأت كثيرا من الكتب دون نتائج تذكر، إذ عثرت بارتباك تام على عدد كبير من مؤلفين في مكتبتنا، دون فائدة، مع الافتقار إلى النظام، والفن، والذاكرة والبصيرة".

روبرت برتن، تشريح السوداوية

نقطة البداية، هي سؤال.

بصرف النظر عن الأدب وعلم اللاهوت، فإن قلّة يمكنهم الشك بأن الميزة الرئيسية لكوننا هي افتقاره للمعنى، والهدف الواضح. غير أننا، وبتفاؤل محيّر، ماضون في حشد كل قصاصة ورق من المعلومات التي يمكننا جمعها في لفائف وكتب وأقراص كومبيوتر، في رف بعد رف من المكتبة، سواء كانت مادية، وهمية، أو غير ذلك، وعلى نحو مثير للشفقة، بهدف إضفاء شكل من الإحساس والنظام على العالم، بينما نحن نعي جيداً، مهما أردنا أن نصدق العكس، بأن مسعانا للأسف مآله الفشل.

لم إذن نفعل ذلك؟ بالرغم من معرفتي منذ البداية بأن السؤال سيبقى على الأرجح دون جواب، فقد بدا لي البحث جديراً بالعناء كرمى للبحث نفسه.

بما أن اهتمامنا بالسرد الدقيق للتواريخ والأسماء أقل من ولعنا اللامحدود

بالتجميع ، فقد قررت أن أبدأ بالكتابة ، لا كي أصنّف تاريخا آخر للمكتبات ، أو أضيف مجلدا آخر للمجموعة الواسعة بشكل مرعب في علم المكتبات، بل كي أسجل فقط وقائع دهشتي.((لابد أنه أمر ملهم ومثير للمشاعر معا))، كتب روبرت لويس ستيفنسون قبل قرن،((حين لا يكف عرقنا عن بذل الجهود في حقل فيه النجاح معدوم)).

كانت المكتبات، مكتبتي الخاصة أو تلك العامة التي أشارك فيها جموع القرّاء، تبدو لي دائماً أمكنة مجنونة على نحو ممتع، وبقدر ما تسعفني الذاكرة كنت مفتوناً بمنطقها الشائك، الذي يفيد بأن العقل(إن لم يكن الفن) يحكم الترتيب المتنافر للكتب. أحسّ بمتعة المغامرة حين أفقد نفسي وسط الأكداس المكتظة، مؤمناً بشكل خرافي بأن الهرمية الراسخة للحروف والأرقام ستقودني ذات يوم لغاية موعودة. كانت الكتب ولزمن طويل أدوات للفنون الإلهية.((مكتبة كبيرة،))يقول نورثروب فراي متأملاً، في واحد من دفاتر مذكراته العديدة،((تنطوي حقاً على موهبة في كل من اللغات والفعاليات الواسعة من الاتصال التخاطري)).

في ظل مثل هذا الوهم المتناغم، قضيت نصف قرن بجمع الكتب. وبكرم لا حد له، قدمت لي كتبي كل أنواع الإشراقات، دون أن تسأل شيئاً بالمقابل. ((مكتبتي،))كتب بتراركا إلى صديق له،((ليست مجموعة جاهلة، حتى لو كانت تنتمي إلى شخص جاهل)). مثل كتب بتراركا، كتبي تعرف أكثر مني إلى حد لا متناه، وإنني حتى ممتن منها لأنها تجيز حضوري بينها. أحياناً أشعر بأني أسيء استخدام هذا الامتياز.

حب المكتبات، مثل أكثر المحبات، ينبغي أن يكتسب بالتعلم. ما من أحد يخطو أول مرّة داخل غرفة مليئة بالكتب، وبإمكانه أن يعرف بالغريزة كيف يتصرّف، ماذا يتوقع، ما الذي سيناله، وما هو المتاح؟ قد يتملك المرء

الرعب بسبب الفوضى والاتساع والصمت والمراقبة، والتذكير الساخر بأن الإنسان لا يعرف كل شيء، وتتملكه بقايا من أحاسيس غامرة تظل لصيقة به، حتى بعد أن تغدو الطقوس والتقاليد معروفة، وتتكشف معالم الجغرافيا، وتصبح الأقوام المتوحشة أليفة.

في طيش فتوتي، حين كان أصدقائي يحلمون بمآثر بطولية في حقول الهندسة والقانون، والمال والسياسة، كان حلمي أن أصبح أمين مكتبة، لكن الكسل والولع الذي لا يُكبح بالسفر قررا شيئاً آخر.

الآن، على كل حال، وقد بلغت السادسة والخمسين من العمر(العمر الذي يمكن أن يقول المرء فيه أن الحياة"الحقيقية"بدأت، كما يقول دوستويفسكي في"الأبله")، عدت إلى ذلك الحلم القديم. الآن، على الرغم من أني لا أدعو نفسي مكتبياً بشكل خاص، أعيش وسط رفوف كتب لا تنفك تتنامى، حيث بدأت حدودها تبدو ضبابية، أو أنها تماهت مع البيت نفسه. كان يجب أن يكون عنوان هذا الكتاب"رحلة حول غرفتي"، لكن سبقني إليه، للأسف، السئ الصيت كزافييه ميستر.

ألبرتو مانغويل

٣٠ كانون الثاني ٢٠٠٥

المكتبة اسطورة

"الليلة، التي بوسع اللاهوت الوثني أن يخلق فيها ابنة كاووس، لا تتيح إمكانية وصف النظام"

السير توماس براون، حديقة كيروس

حجرة المكتبة، التي جمعت فيها ولوقت طويل كتبي، أبصرت النور كحظيرة ماشية في وقت ما من القرن الخامس عشر، وهي تقع فوق تلّة صغيرة جنوب اللوار. هنا، وفي السنين الأخيرة قبل عهد المسيح، أقام الرومان معبداً لديونيسوس تمجيداً لرب هذه المنطقة المنتجة للنبيذ. بعد اثني عشر قرنا استبدلت الكنيسة المسيحية إله نشوة السكر بإله حوّل دمه إلى خمر(لدي صورة لنافذة من الزجاج الملّون تُظهر كرمة ديونيسوسية تنبت من جرح من الجنب الأيمن للمسيح). وفي ما بعد أيضا، ضمّ القرويون للكنيسة مسكنا يأوي كاهنهم، ومن ثم أُضيف إلى بيت كاهن الرعية هذا برجي حمام، وبستان فاكهة وحظيرة. حين رأيت هذه الأبنية، التي هي الآن منزلي، للمرّة الأولى كان كل ما تبقّى من الحظيرة جداراً حجرياً وحيداً، يفصل ملكيتي عن حقل ومرعى دجاج جاري. وفقاً لواحدة من أساطير القرية، كان الجدار، قبل أن يصبح جزءاً من الحظيرة، ينتمي إلى واحدة من القلعتين اللتين بناهما تريستان ليرميت، وزير الملك الفرنسي لويس الحادي عشر الشهير برداءة السمعة لوحشيته، وهي القلعة التي بناها لولده نحو العام ١٤٣٣. ما زالت إحدى القلعتين قائمة، وقد تغيرت كثيراً حين أُعيد بناؤها في القرن الثامن عشر. أما الثانية فقد أُحرقت قبل ثلاثة أو أربعة قرون، وبقي منها الجدار فقط، مع برج طيور يقع في طرفه القاصي، وصار ضمن ملكية الكنيسة، ويجاور واحداً من جانبي حديقة بيت الكاهن. في عام ١٦٩٣، بعد أن

تمّ افتتاح مقبرة جديدة لاستيعاب الأعداد المتزايدة من الموتى، منح سكان القرية("وقد تجمعوا خارج أبواب الكنيسة"كما تقول الوثائق)الإذن للكاهن بدمج المقبرة القديمة بأرضه، وبزرع أشجار فاكهة فوق المقابر الفارغة. في نفس الوقت استخدم جدار القلعة سوراً لحظيرة جديدة.

تسببت الثورة الفرنسية، والحروب، والعواصف والإهمال إلى تداعي الحظيرة، وحتى بعد أن تمّ استئناف الخدمات في الكنيسة، وقدوم قس جديد للسكن في بيت الكاهن، ظلت على حالها من دون إعادة بناء. اعتبر السور العتيق ملكية مقسّمة، وكان مشرفاً على حقل فلاح من جانب، و يرمي ظله على شجرة ماغنوليا وأحراش زهور كوب الماء في حديقة الكاهن من الجانب الآخر.

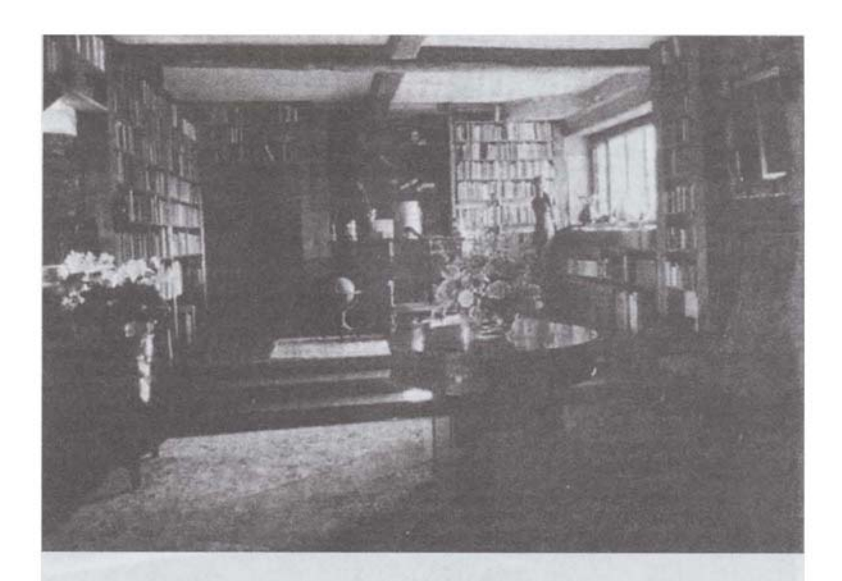
حالما وقعت عيناي على السور وعلى الصخور المنثورة حوله، أيقنت بأني سأبني هنا حجرة تأوي كتبي. كان في ذهني صورة واضحة لمكتبة، شيء هجين بين الرواق الطويل في سيسنغهارست(منزل فيتا ساكفيل- وست في كنت، الذي كنت زرته لتوي)، ومكتبة مدرستي الإعدادية، كولجيو ناسيونال دي بوينس آيرس. كنت أفضل أن تكون حجرة مغطاة بألواح من الخشب الداكن، مع إضاءة بطريقة ناعمة لدخول النور، وكراس مريحة، ومكان متاخم أصغر أضع فيه منضدة الكتابة والمراجع. تخيلت رفوفا للكتب تبدأ من مستوى خصري وتعلو فقط بالارتفاع الذي يمكن لأصابع يدي، حين أبسطها على طولها، أن تناله. لأني تعلمت من التجربة بأن الكتب، التي تكون على رفوف عالية والتي تتطلب سلالم، أو تلك التي على رفوف واطئة والتي تدفع القارئ إلى الزحف على الأرض، هي غالبا ما تحظى باهتمام أقل من تلك التي تقع في الوسط، مهما كانت مواضيعها أوجدارتها. لكن هذا الترتيب المثالي بحاجة إلى مكتبة أكبر ثلاث أو أربع مرّات من حجم



مكتبة كولجيو ناسيونال دي بوينس آيرس.

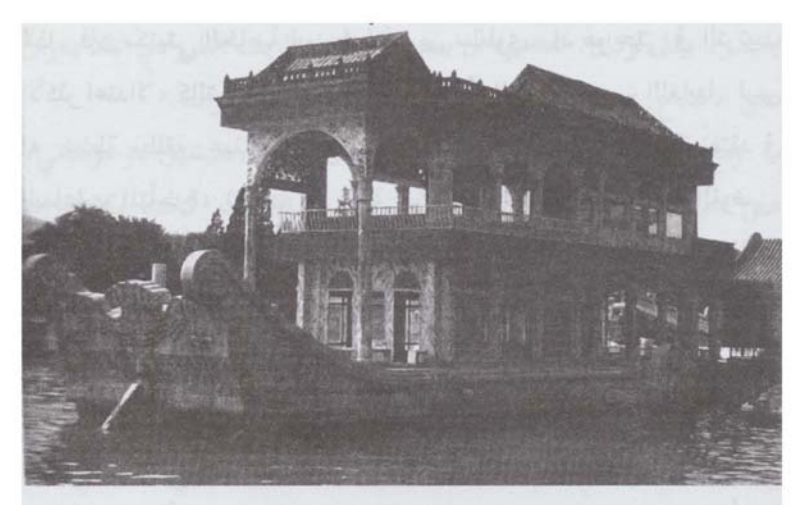
حظيرتي البائدة. محنة يصوغها ستيفنسون على نحو يثير الحزن: ((هذه هي مرارة الفن: يرى المرء في ذهنه أثراً مثالياً، لكن الواقع يضع العقبات أمامه باستمرار)). بحكم الضرورة، تبدأ رفوف مكتبتي من فوق إزار الحائط تماماً، وتنتهي بمسافة تقارب حجم كتاب من قطع الثمن قبل العوارض الخشبية التي تسند السقف.

أثناء بناء المكتبة، اكتشف البناؤون نافذتين في الجدار القديم، كانت سُدّت بالطوب قبل زمن طويل. الأولى عبارة عن كوّة ضيّقة، ربما كان منها النبّالون يحمون ابن تريستان ليرميت من غضب فلاحيه، أما الأخرى فهي نافذة واطئة مربعة، محمية بقضبان حديد القرون الوسطى المقطوع بشكل غليظ على شكل أغصان مع أوراق متدلية. من هذه النافذة بوسعي، خلال النهار،



قاعة لونغ هول في مكتبة سيسنغهارست.

أن أرى دجاجات جاري وهي تنط من زاوية إلى أخرى في الفناء الداخلي، ناقرات هذه البقعة أو تلك وهي مثارة لكثرة الطعام المعروض أمامها، مثل طالب علم مخبول في مكتبة. أما النوافذ التي في الجدار الجديد المقابل فتطل على بيت الكاهن نفسه وعلى شجرتي صوفورا(الصفيراء)في حديقتي. لكن في الليل حين توقد مصابيح المكتبة، يختفي العالم الخارجي ولا يبقى في الوجود سوى فضاء الكتب. في الليل، يوحي منظر المكتبة للشخص الواقف في الحديقة خارجاً، ما يشبه المركب الفسيح، مثل الفيلا الصينية الغريبة، التي أمرت الإمبراطورة سيكسي ببنائها، عام ١٨٨٨، بشكل سفينة معزولة في بحيرة قصرها الصيفي. في الظلام، والنوافذ مضاءة وصفوف الكتب تتألق، تغدو المكتبة فضاءً مغلقا، كوناً من قواعد متزمتة تحل محل أو تترجم تلك القواعد السارية في الكون الآخر العديم الشكل.



القصر المرمري العائم للامبراطورة سيكسي.

في النهار، المكتبة هي مملكة النظام. أتنقل بين ممراتها الحروفية بهدف جلي، باحثاً عن اسم أو صوت وأعثر على كتبي طبقاً لأمكنتها المخصصة ضمن المجموع. بناء المكان واضح للعيان: متاهة من خطوط مستقيمة، لاتتوه فيها بل تجد ضالتك، فهي غرفة مقسمة وفق نظام تصنيف منطقي وواضح، جغرافية تخضع لخارطة محددة مسبقاً، وهرمية من الحروف الأبجدية، يسهل حفظها.

لكن في الليل يتبدل الجو. الأصوات تمسي مكتومة والأفكار يعلو صوتها. ((فقط حين يحلّ الظلام تطير بومة منيرفا))، كتب والتر بنجامين مستشهداً بهيغل. يبدو الوقت أقرب لتلك اللحظة بين النوم واليقظة والتي يغدو فيها إعادة تخيل العالم سهلا. أحسّ بحركاتي دفينة من غير قصد، ونشاطي سرّي، وأتحوّل إلى ما يشبه الشبح. تشكّل الكتب الآن الحضور الواقعي وأنا، القارئ، الذي يكون، عبر الطقوس الصوفية للحروف شبه المرئية، مغوياً ومقاداً لكتاب معيّن وصفحة معيّنة. الترتيب المقرر بواسطة فهرس المكتبة، يغدو، في الليل، تقليدياً ليس إلاّ، حيث يفقد هيبته في الظلام. مع

هذا، فإن مكتبتي الخاصة ليس لها فهرس سلطوي، إذ هو حتى في الترتيب الأكثر اعتدالاً، كالتسلسل الهجائي للمؤلفين أو التقسيم حسب اللغات، ليس له سلطة مطلقة. عيناي ويداي، وهي حرّة من القيود اليومية ولا تُفتقَد في الساعات المتأخرة، تطوف بلا غاية بين الصفوف المتراصّة، ترمم الفوضى. كتاب يدعو على نحو غير مُتوقع كتاباً آخر، كي يقيم تحالفاً بين ثقافات وأزمان مختلفة. سطر شبه منسيّ يترجع صداه في واحد آخر لأسباب تظل، في وضح النهار، غير واضحة. إذا كانت المكتبة في الصباح توحي بصدى نظام واقعي بسيط ومعتدل للعالم، فإنها في الليل تبدو منتشية وسعيدة بفوضى العالم.

في القرن الأول بعد الميلاد، يصف لوكان، في كتابه عن الحرب الأهلية الرومانية، يوليوس قيصر وهو يتجول بين خرائب طروادة منوهاً بأن كل كهف وكل غابة قاحلة تذكّر بطله بالقصص الهوميرية القديمة.((هناك أسطورة التصقت في كل صخرة،))كما يشرح لوكان، ثم يصف كلا من رحلة قيصر، الغنية بالقصص، والمكتبة، في المستقبل البعيد، التي أنا الآن جالس فيها. كتبي تضم بين أغلفتها كل قصة سمعتها يوماً وما زلت أتذكرها، أو هي الآن منسية، أو ربما ستُقرأ ذات يوم، فهي تملأ الفضاء المحيط بي بأصوات قديمة وجديدة. لا ريب في أن هذه القصص موجودة على حد سواء أثناء النهار، لكن، ربما بسبب حضور أشباح الليل والأحلام الملهمة، يغدو وجودها أكثر إشراقاً بعد غروب الشمس. أسير بين الرفوف وأنا ألقي نظرة على أعمال فولتير وأسمع في الظلام خرافات صادق الشرقية، وفي مكان بعيد يمسك"فاتك"وليم بيكفورد خيط القصة ويمرره إلى مهرّجي سلمان رشدي خلف الغلاف الأزرق لرواية"آيات شيطانية"، وهناك شرق آخر يتردد صداه في القرية الساحرة من القرن الثاني عشر لزاهري من سمرقند، الذي يسلّم القص بدوره إلى حرافيش نجيب محفوظ في مصر الزمن الحاضر. المحيطون

بقيصر، بطل لوكان، نصحوه أن يمشي بحذر في الريف الطروادي لئلا يدوس على الأشباح. في الليل، هنا في المكتبة، الأشباح لها أصوات.

ومع ذلك، فإن المكتبة في الليل ليست لأي قارئ. ميشيل دو مونتاني، على سبيل المثال، لا يتفق مع تفضيلي الزمني الكئيب. كانت مكتبته(إنه يتحدث عن librairie، لا عن Bibliothèque، بما أن استخدام هذه الكلمات قد بدأ لتوه بالتغير في القرن السادس عشر المدوّخ)واقعة في الطابق الثالث من برجه، في مكان قديم للتخزين.((لقد قضيت معظم أيام حياتي فيها، وأكثر ساعات النهار، إذ لم أكن هناك في الليل أبداً.))يعترف قائلاً. في الليل كان مونتاني ينام، حيث كان يؤمن بأن الجسد يعاني بما يكفي أثناء النهار من أجل العقل القارئ.((تمنح الكتب عدداً من الصفات السارة لأولئك الذين يعرفون كيف يختارونها. لكن من دون تضحية لا يبلغ المرء شيئا، إذ إنه ليس سروراً عاديّاً وصافياً، وليس مثل المسرّات الأخرى، فهو ينطوي على إزعاجاته، وهي فادحة، فالروح تسلّي نفسها، لكن الجسد، الذي تشغلني صحته دائما، يبقى خاملا ويغدو مرهقا وحزينا)).

الأمر ليس كذلك معي. الصفات المختلفة لطريقتي في القراءة تبدو إنها تخترق كل عضلة من جسمي، لهذا عندما أقرر في نهاية اليوم أن أطفئ ضوء المكتبة، فأنا أحمل معي إلى النوم أصوات وحركات الكتاب الذي كنت أغلقته للتو. لقد تعلمت من الخبرة الطويلة بأني إذا أردت أن أكتب في الصباح حول موضوع معين، فإن قراءتي عن هذا الموضوع في الليل سوف تموّن أحلامي ليس بالحجج فحسب بل بالأحداث الحقيقية للقصة أيضا. القراءة عن boeuf en daube لمسز رامزي تجعلني أحس بالجوع، صعود بتراركا في"ماونت فنتو" يتركني مقطوع النفس، وصف كيتس لممارسته السباحة ينشطني، الصفحة الأخيرة من"كيم"تملؤني بشعور من حب الصداقة، الوصف الأول لكلب "باسكرفيل"تجعلني أتلفت ورائي قلقاً. بالنسبة لكولِيدرج، مثل هذه الاستعارات تثير في القارئ الأحاسيس

المحتملة الأكثر سمواً، فالشعور بالسمو، كما يقول((لا يتأتى من منظر الشئ الخارجي، بل من تأمل الناظر إليه؛ لا من الانطباع الحسي، بل من رد الفعل التخيلي)). استبعد كوليدرج



برج مونتاني

"الانطباع الحسي"بسهولة شديدة، فمن أجل أن تزدهر هذه الخيالات، يجب أن أسمح لمشاعري الأخرى أن تستيقظ، لترى وتلمس الصفحات، ولتسمع صوت تجعّد وحفيف الورقة وصوت صرير كعب الكتاب المرعب حين تقلب، ولتشم عبير خشب الرفوف، والعطر المسكي لجلد الأغلفة، والرائحة النفاذة لكتب الجيب الصفراء. حينها يمكنني النوم.

أثناء النهار، أكتب، وأتنقل بين الكتب متصفحا، معيداً ترتيبها، أفسح للحديثة منها مكاناً، وأعيد تشكيل الأقسام لتوفير حيّز جديد. الكتب الجديدة الوافدة يُرحب بها بعد فترة من الفحص. إذا كان الكتاب مستعملاً، أدع كل الإشارات التي دُونت عليه على حالها، الآثار التي يتركها القارئ

السابق: رفاق السفر الذين سجلوا مرورهم بالتعليقات المخربشة، اسم ما على الصفحة البيضاء الفارغة في بداية ونهاية الكتاب، بطاقة قطار لتأشير صفحة معينة. سواء كانت قديمة أوجديدة، الإشارة الوحيدة التي أناضل لإزالتها من كتبي(وغالبا دون نجاح يُذكر)هي لصقة السعر التي يضعها بائعو الكتب الحقودين على ظهر الكتاب. هذه الدملة الشيطانية الصغيرة لا تُستأصل بسهولة، فهي تخلّف ندوبا مجذومة وآثاراً من مادة لزجة يلتصق بها الغبار والزغب بعد فترة من الزمن، تجعلني أتمنى لو كان لدي ممسحة جهنمية أحكم بها على هؤلاء الذين اخترعوا هذه اللصقات.

أثناء الليل، أجلس لأقرأ، وأراقب صفوف الكتب وهي تغويني ثانية لإقامة اتصال بين جيرانها، لأكتشف تواريخ مشتركة لها، لأضم قصاصة متذكَرة مع أخرى. حاولت فرجينيا وولف مرّة التمييز بين الشخص الذي يحب التعلم والشخص الذي يحب القراءة، وتوصلت إلى نتيجة مفادها أنه((ليس هناك اتصال، مهما يكن، بين الاثنين))، ((الرجل المتعلم))، كتبت:

"شخص كثير الجلوس، متوحد تماما ومتحمس، يبحث بين الكتب لاكتشاف بعض ذرّات من الحقيقة، التي تملكته الرغبة في الوصول إليها. إذا ما حدث وأن قهره شغف القراءة، فإن كسبه سيتضائل ويتبدد بين أصابعه. القارئ، ومن جانب آخر، يجب أن يكبح رغبة التعلم من البداية، في حال بسطت المعرفة نفوذها عليه بشكل تام، وثابر على ملاحقتها، وعلى القراءة بشكل منهجي حتى يصبح اختصاصياً أوحجة، فإنه سيجهض أكثر الأهواء البشرية بقراءة صافية ونزيهة".

أثناء النهار، التركيز والنظام يغرياني، أما في الليل فيمكنني أن أقرأ بفكر خال من الهموم يكاد يكون لا مبالياً.

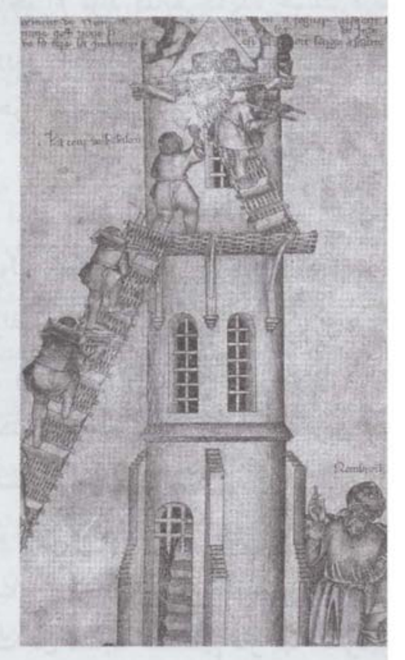
نهار أو ليل، بأي حال، مكتبتي هي عالم خاص، بخلاف المكتبات العامة، كبيرة كانت أم صغيرة، وكذلك بخلاف المكتبة الإلكترونية الكونية،

التي أظل إزاء كونيتها شكاك باعتدال. السمات الجغرافية والعادات لكل من الثلاثة مختلفة بأكثر من طريقة، وحتى لو اشتركت جميعا بالرغبة الصريحة بتلبية حاجتنا للمعرفة والمخيلة، ولتجميع وتصنيف المعلومات، ولضم خبراتنا المكتسبة في الحياة في مكان واحد، واستبعاد الخبرات الأخرى للقرّاء المكتسبة من خلال التقتير والتجاهل والعجز أو الخوف.

ثابتة جداً وبعيدة المدى هي محاولتيّ في الاحتواء والإقصاء اللتين تبدوان متناقضتين، لأنهما تملكان رموزهما الخاصة بهما(على الأقل في الغرب)، وهما معلمان، إذا جاز القول، يرمزان إلى كل شيْ نحن عليه. الأولى شُيدت لابتغاء فراديس لا يمكن الوصول إليها، وناشئة عن رغبتنا في قهر المكان، رغبة مقيدة بتنوع الألسنة قائمة حتى الآن كعقبة يومية في طريق محاولاتنا بجعل أنفسنا معروفين واحدنا للآخر. الثانية بنيت كي تجمع، من جميع أنحاء العالم، ما تحاول هذه الألسنة أن تسجله، وهي نابعة من الأمل في قهر الزمان، وقد انتهت إلى نار أسطورية أتت حتى على الحاضر. برج بابل في المكان ومكتبة الإسكندرية في الزمان هما رمزان لهذين الطموحين. في ظلهما، مكتبتي الصغيرة هي شاهد على كلا الرغبتين المستحيلتين: رغبة إحتواء كل لغات بابل، وتوق تملك كل كتب الإسكندرية.

رويت قصة برج بابل في الفصل الحادي عشر من سفر التكوين. بعد الطوفان، ارتحل أهل الأرض شرقاً فوجدوا سهلاً في أرض شِنعار فاستوطنوا هناك وقرروا تشييد مدينة وبرجاً يبلغ رأسه السماء.((ونزل الرب ليشهد المدينة والبرج اللذين شرع بنو البشر في بنائهما. فقال الرب: "إن كانوا كشعب واحد ينطقون بلغة واحدة، قد عملوا هذا منذ أول الأمر، فلن يمتنع إذن عليهم أي شئ عزموا على فعله. هيا ننزل إليهم ونبلبل لسانهم، حتى لا يفهم بعضهم كلام بعض".)). خلق الرب، كما تخبرنا الأسطورة، عدداً

وافراً من اللغات كي يحول دون أن نعمل معاً، حتى لا نغالي في قوتنا. وفقاً لسانهدرين(مجلس اليهود الأقدمين الذي أقيم في القدس في القرن الأول)، ان المكان الذي إرتفع فيه البرج ذات يوم لم يفقد أبداً صفته السحرية، وحتى اليوم، أي امرئٍ يمرّ به ينسى كل ما يعرفه. قبل سنوات، أُظهرت على تلة صغيرة من قطع من الحجارة خارج أسوار مدينة بابل، وقيل لي إن هذا هو كل ما تبقى مما دعي يوماً ببرج بابل.



بناء برج بابل كما هو موصوف في مخطوطةانكليزية مصورة من كتاب جينيسيس، حوالي ١٣٩٠.

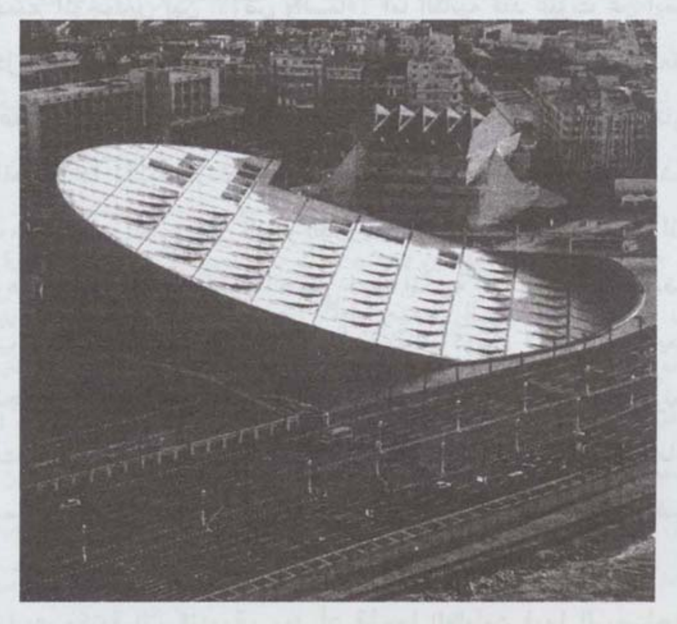
كانت مكتبة الإسكندرية مركز تعليم أنشأها الملوك البطالسة في نهاية القرن الثالث قبل الميلاد كي تتبع تعاليم أرسطو. وفقاً للجغرافي الإغريقي سترابو، إذ كتب في القرن الأول، أن المكتبة ربما احتوت على كتب الفيلسوف الخاصة، التي خلّفها لواحد من تلاميذه يدعى ثيوفراستوس، الذي أورثها بدوره لتلميذ آخر، نيلوس السبيسي، الذي أسهم في النهاية بتأسيس المكتبة. وقت بناء مكتبة الإسكندرية، كانت مكتبات العالم القديم إما مجموعات خاصة للقراءة تعود لشخص واحد، أو مخازن حكومية تحفظ فيها الوثائق القانونية والأدبية كمراجع رسمية.

كان الدافع لإقامة هذه المكتبات القديمة هو الفضول أكثر منه الحاجة إلى الحماية، والحاجة إلى مشورات محدودة أكثر منها رغبة بالشمول. مكتبة الإسكندرية كشفت عن مخيلة جديدة، ، إذ تميزت عن المكتبات الجديدة في الطموح والسعة. حاول الأطالسة، ملوك برغاموم، في الشمال الغربي من آسيا الصغرى، أن ينافسوا الإسكندرية فبنوا مكتبة خاصة بهم، لكنها لم تضاه أبداً عظمة مكتبة الإسكندرية. وفي سبيل منع وصول منافسيهم إلى مخطوطات معينة في مكتبتهم، عمد الملوك البطالسة إلى حظر تصدير ورق البردي، الأمر الذي دعا مكتبيو برغاموم إلى الرد باختراع مواد كتابة جديدة حملت فيما بعد اسم المدينة: "بيرغامينون"، أو ورق البرشمان(الرق). وثيقة عجيبة من القرن الثاني قبل الميلاد، قد تكون محرّفة، تدعى "رسالة ارستياس" ترد فيها قصة حول أصل مكتبة الإسكندرية، حيث تقول إنها شيدت كرمز، بناءً على حلم هائل. ومن أجل أن يحشد الملك بطليموس الأول مكتبة كونية(كما تنص الرسالة)، كتب((إلى جميع ملوك وحكام الأرض))يرجوهم أن يبعثوا أي نوع من الكتب لأي نوع من المؤلفين،((شعراء، كتّاب قصص، خطباء وصوفيين، أطباء وعرّافين، مؤرخين وغيرهم أيضا)). أحصى تابعوا الملك خمسمئة ألف لفافة من الرق كانت المكتبة بحاجة إليها.((كل الكتب من كل الناس في أنحاء الأرض)).(مع الزمن ستعظم طموحاتنا، إذ إنه في عام ١٩٨٨ كانت مكتبة الكونغرس وحدها تتسلم مثل هذا العدد من الكتب كل سنة، حيث تحتفظ منها بنحو أربعمئة ألف). أعيد اليوم بناء مكتبة الإسكندرية على يد الحكومة المصرية، التي أعلنت عن مسابقة للتصميم فاز بها استوديو المعماري النرويجي سنوهيتا. كلفت المكتبة الجديدة ٢٢٠ مليون دولار، وهي بناء بارتفاع ٣٢ مترا ويطوق محيطاً قطره ١٦٠ مترا، ومساحة رفوف تكفي لإستيعاب ثمانية ملايين مجلد، وستضم مكتبة الإسكندرية أيضاً مواد سمعية - بصرية ومجموعات عملية في قاعاتها الواسعة.

أقيم برج بابل(حين كان مقاماً)كبرهان على إيماننا في وحدة العالم. وفقاً للأسطورة، في ظل برج بابل عاش البشر في عالم دون حدود لغوية، مؤمنين بأن السماء ستكون في متناول أيديهم مثلما هي الأرض الصلبة. مكتبة الإسكندرية(على أرض أرسخ أكثر ربما من برج بابل)ظهرت لتبرهن العكس، بأن العالم يشكّل تنوعاً أخاذاً وأن هذا التنوع ينطوي على نظام سرّي. الأول عبر عن حدسنا بألوهية واحدة، لا متناهية، أحادية اللغة، كلماتها منطوقة من جميع الموجودين بين الأرض والسماء، أما الثانية فقد عبرت عن ايماننا بأن كل واحد من الكتب المؤلفة من هذه الكلمات يملك كونه الخاص المعقد، كل أُعطي الحق في تفرده ليخاطب كل الخليقة. برج بابل انهار قبل تاريخ فن القص، أما مكتبة الإسكندرية فقد نشأت حين أخذت القصص شكل كتاب، وكافحت للعثور على النحو الذي يعير كل كلمة، كل لوح، كل لفافة تفسيرها ومكانها الملائم. المعمار الضمني لهذه المكتبة اللامتناهية ــ الغامض، المهيب، السرمدي ــ يستمر بملازمة حلمنا بنظام كوني. لا شيء مثله يمكن أن يُنجز أبداً، وبالرغم من ان المكتبات الأخرى(بما فيها شبكة الانترنت) حاولت أن تضاهي طموحها المدهش. لقد احتلت مكاناً فريداً في تاريخ العالم، كمؤسسة وحيدة فرضت نفسها لتسجيل وقائع كل شيء ماضياً وحاضراً، وربما حفظت وتنبأت وقائع انبعاثها وتدميرها هي نفسها.

صارت مكتبة الإسكندرية، بعد أن قسّمها العاملون فيها إلى مساحات موضوعاتية بأبواب مبتكرة، حشد من المكتبات كل منها يركز على جانب واحد من جوانب التنوع العالمي. هنا(كما يفخر الاسكندرانيون)كان المكان الذي حفظت فيه الذاكرة حية، حيث كان لكل فكر مكتوب مكانه اللائق، وكان بوسع كل قارئ أن يجد طريق رحلته الخاص مقتفيا أثر طرق أخرى في كتب ربما لم تكن مفتوحة بعد، حيث الكون نفسه كان مصاغا في كلمات.

كي يصل بطموحه إلى مديات أبعد، أصدر الملك بطليموس مرسوماً يقضي بأن يتم الحجز على كل كتاب يدخل إلى ميناء الإسكندرية واستنساخه، مع وعد مقدس بأن تعاد النسخة الأصلية إلى مصدرها(ومثل كل الوعود الملكية المقدسة، لم يتم دائماً البرّ بهذا الوعد وغالباً ما كانت الكتب المستنسخة هي التي تسترجع). بسبب هذا الإجراء الاستبدادي، فإن الكتب التي تجمعت في المكتبة صارت تعرف باسم "مجموعة السفينة".



مكتبة الإسكندرية الجديدة، التي وضع لها حجر الأساس في ١٩٨٨.

أول مرجع عن المكتبة كتبه هيرودس، شاعر من كوس أو ميليتوس، عاش في النصف الثاني من القرن الثالث قبل الميلاد، في نص يشير فيه إلى بناء عرف باسم"الميوسيون"أو"بيت الميوزيات"(ربات الفن)، وهو من المؤكد تقريباً المكان الذي استقرت فيه المكتبة الشهيرة. من الغرابة أن هيرودس، وحسب اللعبة المدوّخة في الصناديق الصينية، أضفى على مملكة مصر طبيعة مكتبة

كونية شاملة، بهذا تضم مصر"المتحف"، الذي بدوره يضم"المكتبة"، وهذه بدورها تضم كل شئ.

و{ مصر } تشبه بيت افروديت:

كل شيء موجود وكل شيء محتمل

تعثر عليه في مصر: ..مال، ألعاب، سلطة.. السماء الزرقاء،

معبد الأخ والأخت الربانيان، الملك العطوف،

المتحف، النبيذ وكل مايمكن للمرء تخيله.

لسوء الحظ، وبالرغم من إشارات عرضية مثل هذه، فنحن في الحقيقة لا نعرف ما كانت تبدو عليه مكتبة الإسكندرية. لدينا صورة عن برج بابل، ربما كانت مستوحاة من منارة الملوية لجامع أبو دلف في سامراء، المبني في القرن التاسع، وتم تخيله بآلاف الرسومات، بشكل رئيسي على يد فناني القرن السادس عشر الهولنديين مثل بروخل: بناء حلزوني لم يتم إكماله غاصًا بعمال دؤوبين. أما مكتبة الإسكندرية، فلا نملك عنها صورة مماثلة، مهما كانت خيالية.

العالم الإيطالي لوتشيانو كانفورا، بعد بحوث قام بها لكل المصادر المتاحة، وصل إلى نتيجة مؤداها أن المكتبة نفسها تألفت من قاعة طويلة(أو مجاز)، وعالية في الميوسيون. على طول جدرانها كانت كلمة bibliothekai، مصطلح كان يطلق بالأصل ليس فقط على الحجرات، بل على الرفوف وفجوات الجدران التي تحفظ فيها لفائف الرق، لكنه لا يطلق على المبنى. فوق الرفوف كان ثمة نقش: "مكان شفاء الروح". على الجانب الآخر من جدران البيبليوتيكاي كان هناك عدد من الحجرات، استخدمها ربما الطلاب كسكن أومكاناً للإجتماع. وهناك أيضاً حجرة عامة لتناول الطعام.

يجاور موقع الميوسيون الحي الملكي، على واجهة البحر، وكل حجرة

من حجراته مزودة بسرير ومنضدة للطلاب الضيوف في بلاط البطالسة. وفقاً للمؤرخ الصقّلي ديودوروس سيكولوس، الذي كتب في القرن الأول قبل الميلاد، أن الإسكندرية تفاخرت بامتلاك مكتبة ثانية، كانت تدعى المكتبة الابنة، مخصصة لاستخدام الطلاب غير المنتسبين للميوسيون. كان مكانها في الجوار الجنوبي الغربي من الإسكندرية، بقرب معبد سيرابيس، وكانت مجهزة بكتب مستنسخة عن كتب مكتبة الميوسيون.

أمر يثير الحنق أن لا يكون بوسعنا وصف ما كانت عليه مكتبة الإسكندرية. بعجرفة غير مفهومة، يبدو أن كل مؤرخ من مؤرخي أخبارها(كل هولاء الذين وصلت شهاداتهم إلينا)كان يعتقد أن وصفها غير ضروري. وصف الجغرافي الإغريقي سترابو، معاصر ديودوروس، مدينة الإسكندرية بالتفصيل، لكن، ولأمر مبهم، أغفل ذكر المكتبة.((الميوسيون شكّل أيضاً جزءاً من الأبنية الملكية واشتمل على peripatos، وهو عبارة عن رواق فيه مقاعد، ومبنى كبير يضم حجرات عامة حيث يتناول فيه الطلاب أعضاء الميوسيون طعامهم)). هذا كل ما حدثنا عنه.((لماذا علي الحديث عنها، بما أنها خالدة في ذاكرة البشر؟))، كتب اثينيوس ناوكراتيسي، بالكاد بعد قرن ونصف من تدميرها. أن المكتبة التي كان يراد لها أن تكون حافظة لذاكرة العالم لم تكن قادرة على حفظ ذاكرتها هي نفسها. كل ما نعرف عنها، وكل ما تبقى من ضخامتها، ومن حجَرها ولفائف رقها، هو الأسباب المختلفة التي دعت إلى وجودها.

واحد من الأسباب القوية كان سعي المصريين الدؤوب للخلود. إذا ما أتيح لصورة للكون أن تجمع وتحفظ تحت سقف واحد(كما كان الملك بطليموس يؤمن)، فإن كل تفصيل في تلك الصورة ـ ذرة رمل، قطرة ماء، الملك نفسه ـ سيكون له مكاناً هناك، مسجلا في كلمات بيد شاعر، قاص، مؤرخ، وإلى الأبد، أو على الأقل طالما كان هنالك قرّاء سيفتحون ربما يوماً

الصفحة المعينة. ثمة بيت في قصيدة، جملة في قصة خرافية، كلمة في مقالة، يكون بها وجودي مبرراً، سأعثر على ذلك المقطع، حينها سأضمن الخلود. أبطال فرجيل وهرمان ملفيل وجوزيف كونراد، وأكثر أبطال الملاحم الأدبية، اعتنقوا هذه العقيدة الاسكندرانية. بالنسبة لهم، العالم(مثل المكتبة)مؤلف من قصص لا تعد ولا تحصى، تقود عبر متاهة متشابكة، إلى لحظة إلهامية مهيأة لهم وحدهم ــ حتى لو صار، في تلك اللحظة الأخيرة، الإلهام نفسه محرّماً، مثلما أدرك مهاجر كافكا وهو واقف أمام "أبواب القانون"(التي تذكرنا بشكل غريب بأبواب مكتبة)مكتشفاً في لحظة الموت بأنها((ستكون مغلقة إلى الأبد، لأنها كانت لك وحدك)). القرّاء، مثل أبطال الملاحم، لا يضمنون لحظة تجلّي.

في عصرنا المحروم من الأحلام الملحمية ــ التي استبدلناها بأحلام النهب ـــ وهم الخلود تخلقه التكنولوجيا. شبكة الانترنت، ووعدها بصوت وموقع للجميع هي مرادفنا لـ mare incognitum، البحر المجهول في العصر القديم الذي كان يستدرج المسافرين إلى أعماقه بغواية الاكتشاف. شبكة الإنترنت لامادية مثل الماء، أوسع من أي إدراك بشري، من سماتها البارزة أنها تجعلنا نخلط بين الشيء غير القابل للإدراك واللامتناهي، وهي مثل البحر متقلّبة: ٧٠ بالمئة من معلوماتها لا تدوم أكثر من أربعة أشهر. جدارتها(الوهمية)تستلزم حاضراً ثابتاً ــ الذي كان بالنسبة إلى علماء القرون الوسطى واحداً من تعريفات الجحيم. الإسكندرية وعلماؤها على خلاف ذلك، لم يخطؤوا أبداً بالطبيعة الحقيقية للماضي، إذ أنهم عرفوا أنه كان دوماً مصدراً لحاضر دائم التحول، تعمّق فيه القرّاء الجدد بالكتب القديمة التي أضحت جديدة في عملية القراءة. كل قارئ يوجد كي يضمن لكتاب معين قدراً متواضعاً من الخلود. القراءة، بهذا المفهوم، هي طقس انبعاث.

لكن مكتبة الإسكندرية ظهرت لتفعل أكثر من مجرد منح الخلود. انها كانت تدوّن كل شيء يمكن له أن يُدوَن، وهذه المدونات كان لا بد أن تُختصَر في مدونات أخرى، أثر لا متناهي من القراءات والشروح أحدثت بدورها شروحا جديدة وقراءات جديدة. كانت المكتبة بمثابة ورشة قراءة، وليست مجرد مكان تحفظ فيه الكتب بلا نهاية. كي يضمنوا تحقيق أهدافها، دعا البطالسة أكثر العلماء شهرة من أقطار عديدة ـ أمثال إقليدس وأرخميدس ـ ولم يُطلب منهم شيئاً بالمقابل، سوى أن يفيدوا من كنوز المكتبة. بهذه الطريقة، يمكن لأي من هؤلاء القرّاء الاختصاصيين أن يطّلع على أعداد كبيرة من النصوص، قارئين وملخصين ما قرأوه، منتجين موجزات نقدية للأجيال القادمة التي ستلخص بدورها هذه القراءات إلى موجزات أخرى. مقطوعة هجائية من القرن الثالث قبل الميلاد كتبها تيمون الفيلوسي تصف هؤلاء العلماء بـالـ charakitai، "المخربشين"وتقول بأنه((في مصر الكثيفة السكان، عديد من الـ charakitai الحسني التغذية يخربشون على ورق البردي بينما هم يتشاجرون على نحو متواصل في قفص الميوزيات)).

في القرن الثاني، ونتيجة للخلاصات والمقارنات الاسكندرانية، ترسخت بقوة قاعدة معرفية للقراءة، تقضي بأن((أكثر النصوص الحديثة حلت محل النصوص السابقة، بما أنها يُفترض قد ضمت القديمة)). تبعاً لهذا التأويل، وأقرب إلى عصرنا، افترض ستيفان مالارميه أن((العالم وجد كي يُصَب في كتاب جميل))، هذا يعني، في كتاب واحد. في أي كتاب، تقطير أو تلخيص للعالم لا بد من أن يشتمل على كل الكتب الأخرى. هذه الطريقة تأخذ سبيلها للإنجاز في كتب نذيرة معينة، كما تنبأت"الأوديسا"بمغامرة هولدن كاولفيلد، وكما تكهنت قصة"ديدو"بمغامرة مدام بوفاري، أو كانت صدى لها، كما في ملاحم فولكنر التي انطوت على أقدار"بيت آتريوس"، ورحلات جان موريس التي كرّمت رحلات ابن خلدون.

هذا الحدس للقراءات الترابطية أتاح لمكتبيي الإسكندرية تأسيس علم أنساب أدبي معقد، وفي ما بعد أتاحوا للقرّاء أن يدركوا، في أكثر الروايات عادية في وصف حياة البطل(تريسترام"شاندي"أو"اعترافات زينو")أو في أكثر الكوابيس خيالية(لصادق هدايت أو خوليو كورتازار)، وصف الكون بكليته، وأمجادهم وبلاياهم هم أنفسهم. لعل في أي صفحة من صفحات كتبي ثمة عرض دقيق لتجربتي السرية في العالم. كما اكتشف مكتبيوا الإسكندرية، في أن كل لحظة أدبية وحيدة تتضمن بالضرورة كل اللحظات الأخرى.

لكن أكثر من أي شيء آخر، كانت مكتبة الإسكندرية مكاناً للذاكرة، للذاكرة المنقوصة بالضرورة.((ما يجمع الذاكرة بالفن))، كتب جوزيف برودسكي في عام ١٩٨٥:

"هو موهبة الانتقاء، الشغف بالتفاصيل. مهما بدت هذه الملاحظة مجاملة للفن(النثر على وجه الخصوص)فإنها ستبدو للذاكرة بمثابة إهانة. هذه الإهانة، على كل حال، مستحقة. الذاكرة تتضمن بشكل دقيق تفاصيل، ليست كل الصورة، بل الأجزاء البارزة منها، أو ليس العرض بمجمله. الاقتناع بأننا، بطريقة ما، نتذكر الشيء كله على نحو إجمالي، ونفس الاقتناع الذي يتيح لجنسنا البشري أن يستمر في الحياة، ليس له أي أساس. أكثر من أي شيء آخر، تشبه الذاكرة مكتبة في حالة فوضى أبجدية، وبلا أعمال مجمعة من أي أحد".

توقيراً لهدف الإسكندرية البعيد، سعت، إلى حد ما، كل المكتبات التالية، مهما كان حجم طموحها، إلى هذه الوظيفة الذاكرية. وجود أي مكتبة، حتى مكتبتي، يمنح القرّاء وعياً بما تشتمل عليه براعتهم الحقيقية، براعة تقاوم تقييدات الزمن بنقل قطع الماضي إلى حاضرهم. إنها تسمح لهم بإلقاء نظرة، مهما كانت سرية وبعيدة، على أذهان الناس الآخرين، وتمنحهم معرفة معينة بحالتهم الخاصة من خلال القصص التي حفظت لهم

هنا لقراءتها. وأهم من كل شيء، أنها تخبر القرّاء بأن براعتهم تشتمل على إمكانية لتذكر الأشياء بفعالية، عبر وسيلة الاستذكار للصفحة المطبوعة، واللحظات المنتقاة من التجربة الإنسانية. وهذا كان هو العرف العظيم الذي بدأته مكتبة الإسكندرية. وعلى ذلك، بعد قرون، حين اقترح إقامة نصب لضحايا الهولوكوست في ألمانيا، كان أكثر العروض ذكاء(لم يؤخذ به للأسف) بناء مكتبة.

ومع هذا، وكمكان عام، كانت مكتبة الإسكندرية بمثابة تناقض ظاهري، بناء أقيم كي يلغي بشكل أساسي مهارة خصوصية(القراءة)، صارت في تلك اللحظة مشاعة. تحت سقف المكتبة، يتشارك الطلاب وهم الحرية، مؤمنين بأن مملكة القراءة صارت تحت تصرفهم. في الواقع، كان خيارهم مراقَب بوسائل عدّة: بواسطة رف متراص(مفتوح أو مغلق)موضوع عليه الكتاب، وبواسطة قسم المكتبة المفهرس، وامتيازات القاعات المحجوزة أو المجموعات الخاصة، وأجيال من المكتبيين صاغت أخلاقهم وأذواقهم مجاميع الكتب، ومجموعة القواعد العامة المبنية على ما يعتبره المجتمع البطليمي"لائقا"أو"نفيسا"، وبواسطة الأحكام البيروقراطية التي ضاعت أسبابها في أقبية الزمن، واعتبارات الميزانية والمتيسر.

كان البطالسة ومكتبيوهم على دراية بالتأكيد بأن الذاكرة هي مصدر قوة. هيكاتيوس الأبديري، في كتابه َشبه الروائي عن الرحلات، Egyptiaca، زعم أن الثقافة الإغريقية مدينة بوجودها لمصر، التي كانت ثقافتها أكثر قدماً، وأخلاقياً أرقى بكثير. إيراد هذا الزعم لم يكن كافيا، إذ وضع مكتبيو الإسكندرية مجموعة واسعة من أعمال الاغريق ليؤكدوا دين هولاء للتأثير المصري. ليس الإغريق فقط، إذ إنهم من خلال مجموعة الكتب لمختلف الثقافات مِن الماضي كانوا يأملون أن يمنحوا قرّاءهم معرفة عن الجذور والفروع

المتناسجة للثقافة الإنسانية، التي يمكن تعريفها(كما أعلن سيمون ويل بزمن طويل في ما بعد)بـ"تشكل الانتباه". لهذه الغاية، درّبوا أنفسهم كي يكونوا منتبهين للعالم الذي يقع خارج حدودهم، جامعين ومترجمين المعلومات، مرتبين ومفهرسين كل أنواع الكتب، ساعين لإيجاد روابط بين مختلف النصوص، وبجمع هذه الروابط كان يتم تحفيز عملية التفكير.

بتجميعهم أكبر عدد ممكن من الكتب تحت سقف واحد، فإن مكتبيي الإسكندرية حاولوا أيضاً حمايتها من مخاطر التلف الذي يمكن أن يحدث لو تُركت في ما كان يُعتقد أنها أيدي غيرمبالية(حجة تبنتها عديد من المتاحف والمكتبات في الغرب اليوم). لهذا فهي بالإضافة إلى تحولها إلى رمز لقدرة الإنسان على العمل من خلال الأفكار، فإنها غدت معلما يمثل هزيمة الموت، الذي، كما يخبرنا الشعراء يقتل الذاكرة.

مع هذا، وبالرغم من كل قلق حكامها ومكتبييها، فإن مكتبة الإسكندرية اختفت من الوجود تماماً. وكما لا نعرف شيئاً عن الشكل الذي كانت عليه حين كانت قائمة، فإننا لا نعرف شيئاً مؤكداً عن اختفائها؛ هل حدث فجأة أم بالتدريج. وفقاً لبلوتارك، أن حريقا كبيرا حدث أثناء إقامة يوليوس قيصر في الإسكندرية في العام ٤٧ قبل الميلاد، انتشرت نيرانه من ترسانة الأسلحة((وانتهت عند المكتبة العظيمة،))لكن روايته خالية من الصحة. مؤرخون آخرون(ديو كاسيوس وأورسيوس، استقوا معلوماتهم من ليفي ومن كتاب قيصر نفسه De bello alexandrino)لمّحوا إلى أن حريق قيصر لم يدمر المكتبة نفسها بل بعضا من أربعين ألف مجلد خزنت قرب الترسانة، ولعلها كانت تنتظر أن يتم شحنها بالسفن إلى روما. بعد سبع قرون تقريباً وردت احتمالية أخرى. مصادر مسيحية لتسجيل الأخبار التاريخية، استخلصت معلوماتها من"تاريخ الحكماء"لابن الكفتي، الذي

يُعد اليوم تحريفياً، وجهت اللوم بتدمير المكتبة إلى قائد المسلمين عَمْرو بن العاص، الذي يُفترَض أنه تلقى أمراً من الخليفة عمر بن الخطاب، أثناء فتح الاسكندريةعام ٦٤٢، بإحراق محتويات المكتبة. استخدمت الكتب، وفقاً للراوي المسيحي، كوقود في الحمامات العامة، ولم يستثن منها سوى أعمال أرسطو فقط.

تاريخياً، بقيت نهاية"المكتبة"غامضة مثلما كان مظهرها الحقيقي، وتاريخياً يبدو أن"البرج"إن وجد فعلاً، لم يكن غير مشروع عقاري فاشل ولو كان طموحاً. على أي حال، كأسطورة في مخيلة ساعات الليل، لا يرقى الشك إلى رسوخ كلا البنائين. بوسعنا الإعجاب بالبرج الأسطوري بارتفاعه المرئي مبرهناً على أن المستحيل يستحق المحاولة، وإن كانت نتيجته مدمرة، وبوسعنا أن نراه وهو يرتفع ببطه لكن بتصميم، بجهد مجتمع متماسك يشبه النمل الدؤوب، وبوسعنا أن نشهد نهايته في تشتت أفراده، كل في عزلة محيطه اللغوي الخاص. بإمكاننا أن نطوف بين الرفوف المكتظة لمكتبة الإسكندرية، حيث كل المخيلات والمعارف مجتمعة، وبإمكاننا أن نستشعر بتدميرها إنذاراً بأن كل ما جمعناه مآله الضياع، لكن يمكن جمع أكثره ثانية. وبإمكاننا التعلم من خلال طموحها المدهش كيف تصبح تجربة رجل واحد، بواسطة كيمياء الكلمات، تجربة الجميع، وكيف أن تلك التجربة التي تركزت مرة ثانية في كلمات، بوسعها أن تحقق لكل قارئ منفرد غاية سرية وشخصية.

مكتبة الإسكندرية، وهي قابعة في ذاكرة الرحالة وفي تاريخ المؤرخين، وأُعيد اكتشافها في أعمال الرواية والقصص الخرافية، نشأت لتعبر عن لغز الشخصية البشرية، عارضة في رف بعد رف السؤال الكبير((من أنا؟)). في

رواية الياس كانيتي Die Blendung، عام ١٩٣٥ ، بيتر كاين، العالم الذي يقوم في الصفحات الأخيرة بإضرام النار في نفسه وفي كتبه عندما يشعر بأن العالم الخارجي غدا لحوحاً بشكل لا يُحتمل، يجسّد كل وارث للمكتبة، حيث ذاته، كقارئ، واقعة في شرك الكتب التي يملكها، ولا بد أن يتحول هو نفسه، مثل واحد من العلماء الاسكندرانيين، إلى رماد في الليل عندما لا يعود للمكتبة وجود. رماد حقا، كما كتب الشاعر فرانشيسكو كويفيدو، في بداية القرن السابع عشر، ثم أضاف، بنفس الإيمان ببقاء الروح حية، ذلك الإيمان الذي جسدته مكتبة الإسكندرية،((رماد ستكون، لكنه رماد من الحب)).

المكتبة ترتيباً

"لكن كيف ترتب وثائقك؟"

"في رفوف المنضدة، جزئيا..."

"أه، الرفوف لا تنفع، حاولت أنا هذه الرفوف،

لكن كل شيء كان يختلط في الرفوف:

لم أعرف أبداً فيما إذا كانت الورقة في خانة الألف أو خانة الياء."

جورج اليوت، Middlemarch

جالس في مكتبتي في الليل، أرقب في هالات الضوء العوالق المتصلبة، تتناثر على الصفحات وعلى جلدي، تتهاوى باستمرار طبقة إثر طبقة ميتة في محاولة عقيمة وبإصرار. يطيب لي أن أتخيل، في اليوم الأخير من حياتي، كيف نهلك أنا ومكتبتي معا، حتى إذا لم يعد لي وجود فإني سأبقى مع مكتبتي.

الحقيقة هي أنني لا أتذكر وقتاً لم أكن فيه محاطاً بكتبي. في عمر السابعة أو الثامنة، جمعت في غرفتي إسكندرية مصغرة، نحو مئة كتاب من مختلف الأحجام عن مواضيع شتى. ومن أجل التنوع غالباً ما كنت أغيّر من تجمعاتها، فأقرر، على سبيل المثال، أن أضعها معاً حسب الحجم، حيث يتضمن كل رف الكتب التي لها نفس الإرتفاع فقط. اكتشفت بعد زمن طويل بأنه كان لي سلفاً شهيرا اسمه ساموئيل بيبيس، في القرن السابع عشر، الذي صمم رفوفاً مائلة بارتفاعات قليلة تناسب كتبه الأصغر حجماً، إذ تطابق قمة الكتاب بخط أفقي دقيق. بدأت مع الكتب الكبيرة الحجم والكتب المصورة بوضعها

في الرفوف السفلى: طبعة ألمانية لكتاب Die Welt, in der wir leben، مع صور إيضاحية مفصّلة لعالم أعماق البحار(حتى اليوم يمكنني أن أتذكر بدقة الأسماك القزحية اللون والحشرات الشوهاء)، مجموعة قصص عن القطط(التي ما زلت أحفظ منها هذا السطر"أسماء القطط ووجوه القطط / غالباً ما تُشاهد في الأماكن العامة")، بضعة عناوين لكونستانسيو سي فيجل(كاتب قصص أطفال أرجنتيني وهو أيضاً جامع سرّي للأدب الإباحي)، كتاب قصص وأشعار لمارغريت واين براون(تتضمن قصة مرعبة عن فتى يضيع في ممالك الحيوانات والنباتات والجماد على التوالي)، وطبعة قديمة أثيرة عندي لهاينرش هوفمان Struwwelpeter، التي كنت أتجنب فيها النظر لصورة خياط يقطع إبهام صبي بمقص ضخم. في الرف التالي تأتي كتبي التي لها أشكال شاذة: مجلد واحد لحكايات شعبية، بضعة كتب بوب - آب(بالصور المجسمة)عن الحيوانات، أطلس ممزق، حيث كنت أنقب فيه، محاولاً اكتشاف الناس الميكروسكوبيين في المدن التي تنقّط قاراته. على رف منفصل جمعت الكتب التي دعيتها"الأحجام العادية": "رينبو كلاسيكس"لمي لامبرتون بيكر، مغامرات قرصان لأميليو سالغاري، مجلد من جزئين "طفولة رسامين شهيرين"، ملحمة"بومبا"لروي روكوود، الحكايات الخرافية الكاملة لغريم وأندرسون، قصص الأطفال للمؤلف البرازيلي العظيم مونتيرو لوباتو، الكتاب المفرط العاطفة على نحو شائن Cuore لإدموند داميسيس، كتب أخرى مليئة بحكايات الناشئين الأبطال وحياتهم القاسية. رف كامل كان مخصصاً لكتب الإنسيكلوبيديا الإسبانية El Tesoro de la juventud، سلسلة كتبي الذهبية الأصغر قليلاً التي ذهبت إلى رف أدنى. بياتريكس بوتر وسلسلة ألمانية من قصص"ألف ليلة وليلة"شكلت المجموعة الأخيرة المصغرة. لكن هذا الترتيب كان أحياناً لا يرضيني، فكنت أعيد تنظيم كتبي

حسب المواضيع: حكايات خرافية على رف، قصص مغامرات على آخر، كتب علمية ورحلات على رف ثالث، شعر على الرابع، سيَر حياة على الخامس. وأحياناً، من أجل التغيير، كنت أجمع كتبي حسب اللغات، أو حسب الألوان، أو طبقاً لمدى ولعي بها. في القرن الأول بعد الميلاد وصف بلينوس الأصغر سعادته ببيته الريفي،وفيه غرفه واحدة مشمسة،((حائط علقت فيه رفوفا كما في مكتبة، بوسعي أن أضع عليها كتبي التي قرأتها وأعدت قراءتها)). كنت أفكر أحياناً بامتلاك مكتبة لا تضم سوى كتبي الأكثر تداولاً.

بعد ذلك كانت هناك مجموعات داخل المجموعات. كما تعلمت آنئذ، لكن لم يكن واضحاً لي إلا بعد وقت طويل، بأن الترتيب يولّد الترتيب. ما إن يصبح التصنيف محققاً حتى يؤدي إلى تصنيف آخر، حيث ليس هناك منهج للفهرسة ـ سواء على الرف أو على الورق ـ بوسعه أن يكون مثالياً أبداً. إذا ما قررت الترتيب على عدد من الموضوعات، فإن كل واحد من هذه الموضوعات سيتطلب تصنيفاً داخل تصنيفه. عند نقطة معينة من الترتيب، بدافع الإعياء، والضجر أو الإحباط، فإني سأوقف هذه المتوالية الهندسية. لكن احتمالية الاستمرار ستظل دائماً قائمة. ما من أصناف نهائية في المكتبة.

المكتبة الخاصة، بخلاف العامة، تقدم ميزة السماح باتباع ترتيب نزوي وشخصي جداً. الكاتب المعتّل فاليري لاربو كان يجلّد كتبه بألوان مختلفة وفقاً للغة التي كتبت بها، الروايات الإنكليزية بالأزرق، الإسبانية بالأحمر، وهكذا.((غرفة مرضه كانت عبارة عن قوس قزح))، قال واحد من معجبيه،((إنها تتيح لعينيه وذاكرته أن تندهشا وتتوقعا الفرح)). ذات يوم أعّد الروائي جورج بيرس قائمة بدزينة من الطرق يمكن فيها للشخص

أن يبوّب مكتبته،((ولا واحدة منها تبعث على الرضا)). اقترح بعدم اقتناع الترتيب التالي:

- حسب الحروف الأبجدية
- حسب القارات أو البلدان
- حسب اللون
- حسب تاريخ الشراء
- حسب شكل الكتاب
- حسب النوع
- حسب اللغة
- حسب أولوية القراءة
- حسب التسلسل

مثل هذا التبويب يمكن أن يؤدي غرضه جيداً في مجموعات شخصية. المكتبة العامة، من جانب آخر، يجب أن تتبع ترتيباً رموزه مفهومة للمستخدمين جميعاً، ويكون مقرراً قبل أن توضع المجموعة على الرفوف. مثل هذه الرموز تنطبق بسهولة أكبر على المكتبة الالكترونية، حيث إن نظام الفهرسة، ما دام يخدم كل القرّاء، يمكن له أيضاً أن يسمح ببرنامج مركب لتبويب(وبالتالي تعيين)عناوين ليست مرتبة حسب طريقة معينة مسبقا، دون أن يحتاج إلى إعادة تنظيم أوتجديد باستمرار.

التصنيف يسبق أحياناً الترتيب المادي. في مكتبتي، في الحظيرة المعاد بناءها، قبل وقت طويل من أن تكون كتبي موضوعة في صفوف مطيعة، فإنها تتجمع في ذهني حول مواضيع رئيسية محددة، ربما وحدي من يقدر على فهمها. لذلك فقد بدت لي مهمة سهلة، عندما بدأت في صيف ٢٠٠٣ بترتيب مكتبتي، بوضع الكتب في أماكن محددة طبقاً لنظام واضح من الفئات، فكرت به مسبقا. لكني اكتشفت في الحال بأني كنت مفرطاً في الثقة.

لعدة أسابيع قمت بتفريغ محتويات مئات الصناديق، التي كانت احتلت آنئذ كل مساحة غرفة الطعام، وحملتها إلى حجرة المكتبة الخالية، وعندئذ وقفت حائراً وسط الأعمدة المترنحة لكتب بدت كأنها تجمع بين المطمح العمودي لبابل والمطمح الأفقي للاسكندرية. ولمدة ثلاثة أشهر تقريباً محّصت في هذه الأكوام، محاولاً أن أخلق نوعاً من الترتيب، مشتغلاً منذ الساعات المبكرة للصباح حتى آخر الليل. حفظت الجدران السميكة الحجرة باردة وهادئة، وجعلتني إعادة اكتشاف أصدقاء قديمين ومنسيين غافلا عن الوقت. فجأة رفعت عيناي لأرى الظلام قد حلّ في الخارج، وبأني صرفت معظم يومي بملئ بضعة رفوف نهمة فقط. أحياناً أعمل طوال الليل، ثم أتخيل كل أنواع الترتيب الوهمية لكتبي، لكني في ما بعد، في ضوء النهار، أطردها بحزن لأني أراها غير عملية.

عملية إخراج الكتب من صناديقها هي نشاط كشفي. خلال واحدة من كثيرة من تنقلاته، يصف والتر بنجامين في عام ١٩٣١، إحساسه وهو واقف وسط كتبه((إنها لم تُمَس بعد بالضجر الخفيف للترتيب))، مغمورا بذكريات الأزمنة والأمكنة التي جمع كتبه فيها، وبالدليل الظرفي الذي يثبت أن كل كتاب هو ملكه حقاً. أنا أيضاً، أثناء شهور الصيف تلك، كنت مغموراً بهذا النوع من الذكريات: بطاقة تطايرت من كتاب مفتوح ذكرتني بعربة الترام في بوينس آيرس(توقفت الترامات عن العمل في المدينة في نهاية الستينيات)، التي قرأت فيها أول مرّة رواية"مويرا"لجوليان غرين؛ اسم ورقم هاتف مكتوبان على الصفحة البيضاء في بداية الكتاب ردّت لي وجه صديق توقفت عن رؤيته منذ زمن طويل، وهو من أعطاني نسخة من كتاب عزرا باوند"كانتوس"، منديل ورقي يحمل شعار كافيه دو فلور، مطوي داخل كتاب هرمان هيسه"سيدهارتا"شاهد على رحلتي الأولى إلى

باريس عام ١٩٦٦؛ رسالة من مدرّس بين صفحات مجموعة شعرية اسبانية ذكرتني بصف مدرستي البعيد حيث سمعت للمرّة الأولى عن غونغورا وبثينته غاوس.((Habent sua fata libelli)). يقول بنجامين مستشهدا بالكاتب القروسطي المنسي ماوروس،((الكتب لها أقدارها الخاصة)). بعض من كتبي انتظرت نصف قرن قبل أن تصل إلى هذا المكان، من غربي فرنسا، لأن هذا كما يبدو كان مقدراً لها.

كما قلت، فكرت مسبقاً بتنظيم مكتبتي في أقسام مختلفة. كانت بينها بشكل رئيسي اللغات التي كتبت بها الكتب. شكلتُ في ذهني مجموعات كبيرة من الأعمال المكتوبة بالإنكليزية أو الإسبانية، الألمانية أو الفرنسية سواء كانت شعراً أو نثراً. من هذه المناطق اللغوية استبعدت عناوين معينة تنتمي إلى موضوعات محط اهتمامي، مثل الميثولوجيا الإغريقية، الديانات التوحيدية، أساطير القرون الوسطى، ثقافات عصر النهضة، الحربين العالميتين الأولى والثانية، تاريخ الكتاب... قد يبدو اختياري لما يندرج تحت هذه الفئات لكثير من القرّاء غريباً. لماذا تدرج أعمال سانت أوغستين في قسم الديانة المسيحية بدلاً من الأدب اللاتيني لحضارات القرون الوسطى المبكرة؟ لماذا يوضع كتاب كارلايل"الثورة الفرنسية"في الأدب الإنكليزي بدلاً من التاريخ الأوربي، ولا يوضع كتاب سيمون سكاما"مواطنون"؟ لماذا تحفظ مجلدات لويس غنزبرغ السبعة "أساطير اليهود"في قسم الديانة اليهودية، بينما دراسة جوزيف غير عن اليهودي التائه في الأساطير؟ لماذا توضع ترجمات آن كارسون لصافو تحت اسم كارسون، بينما ترجمة آرثر غولدنغ لـ"مسخ الكائنات"تحت اسم أوفيد؟ لماذا أحتفظ بكتابي ذو الجزئين من كتب الجيب لشابمان"هومر"تحت اسم كيتس؟

في النهاية، كل ترتيب هو كيفي. في مكتبات أصدقائي حول العالم،

وجدت كثيراً من التصنيفات الغريبة: "المركب السكران" لرامبو تحت قسم الملاحة، كتاب ديفو "روبنسون كروسو" تحت أدب الرحلات، كتاب ماري ماكارثي "طيور أمريكا" تحت علم الطيور، كتاب كلود ليفي شتراوس "النيء والمطبوخ" تحت قسم الطبخ. لكن المكتبات العامة لها مقارباتها الخاصة بها. يتولى القارئ الغضب حين يشاهد في مكتبة لندن، أن ستاندال وضع تحت حرف B لأن اسمه الحقيقي Beyle، وجيرار دو نيرفال تحت حرف G. وقد يتشكى قارئ آخر، في نفس المكتبة، من أن موضوع النساء Women مدرج تحت "منوعات" من قسم "العلم"، ويأتي بعد وتشكرافت Witchcraft وقبل وول Wool ورستلنغ Wrestling. في فهرست مكتبة الكونغرس، المواضيع الرئيسية تتضمن مثل هذه الفئات الغريبة:

- بحث الموز
- مضارب الكرة
- الجزمات والأحذية في الفنون
- الدجاج في الأديان والفولكلور
- مياه البواليع: الأعمال الكاملة

يبدو الأمر وكأن مضامين الكتب لا تهم كثيراً أولئك المنظمين بقدر ما تهمهم فرادة المواضيع التي أعدّوا لها فهرساً، كي تغدو المكتبة مجموعة من انطلوجيات موضوعاتية. من المؤكد أن الموضوع أو الفئة التي تقسّم بها المكتبة لا تغير طبيعة الكتب (مقروءة أو غير مقروءة) فحسب، بل هي نفسها بالمقابل تتغير أيضاً. بوضع روايات روبرت موسل في قسم "الأدب النمساوي" فإن عمله سيحدّد بالتعريف القومي لكتابة الرواية، في نفس الوقت، فإنه سيُلقي ضوءاً على الأعمال الاجتماعية والتاريخية المجاورة عن إمبراطورية النمسا ـ المجر، بتوسيع أفكارها العلمية الحصرية. تضمين قصة

انطون تشيخوف"اعترافات غريبة"في قسم"القصص البوليسية"يدفع القارئ إلى متابعة القصة مع اهتمام أساسي بجريمة القتل، ومفاتيح الجريمة والأدلّة المضللة، كأن يسبغ صفة الجريمة على مؤلف مثل تشيخوف، ليس من العادة أن يرافق مؤلفين أمثال رايموند تشاندلر وآغاثا كريستي. لو وضعتُ كتاب توماس إيلوي مارتينيز"سانتا ايفيتا"في مكتبتي تحت قسم"التاريخ الأرجنتيني"هل سأنتقص من قيمة الكتاب؟ وإذا أدرجته تحت"الروايات الاسبانية"هل سأقلل من دقته التاريخية؟

السير روبرت كوتون، هاوي جمع كتب غريب الأطوار في القرن السابع عشر، رتب كتبه(التي تتضمن الكثير من المخطوطات الغريبة، مثل المخطوطة الوحيدة المعروفة Beowulf، وأناجيل Lindisfarne، من العام ٦٩٨)في اثني عشر خزانة كتب، كل واحدة منها مزينة بتمثال نصفي لكل قيصر من القياصرة الاثني عشر الأولين. عندما حصلت المكتبة البريطانية على بعض من مجموعاته، احتفظت بنظام كوتون الغريب للفهرسة، بحيث إن أناجيل لندسفارن بالإمكان طلبها اليوم من المكتبة تحت هذا التصنيف Cotton MS.Nero.D.IV لأنها كانت يوماً الكتاب الرابع على الرف الرابع داخل خزانة تُوّجت بتمثال نصفي للقيصر نيرون.

مع هذا فإن ترتيب أي نوع تقريباً له ميزة تضمين المتعذر تضمينه. ((من المحتمل أن هناك العديد من الجامعين القدماء))، لاحظ جي كي تشسترتون،((الذي يقول عنه أصدقاؤه ومعارفه بأنه مجنون بكتب"EIzevir"(دار نشرهولندية قديمة ومعروفة)، بينما في الواقع كتب الزيفير هي التي أبقته سليم العقل. بدون هذه الكتب كان سيُبلى بالتبطل المدمر للروح ووسواس المرض، لكنه من الانتظام الهادئ لتعليقاته وحساباته تعلم شيئاً من نفس الدرس الذي يعلمه الضرب بمطرقة الصائغ أو الدوس

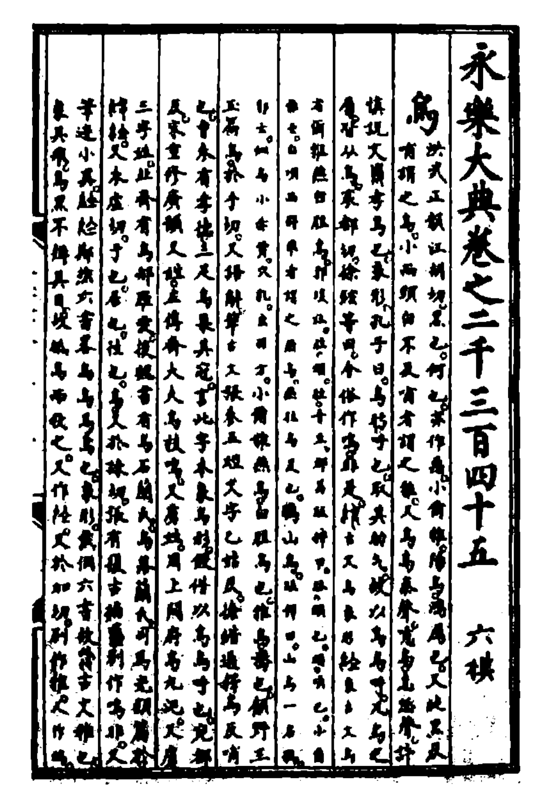
المتثاقل لأحصنة الحرّاث، إنه الدرس القديم بالحكم على الأشياء بالفطرة السليمة)). ترتيب مجاميع روايات الإثارة، أو كتب صادرة من الزيفير، تضفي على السلوك المسوس للجامع درجة معينة من سلامة العقل. في أوقات أشعر كما لو أن كتب الجيب المتأنقة ذات الغلاف الجلدي الصادرة من"نلسون"، والكتيبات البرازيلية بورقها الرقيق والتي اشتهرت باسم بـ"cordeI de Iiteratura"، أدب الحبال، (لأنها كانت تباع بواسطة باعة متجولين كانوا يعلقون بضاعتهم بحبال)، والطبعات المبكرة لسبتيمو سركولو من سلسلة القصص البوليسية التي كان يحررها بورخس وبيوي كاسارس، والمجلدات الصغيرة المربعة لنيو تمبل شكسبير المنشورة في دار دنت والمرفقة بصور إيضاحية محفورة على الخشب بيد ايريك جيل ـ كل هذه الكتب التي جمعتها في أوقات متفرقة ـ أشعر أنها أبقتني سليم العقل.

كلما توسّعت الفئات كلما صار تحديد الكتاب أقل. في الصين، في بدايات القرن الثالث، كانت الكتب في المكتبة الامبراطورية تحفظ تحت عناوين بسيطة ومفهومة، متفق عليها بين طلبة البلاط ـ كتب القانون أو النصوص الكلاسيكية، مؤلفات في التاريخ، الأعمال الفلسفية، وشتى الأعمال الأدبية ـ كل منها مجلدة بلون محدد ورمزي، وعلى التعاقب، أخضر وأحمر وأزرق(تقسيم لوني مماثل لذاك الذي في طبعات بنغوين أو في اسبانش كوليكسيون اوسترال). داخل هذه المجموعات، كانت توضع العناوين في الرفوف باتباع تراتيب غرافيكية أو لفظية. في الحالة الأولى، تكون عدة آلاف من الحروف مجزأة إلى بضعة عناصر أساسية ـ ايديوغرام(صور أو رموز كتابية)للأرض أو الماء، على سبيل المثال ـ ثم تدرج في ترتيب تقليدي يتبع التسلسل الهرمي للكوزمولوجيا(علم الكونيات)الصينية. في الحالة الثانية، يكون الترتيب مبنياً على قافية آخر مقطع لآخر كلمة في عنوان الكتاب.

مقارنة بنظام الأبجدية الروماني، الذي يتراوح بين ٢٦ حرفا(في الانكليزية) و٢٨(في الاسبانية)، فإن أعداد القافيات المحتملة في اللغة الصينية تتراوح بين ٧٦ و ٢٠٦. أكبر إنسيكلوبيديا مخطوطة في العالم،"يونغل داديان"أو"الموجز الضخم من عصر السعادة الأبدية"، أمر به في القرن الخامس عشر الامبراطور شنغزو بهدف تسجيل كل الأدب الصيني المكتوب في مطبوع واحد، ويستخدم كلياً طريقة القافية للترتيب. عمل في المشروع الطموح أكثر من ألفي باحث. لم يبق اليوم إلا جزء صغير من الفهرس الضخم.

حين أدخل إلى مكتبة، أفاجأ دائماً بالطريقة التي يُفرض بها على القارئ رؤية معينة لأصنافها وفئاتها. بعض الأصناف، بالطبع، واضحة أكثر من الأخرى، والمكتبات الصينية لها تاريخ طويل في التصنيف الذي يعكس، في تنوعه، الطرق المتغيرة التي تصورت فيها الصين الكون. الفهرست الأقدم يتبع هرمية مفروضة من الإيمان بالحكم العلوي للآلهة، وتحت قبة الآلهة الزرقاء االشاملة والكائنة منذ الأزل ـ مملكة الأجساد السماوية ـ تأتي الأرض الخاضعة، ثم، وبهذا التناقص في ترتيب الأهمية، يأتي البشر، والحيوانات، والنباتات، وأخيراً الجماد. هذه الفئات الست تقرر التقسيمات التي تنضوي تحتها أعمال ٥٩٦ مؤلفا، محفوظة في ١٣٢٦٩ لفافة، صنفت في القرن الأول دراسات ببليوغرافية(علم المكتبات)عرفت باسم"هانشو يونزهي"، أو"تاريخ سلالة هان الحاكمة"، وهو فهرست مدون بُني على بحث قام به المكتبيان الامبراطوريان، ليو كسيانغ وابنه ليو كسن، اللذان كرّسا حياتيهما لتسجيل ما كتبه الآخرون. فئات صينية أخرى نشأت عن هرميات مختلفة."سيفو يوانغوي"أو"أرشيف السلحفاة العرّافة"، جُمع بأمر امبراطوري بين عامي ١٠٠٥ و١٠١٣، لا يتبع ترتيباً كونياً بل بالأحرى ترتيباً بيروقراطياً، يبدأ بالامبراطور نزولاً إلى مناصب رسمية مختلفة ومؤسسات إلى أدنى المواطنين(في

التعبير الغربي، يمكننا تخيل مكتبة للأدب الانكليزي تبدأ، على سبيل المثال، بكتاب"الصلوات والأشعار"للملكة اليزابيث الأولى وتنتهي بالأعمال الكاملة لتشارلز بوكاوسكي). هذا الترتيب البيروقراطي أو السوسيولوجي أستخدم لجمع واحدة من الانسيكلوبيديات الصينية التي دعت نفسها بالشاملة: "تابنغ يولان"أو"القراءات الامبراطورية من عصر السلام العظيم". استكشفت هذه الانسيكلوبيديا التي أُنجزت في عام ٩٨٢ كل حقول المعرفة، تكملتها هي"الموجز الوافي من عصر السلام العظيم"، التي غطت، تحت خمسة وخمسين موضوعا رئيسياً، أكثر من خمسة آلاف مدخل لسير الحياة، وأكثر من ألفي عمل. الامبراطور الذي أمر بكتابتها، سونغ تايزونغ، يقال عنه إنه كان يقرأ ثلاث فصول منها كل يوم طوال سنة كاملة. وظهر نظام ترتيب أكثر تعقيدا عُرف بأكبر انسيكلوبيديا طبعت في أي وقت: jicheng Tushu Gujin Qinding، أوالانسيكلوبيديا الامبراطورية المصورة العظمى للزمن الماضي والحاضر، في عام ١٧٢٦، وهي مكتبة سيرية هائلة مقسمة إلى أكثر من عشرة آلاف جزء. يُنسَب هذا العمل إلى جيانغ تنغكسي، مصحح البلاط الذي كان يستعمل حروفاً كبيرة منفصلة خشبية مع صور ملائمة وحروفاً قابلة للحركة مصممة خصيصاً للمشروع. غطى كل جزء من الانسيكلوبيديا حقلاً محدداً في الشأن الإنساني، مثل"العلوم"أو"الرحلات"، وهذه قُسمت إلى أجزاء فرعية تتضمن مداخل سيرية. على سبيل المثال، يحوي القسم الذي يحمل عنوان"العلاقات الإنسانية"قائمة بسير حياة ألف رجل وامرأة وفقاً لأعمالهم أو وضعهم في المجتمع، من بينهم حكماء، عبيد، زيروا نساء، طغاة، أطباء، خطاطون، ناس ذوي مواهب خارقة، سكيرون شهيرون، رماة سهام بارزون والأرامل اللائي لم يتزوجن ثانية.



永樂大典卷之二千三百四十五　六模

烏

واحدة من أجزاء انسيكلوبيديا يونغل داديان الضخمة

قبل ذلك بخمسة قرون، في العراق، ألّف القاضي الشهير أحمد بن محمد بن خلكان مرآة للعالم مماثلة دعاها"سير المشاهير وأخبار أبناء عصرهم". اشتمل هذا العمل على ٨٢٦ سيرة حياة لشعراء، حكام، قادة عسكريين، فقهاء لغة، مؤرخين، كتاب نثر، وعاظ، زهّاد، وزراء، مفسري القرآن، فلاسفة، علماء دين، موسيقيين وقضاة. ومن بين الصفات التي أوردها عن الشخص المعني تطرق المؤلف إلى مواضيع التفضيلات الجنسية، والمهارة الحرفية والمقام الاجتماعي. لأن القصد من"المكتبة السيرية"لإبن خلكان كان((اللهو إضافة إلى الحض على الفضيلة))على الرغم من انه لم يضمّن عمله

الكبير أبواباً عن الرسول والصحابة. بخلاف الانسيكلوبيديا الصينية، نُظم مؤلف ابن خلكان بالترتيب الأبجدي.

التصنيف الأبجدي للكتب استخدم أول مرّة قبل أكثر من اثنين وعشرين قرنا، على يد كاليماتشوس، واحد من أمناء مكتبة الإسكندرية البارزين، شاعر أُعجب به بروبرتيوس وأوفيد، ومؤلف أكثر من ثمانمئة كتاب، بما فيها ١٢٠ جزءاً من فهرس المؤلفين الإغريق الأكثر أهمية في المكتبة. من المفارقة أنه لم يبق لنا من أعمال كاليماتشوس، الذي كافح بجهد لحفظ أعمال الماضي لقرّاء المستقبل، سوى ستة تراتيل، وأربعة وستين قصيدة قصيرة، وقطعة واحدة من ملحمة صغيرة، والأهم من كل شيء، الطريقة التي استخدمها في فهرسة قراءاته الغزيرة. ابتكر كاليماتشوس نظاما لبياناته النقدية المفصلة عن الأدب الإغريقي، بأن قسّم المادة إلى جداول أو pinakes، جدول لكل نوع: ملحمة، قصيدة غنائية، تراجيديا، كوميديا، فلسفة، طب، بلاغة، قانون، وأخيراً باقة من مواضيع متنوعة. كان إسهام كاليماتشوس الرئيسي في فن حفظ الكتب، الذي ربما استوحاه من الطرق المستخدمة في مكتبات ميزوبوتاميا المختفية، هوإعداده قوائم بمؤلفين مختارين أبجدياً، مع ملاحظات سيرية وببليوغرافية(كذلك مرتبة أبجدياً)ملحقة بالاسم المختار. أعتقد انه سيكون أمراً مثيراً للمشاعر لو تخيلت كاليماتشوس وهو يطوف في مكتبتي فيجد مجلدين من ما تبقى من أعماله، في سلسلة"لوب"ومصنفة حسب الطريقة التي تخيلها في ترتيب أعمال الآخرين.

دخل النظام الأبجدي إلى المكتبات الإسلامية عن طريق فهرس كاليماتشوس. أول عمل نُظم في العالم العربي، تقليداً لطريقة pinakes، كان كتاب"المؤلفون"، على يد الكتبي البغدادي أبو طاهر طيفور، الذي توفي عام ٨٩٣ ميلادية. وبرغم أن ما بقى لنا منه العنوان فقط، فإننا نعرف بأن

الكتّاب الذين انتقاهم طيفور قُدم كل منهم بسيرة حياة قصيرة وقائمة بأهم الأعمال بترتيب أبجدي. وما يقارب ذلك الزمن، اكتشف العلماء العرب في مختلف مراكز التعليم، الذين انشغلوا بإضفاء الترتيب على حوارات بلاتو كي يسهلوا الترجمة والشروح، بأن الطريقة الأبجدية لكاليماتشوس، التي تمكّن القارئ من العثور على مؤلف معين في الرف المخصص له، لا تقتضي نفس الصرامة في تعيين النصوص نفسها. بمراجعتهم العلوم المكتبية المختلفة لأعمال بلاتو التي جُمعت على يد الأقدمين من مكتبيي الإسكندرية، اكتشفوا بدهشة بأن هولاء الحكماء، بالرغم من اتباعهم نظام كاليماتشوس، نادرا ما كانوا يتفقون على تصنيف الكتب وعلى مكانها. الكل اتفق على تصنيف أعمال أفلاطون(بلاتو)، مثلا، تحت الحرف P، لكن ضمن أي ترتيب أو داخل أي مجاميع فرعية؟ على سبيل المثال، جمع العالم اريستوفانيس البيزنطي عمل أفلاطون في ثلاثيات(مستبعداً بضعة حوارات لأسباب غير واضحة)، بينما قسّم العالم ثراسيلوس ما إفترضها "الحوارات الأصلية"في مجاميع رباعية، قائلاً إن أفلاطون نفسه قام دائما((بنشر حواراته في رباعيات)). مكتبيون آخرون وضعوا قائمة بالأعمال الكاملة في مجموعة واحدة لكن بنتائج مختلفة، بعضها يبدأ مع"الاعتذار"، أخرى مع"الجمهورية"، وأخرى مع"فيدروس"أو"تيمايوس". مكتبتي تعاني من نفس الارتباك. بما أن مؤلفي كتبي صُنفوا في ترتيب أبجدي، فإن كل مؤلفات مارغريت آتوود تجد مكانها تحت الحرف A، على الرف الثالث أسفل قسم اللغة الانكليزية، لكنني لا أهتم كثيرا لو سبقت رواية"الحياة قبل الرجل"في الزمن رواية"عين القط" (في حالة الحفاظ على التراتب الزمني)، أو"صباح في منزل محترق"بعد"اوريكس وكريك"(لقد فصلت دواوينها عن رواياتها).

بالرغم من مثل هذه العيوب الصغيرة للترتيب الأبجدي، فإن المكتبات العربية التي ازدهرت في نهاية العصور الوسطى، تم فهرستها حسب هذا الترتيب. وإلا لكان من المستحيل مراجعة الذخيرة الكبيرة من الكتب، كتلك المطولة جداً التابعة للمدرسة النظامية في دمشق، التي كما قيل، كان يمكن فيها لطالب علم مسيحي أن يراجع، عام ١٢٦٧، المجلد السادس والخمسين لفهرس لا يضم سوى أعمال عن مواضيع مختلفة((كتبت خلال الفترة الإسلامية حتى عهد الخليفة المستنصر في عام ١٢٤١)).

إذا كانت المكتبة مرآة للكون، فإن الفهرس سيكون مرآة للمرآة. بينما كانت ترسخت تقريباً منذ البداية فكرة جمع كل كتب المكتبة في كتاب واحد، فإنها في العالم العربي لم تصبح شائعة حتى القرن الخامس عشر، عندما حملت مرات عديدة الفهارس والانسيكلوبيديات اسم"مكتبة". كان الجزء الأعظم من هذه الفهارس المعلق عليها بحواشي، قد جُمع، على أي حال، بتاريخ أسبق بكثير. في العام ٩٨٧، بدأ ابن النديم(الذي نعرف عنه القليل، ما عدا أنه كان كتبياً في خدمة الخلفاء العباسيين في بغداد)بعملية جمع:

".. فهرس يضم كتب كل الناس، عرباً كانوا أم أعاجم، المكتوبة بلسان عربي، ويضم أيضاً كتاباتهم في شتى العلوم، مع وصف لحياة هؤلاء الذين قاموا بتأليفها ومقامهم الاجتماعي وأصولهم، وتاريخ مولدهم، وعدد الأعوام التي عاشوها، ووقت وفاتهم، ومدن مسقط رأسهم، ومناقبهم ومساوئهم، منذ بدء اكتشاف كل علم حتى زمننا الحاضر، في العام ٣٧٧ هجرية".

لم يستفد ابن النديم فقط من العلوم المكتبية الموجودة، إذ كان هدفه، كما يقول لنا،((أن يرى بنفسه))الأعمال المعنية. في سبيل غايته هذه زار أكبر عدد ممكن من المكتبات التي له معرفة بها،((مقلّبا صفحات مجلد إثر آخر وقارئا لفافة بعد أخرى)). هذا العمل الشامل الذي عُرف باسم الـ fihrist،

هو في الواقع أفضل موجز نملكه من عالم المعرفة العربية في القرون الوسطى، فهو يجمع في مجلد واحد((الذاكرة والبيانات المفصلة))، وهو((مكتبة قائمة بذاتها)).

"الفهرست"هو ابتكار أدبي فريد. فهو لا يتبع الترتيب الأبجدي لكاليماتشوس، ولا هو مقسّم طبقاً لموقع المجلدات في القوائم. هيولي بشكل موسوس، وكيفي بشكل مبهج، هو السجل الببليوغرافي لمكتبة لا نهائية منشور في كل مكان في العالم، وهو ظاهر فقط في الشكل الذي اختاره له ابن النديم. في صفحات هذا العمل، تقف النصوص الدينية جنباً إلى جنب مع النصوص التجديفية، ومؤلفات علمية اعتمدت على حجج مقنعة صنفت سوية مع كتابات تنتمي إلى ما يدعوه ابن النديم علم المنطق، بينما الدراسات الإسلامية اقترنت بدراسات أديان الأمم الأخرى. كلا الوحدة والتنوع لفهرست(fihrist) ابن النديم تكمنان في عين وذهن مؤلفه النهم.

لكن طموح القارئ لا يعرف حدوداً. بعد قرن، ألّف أبو القاسم المغربي، الذي لم يكن راضياً عما اعتقده بأنه عمل ناقص، "تتمة فهرست ابن النديم"، الذي وسّع من الذخيرة، التي هي أصلاً فوق التصور، إلى حجم أكبر مثير للدهشة. تصنيف المجلدات في هذا الفهرست المبالغ فيه تمت بطريقة مماثلة، وبالطبع لم تجمع في مكان واحد.

في البحث عن طرق أكثر عملية لإيجاد سبيلهم في متاهة الكتب، أعطى المكتبيون العرب الأفضلية أحياناً للمواضيع وللانضباط، أكثر من قيود نظام الأبجدية، وفرضوا تقسيمات الموضوع على الحيز المادي نفسه. على هذا المثال كانت المكتبة التي زارها، نحو العام ٩٨٠، معاصر ابن النديم، الطبيب الشهير أبو علي الحسين بن سينا، المعروف في الغرب بـ"أفيسينا". اكتشف ابن سينا، حين كان يزور مريضه سلطان بخارى، التي هي اليوم أوزبكستان، مكتبة مقسّمة على نحو ملائم إلى مواضيع علمية من كل الأنواع.((دخلت مبنى من عدة حجرات))، كما يحكي لنا

"..في كل حجرة هناك خزانات ذات أدراج ملأى بالكتب، مكدسة الواحد فوق الآخر. في حجرة منها ثمة دواوين شعر بالعربية، في الأخرى كتب في القانون، وهكذا دواليك؛ كل حجرة مكرّسة لكتب في علم محدد واحد. راجعت فهرساً لأعمال عتاق { من بينها كتب إغريقية } وسألت المكتبي، الحافظ للذاكرة الحية للكتب، عن ما أرغب فيه. رأيت كتبا عناوينها في غالب الأحوال غير معروفة، كتب لم أرها من قبل أبداً ولم أرها من بعد أبداً. قرأت تلك وأفدت منها أيما إفادة، وكان بوسعي أن أتعرّف على وضع أي منها داخل فئتها العلمية الملائمة".

هذا التنوع الموضوعاتي، كان يُستخدم على العموم سوية مع النظام الأبجدي في العصور الوسطى الإسلامية. المواضيع نفسها تتنوع، كما يفعل المكان الذي تُحفظ فيه الكتب، سواء كانت رفوف مفتوحة وخزانات موصدة، أو صناديق خشبية(كما في حالة مكتبة بخارى). فقط فئة الكتب المقدسة ــ القرآن في مختلف نسخه ـ حفظت دائماً منفصلة، لأنه لا يجوز خلط كلام الله مع كلام البشر.

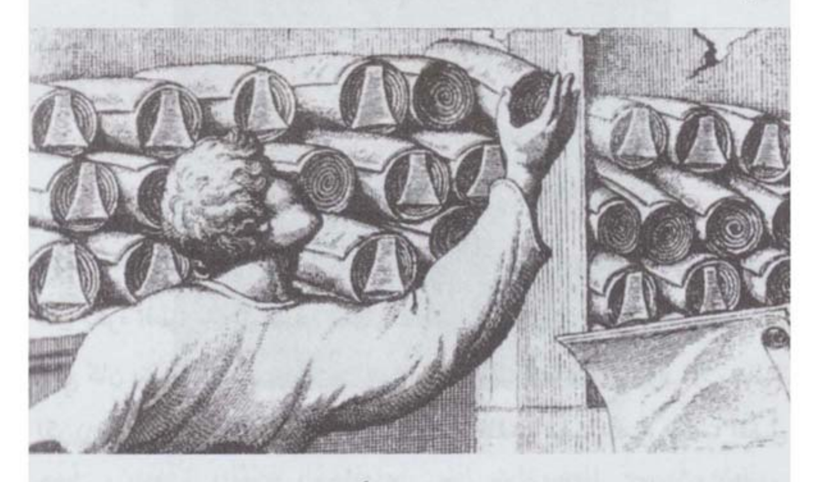
طرق الفهرسة في مكتبة الإسكندرية، مع أمكنتها المنظمة طبقا للحروف الأبجدية وكتبها الخاضعة لهرميات مفروضة بعلوم مكتبية مختارة، ذهبت بعيداً خلف حدود مصر. حتى حكام روما ابتكروا مكتبات على منوال الإسكندرية. يوليوس قيصر الذي أقام زمنا في الإسكندرية وتردد بلا شك على مكتبتها، أمر بتشييد((أروع مكتبة عامة ممكنة))، في روما، وأوصى ماركوس تيرنس فارّو(الذي كتب دليلاً غير موثوق به عن علم المكتبات) ((بجمع وتصنيف كل أنواع الكتب الإغريقية واللاتينية)). لم تُنجز هذه المهمة إلا بعد وفاة قيصر، وفي السنة الأولى من حكم أوغستوس، تم افتتاح أول مكتبة عامة في روما من قبل أسينيوس بوليو، صديق كاتالوس وهوراس

وفرجيل. أقيمت في المكان الذي دُعي بـ"قاعة الحرية"(موقعها الأصلي لم يكن قد تأسس بعد)، وتم تزيينها بصور شخصية لمشاهير الكتّاب.

المكتبات الرومانية مثل مكتبة أسينيوس بوليو تلك، وهي مصممة خصيصاً كي تلائم القارئ المثقف بالرغم من أسماء مثل اسم"قاعة الحرية"، لا بد من أنها سعت بشدة إلى أن تغدو مكاناً للنفوذ والنظام. البقايا الأقدم التي نملكها لمثل هذه المكتبة اكتشفت على تل بالاتين في روما. لأن مجاميع الكتاب الروماني مثل كتب بوليو كانت ثنائية اللغة، فقد كان على المعماريين تصميم بناء مزدوج لها. خرائب بلاتين، على سبيل المثال، تكشف عن غرفة واحدة للأعمال الإغريقية وأخرى للأعمال في اللغة اللاتينية، كل منها مع فتحات للتماثيل وكوّات عميقة لخزانات الكتب الخشبية(آرماريا)، بينما تظهر الرفوف محفورة في جدرانها المحمية بأبواب. كانت الآرماريا مصنفة ورموزها محفورة في الفهرست قرب عناوين الكتب التي تحتويها. وهناك مجموعة متواصلة من درجات سلّم تتيح للقرّاء الوصول إلى مختلف الأقسام الموضوعاتية، ولأن بعضاً من هذه الرفوف أعلى من المدى الذي يصله الذراع، كانت هناك سلالم محمولة متوفرة لهؤلاء الذين يبتغونها. يأخذ القارئ اللفافة المرغوبة، بعد أن يعثر عليها بمساعدة الفهرست ربما أو أمين المكتبة، وينشرها على واحدة من الطاولات التي تتوسط الغرفة، ليفحصها وسط تمتمة القرّاء الشاملة، في الأيام التي لم تكن فيها القراءة الصامتة في المكتبات شائعة بعد، أو يحملها خارجاً ليقرأها تحت صف من الأعمدة، كما كان مألوفاً في مكتبات اليونان.

الصورة الوحيدة التي نملكها عن المكتبة اليونانية، وهي مجرد تخمين، مستمدة من رسم تخطيطي، رُسم في القرن التاسع عشر، لصورة من العهد الأوغستيني وجدت في نوماخن في ألمانيا، وهي الآن مفقودة. تُظهر هذه

الصورة لفافات من ورق البردي موضوعة في طبقات ثلاث على رفوف عميقة، ربما في تسلسل أبجدي ومحفوظة حسب الموضوع، وتبدو الرقع المثلثة التي تحمل عناوينها مرئية بوضوح للقارئ، الذي يبسط ذراعه اليمنى نحوها. لسوء الحظ لايمكننا قراءة العناوين المكتوبة على الرقع. مثل أي مكتبة زرتها، يدفعني الفضول لمعرفة الكتب التي تحويها، وحتى هنا، وأنا أواجه الصورة التي تصف مجموعة اختفت منذ عهد بعيد، تحدق عيناي في الرسم، في محاولة لاكتشاف أسماء هذه اللفافات العتيقة.



نسخة محفورة من نقش روماني لم يعد موجوداً، يصور كيف كانت تحفظ اللفائف

المكتبة كيان دائم النمو، فهي تتكاثر فيما يظهر بشكل مستقل، إنها تعيد إنتاج نفسها بواسطة الشراء، السرقة، الإعارة، الإهداء، السعي إلى ملئ الفراغات بين المجموعات المترابطة وبواسطة الرغبة إلى تكملة الأنواع. سواء في الإسكندرية، بغداد أو روما، هذا الامتداد الهائل للكلمات يتطلب في النهاية أنظمة في التصنيف يتيح للمكتبة أن تكبر في المكان، وأسواراً متحركة تحفظها من أن تكون مقيدة بحدود الأبجدية أو تجعلها بلا نفع بسبب كمية العناوين الهائلة المندرجة في فئات. قد تبدو الأرقام أفضل في الاتباع من

الحروف أو المواضيع الرئيسية في الحفاظ على ترتيب هذا النمو الذي لا يُكبح جماحه. منذ القرن السابع عشر، أدرك ساموبل بيبيس أنه من أجل توفير حيز لهذه التخمة فإن الكون اللانهائي للأرقام هو أكثر فاعلية من الحروف الأبجدية، وقد أعطى لمجلداته أرقاماً من أجل((السهولة في العثور عليها لقراءتها)). التصنيف الرقمي الذي أذكره من زيارتي لمكتبة المدرسة(وهو أوسع التصنيفات المستخدمة حول العالم)هو تصنيف ديوي، الذي أضفى على أغلفة الكتب التي تحمل العنوان واسم المؤلف مظهر لوحات أرقام صفوف السيارات في موقف عام للسيارات.

قصة ملفيل ديوي هي تركيب غريب من سعة الأفق والخيال الشحيح. في عام ١٨٧٣، حين كان ما يزال طالباً في آمهرست كوليج في ماساتشوستس(الذي أصبح في ما بعد أمين مكتبتها)، أدرك ديوي البالغ من العمر اثنين وعشرين سنة، الحاجة لنظام من التصنيف يجمع بين كلا الصفتين الفهم والعملية. كان يكره الطرق الاعتباطية، مثل تلك التي تستخدمها مكتبة ولاية نيويورك التي كان يتردد عليها، حيث كانت الكتب مرتبة حسب الحروف الأبجدية، لكن((دون الاهتمام بالمواضيع))، لهذا وضع لنفسه مهمة تصور نظاماً أفضل. ((لشهور حلمت ليلاً ونهاراً بأنه لا بد من ان هناك في مكان ما نظام))، حسب ما كتب بعد خمسين عاماً.((ذات يوم أحد، أثناء عظة دينية طويلة في الكنيسة... خطر لي الحل فجأة فجعلني أقفز من مقعدي وأنا أكاد أصرخ"وجدتها!"والحل كان باستخدام الكسور العشرية لترقيم تصنيفات لكل المعرفة الإنسانية المطبوعة)).



بورتريه لملفيل ديوي

بإتباع فهرسة الموضوعات التي استخدمها العلماء الأقدمين، قسّم ديوي حقلاً واسعاً من((كل المعرفة الإنسانية المطبوعة))في عشرة مجاميع موضوعاتية، ومن ثم خصص لكل مجموعة مئة رقم، تتجزأ بدورها إلى عشرة أرقام إضافية، حيث تشكل متوالية من الأرقام بنسبة ثابتة ad infinitum. الدين، على سبيل المثال، يحمل الرقم ٢٠٠؛ الكنيسة المسيحية الرقم ٢٦٠؛ رب المسيحيين الرقم٢٦٤. فائدة ما عُرف بـ"نظام ديوي للتصنيف العشري"هي أنه، من ناحية المبدأ، يمكن لكل توزيع أن يخضع لتقسيمات إضافية لا عد لها. الرب نفسه يمكن أن يعاني من التجزئة إلى صفاته أو

تجسداته، وكل صفة أو تجسد يمكن أن تقاسي من تفكيك آخر. في ذلك الأحد في الكنيسة، اكتشف الشاب ديوي طريقة بسيطة وفعالة وعظيمة أتاحت مدى هائلا لمهمته.((قلبي مفتوح لكل شئ يتعلق بالأرقام العشرية أو بالمكتبات))، إعترف ذات مرّة.

على الرغم طريقة ديوي يمكن تطبيقها على أي تجميع للكتب، إلا أن رؤيته للعالم، المنعكسة في تقسيماته الموضوعاتية، كانت مقيدة بشكل يدعو للدهشة. وفقاً لواحد من كتّاب سيرته، ديوي((اعتنق الإنجلوـ ساكسونية عقيدة أمريكية تمجّد رسالة وقدر"العرق الإنجلوـ ساكسوني ومزاياه الفريدة... على هذا النحو كان مقتنعاً بصواب"الانجلوـ ساكسونية"الى الحد الذي بنى تعريفه لـ"الموضوعية"عليها)). يبدو أنه لم يخطر له مطلقاً بأن تصور نظام كوني يختزل الكون إلى ما يظهر مهماً فقط لسكان جزيرة شمالية صغيرة وأسلافهم، هو في أفضل أحواله يكون ناقصاً وفي أسوئها يلغي أهدافه الشاملة الخاصة. يبني مستر بودسناب في "صديقنا المشترك"مفهومه للهوية بإقصاء كل شئ لا يفهمه أو لا يهتم به على أساس أنه "غير انكليزي"، مؤمناً بأن ما يتركه وراءه سينتفي من الوجود خلال((تلويح مميز بذراعه اليمنى)). أدرك ديوي بأنه لا يمكن أن يطبق هذا على مكتبة، خصوصاً مكتبة بلا حدود، لكنه قرر بدلاً من ذلك بأن كل ما هو"غير أنجلوـ ساكسوني"يمكن بوسيلة ما أن يجبر نفسه للملاءمة في فئات أنجلوـ ساكسونية مخترعة من قبله.

على أي حال، لأسباب عملية، أصبح نظام ديوي، الذي كان انعكاساً لزمانه ومكانه، معروفاً على نطاق واسع جداً. في الدرجة الأولى لأنه كان سهل التذكر، ولأن نموذجه كان يتكرر في كل موضوع. تم تغيير وتبسيط وتكييف النظام مراراً، لكن جوهرياً بقيت المقدمة المنطقية لقاعدة ديوي دون تغيير: كل شيء قابل للتصور يمكن أن يكون منسوباً إلى أرقام، كي يكون بالوسع تضمين لا نهائية الكون داخل تناسق لامتناه من عشرة أرقام.

استمر ديوي بالعمل على نظامه طوال حياته. لقد آمن بتعليم البالغين الذين لم يكملوا دراستهم، وبالتفوق الأخلاقي للعرق الأنجلوـ ساكسوني، وبتبسيط الهجاء في اللغة الذي سوف لا يجبر الطلاب على تذكرالأفعال القياسية في اللغة الانكليزية(لقد أسقط حرفي le من نهاية اسمه الأول Melville بعد فترة قصيرة من تخرجه)، والذي((سيعجّل من دمج المهاجرين غير الناطقين بالإنكليزية داخل الثقافة الأمريكية الغالبة))، كما أنه آمن بأهمية المكتبات العامة. فالمكتبات، كما يعتقد، لا بد أن تكون وسيلة للاستخدام البسيط ((لكل شخص)). لقد اعتقد بأن حجر الزاوية للتعليم لم يكن في القدرة على القراءة فحسب، بل في معرفة كيفية((الوصول إلى المعنى في الصفحة المطبوعة))، ومن أجل تسهيل الوصول إلى تلك الصفحة ابتدع نظاماً بفضله نحن نذكره الآن.

كل مكتبة، وهي مرتبة حسب المواضيع، حسب الأهمية، طبقاً لكتاب سواء كان مدبجاً من قبل الرب أو من قبل مخلوقه، حسب الحروف الأبجدية أو حسب اللغة التي كتب بها النص، تترجم فوضى الاكتشاف والخلق إلى نظام مشيد من هرميات أو إلى ثورة من أفكار حرّة. مثل هذه التصنيفات هي التي تحكم مكتبتي الخاصة. إذا كانت مرتبة أبجدياً، على سبيل المثال، فإنها تزاوج، على نحو متناقض، بولغاكوف الفكه مع بونين المتجهم(في قسم الأدب الروسي)، وتجعل من بوالو الرسمي يتبع بوشامان العاميّ(في الأدب الفرنسي)، وتفرد على نحو لائق مكاناً لبورخس بجانب صديقه بيوي كاسارس(في الأدب الاسباني)، لكنها تخلق محيطاً من الحروف بين غوته وصديقه الحميم شيللر(في الأدب الألماني).

مثل هذه الطرق ليست تعسفية فحسب، بل ومربكة. لماذا عليّ أن

أضع غارسيا ماركيز تحت الحرف G وغارسيا لوركا تحت الحرف L؟ هل يتعين وضع صاحبة الإسم المستعار جان سومرز في مجموعة مع أناها الأخرى دوريس ليسنغ؟ وفي حالة الكتب التي ألفها اثنين أو أكثر، هل يجب أن تحكم هرمية الحروف ABC وضع الكتاب، أو(كما في حالة نوردهوف وهال)هل الواقع الذي يقضي بأن يُشار دائماً إليهم في ترتيب معين هو الذي يهيمن على نظام الترتيب؟ هل يجب تصنيف مؤلف ياباني وفقاً للتسمية الغربية أم الشرقية، "كنزابورو أو"Oe Kenzaburo تحت الحرف"O"أو"أو كنزابورو"Oe Kenzaburo تحت الحرف"K"؟ هل على المؤرخ، الذي كان رائجاً في زمنه، هندريك فإن لون Hendrik van Loon أن يقع تحت"V"أم تحت"L"؟ أين يجب أن أحفظ الكاتب المسلّي لوغان بيرسال سميث، مؤلف كتابي الأثير"كلها توافه"؟

الترتيب الأبجدي يثير أسئلة خاصة لا يمكنني أن أقدم لها أجوبة معقولة. لماذا هناك كتّاب تبدأ أسماؤهم(في الانكليزية، على سبيل المثال) بحرف"G" أكثر من"N"أو"H"؟ لماذا' هناك أسماء غيبسون أكثر من نيكول، وغرانت أكثر من هوغ؟ لماذا وايت أكثر من بلاك؟ لماذا رايت أكثر من وونغ، وسكوت أكثر من فرنتش؟

حاول الروائي هنري غرين أن يشرح الصعوبة التي يواجهها بوضع أسماء لوجوه في رواياته، يقول عن هذا:

"الأسماء تحيّر، الكنيات أسهل بكثير، وإذا أسقطت كلتاهما، كما يحدث غالبا، فإنها تجعل الكتاب يبدو أعمى، وعندئذ سوف لا يشكل هذا، في رأيي، ضرراً. لا يفترض في النثر أن يكون مقروءاً بصوت عال، بل أن يقرأه المرء لنفسه وحيداً في الليل، وهو ليس سريعاً مثل الشعر،

بالأحرى هو شبكة كثيفة من التلميحات التي تذهب أبعد من الأسماء مهما كانت مشتركة. النثر ينبغي أن يكون إلفة طويلة بين غريبين دون الانجذاب المباشر لما يعرفه الاثنان. إنه يجب أن يكون انجذاباً بطيئاً بمشاعر دفينة، إنه في النهاية ينبغي أن يستدر الدموع من الصخر، ويعبر عن مشاعر غير مقيدة بأفكار غالباً ما تكون مرتبطة بأسماء أماكن أو أشخاص، تكون للقارئ، وعلى نحو غير متوقع، مألوفة".

مكتبتي الموضوعاتية والألفبائية تجيز لي تلك الألفة الطويلة، بالرغم من الانجذاب إلى ما أعرفه، ومشاعر يقظة لما لا أملك لها من كلمات عدا تلك التي على الصفحة، وتجربة لما لا أملك لها من ذاكرة عدا تلك التي لقصة مطبوعة. كي أعرف ما إذا كان هناك كتاب معين موجود في مكتبتي، فإني إما أن أعوّل على ذاكرتي(هل اشتريت يوماً هذا الكتاب؟ هل استعرته؟ هل أرجعته؟)أو على نظام تصنيف مثل نظام ديوي(الذي أنا راغب عن الشروع به). الحالة الأولى تدفعني للمران على إنشاء علاقة يومية مع كتبي، فكثير منها لم يُفتح منذ زمن طويل، غير مقروءة لكنها ليست منسية، وأنا أفحص مراراً الرفوف لأرى أي منها موجود وأي منها لا. الحالة الثانية تضفي على كتب معينة، حصلت عليها من مكتبات أخرى، مجموعة رموز على أغلفتها تجعلها كما لو كانت تنتمي إلى قارئ من الماضي وهمي مجهول الاسم، وسلسلة صوفية من الحروف والأرقام منحتها يوماً مكاناً وفئة، بعيداً ومنذ زمن طويل.

في بعض الليالي أحلم بمكتبة شاملة مجهولة الاسم، ولا يكون فيها للكتب عنوان ولا تتباهى بمؤلف، تشكّل دفقاً مستمراً من القصص تجتمع فيه كل الأنواع، وكل الأساليب، وكل القصص، وفيها يكون كل أبطال

الروايات والمواقع بلاهوية، تيار يمكنني الغطس فيه في أي نقطة من مجراه. في مكتبة مثل هذه، بطل "القلعة" سيعتلي البيكود Pequod، بحثاً عن "الكأس المقدسة"، نازلاً على شاطئ جزيرة مجهولة ليبني عليها مجتمعاً جديداً من البقايا الطافية بين الخرائب، يتحدث عن المرّة الأولى، منذ مئة عام، التي رأى فيها الجليد، ويتذكر، في تفاصيل دقيقة، كيف كان يذهب مبكراً إلى النوم. في مكتبة مثل هذه سيكون هناك كتاب وحيد مقسّم إلى بضعة آلاف من المجلدات، ومع الاحترام الشديد لكاليماتشوس وديوي، لن يكون هناك من فهرست.

المكتبة مكانا

ليس هناك من مكان ! لا مكان !"صرخوا باكين حين رأوا أليس قادمة "هناك الكثير من الأمكنة !"قالت أليس بسخط، ثم جلست على كرسي ذي مساند عالية في إحدى طرفي الطاولة.

لويس كارول، أليس في بلاد العجائب

معرفة أن الكتب في مكتبة ما قد أخذت مكانها طبقا لقاعدة معينة، مهما كانت، تمنحها هويات، حتى قبل أن تُفتح صفحاتها الأولى. قبل أن تكشف لي تدريجيا رواية"مرتفعات وذرنج"قصتها المبهمة، فإنها دلّت على نفسها بأنها عمل من الأدب الإنكليزي(في القسم الذي وضعتها فيه)، تحت الحرف"B"، عضو في جماعة من الكتب، هي الآن منسية،(اشتريت هذه النسخة من محل بيع الكتب المستعملة في فانكوفر، وكانت تحمل الرقم الغامض ٧٩٠٠٤٢B مكتوب بالقلم الحبر على الورقة البيضاء الأولى منه، وهو تصنيف غير مألوف لي). يحتل هذا الكتاب مكاناً في الطبقة الأرستقراطية من الكتب المختارة، وكنت أسحبها بين الآونة والأخرى عن قصد لا بالمصادفة(لأنها تقع في الرف الأعلى، ولا يمكنني الوصول إليها إلا بسلّم). وبالرغم من أن الكتب مخلوقات فوضوية، تبقى أكثر أسرار معانيها بعيدة عن فهم القارئ، فالترتيب الذي أحفظها به، يمنحها تعريفا معيناً(مهما كان عادياً)ومعنى معيناً(مهما كان اعتباطياً)– سبب متواضع للتفاؤل.

بالرغم من ذلك فإن ميزة واحدة للعالم المادي تكبح أي شكل من أشكال التفاؤل، مهما كان متواضعاً، الذي قد يحسه القارئ في أي مكتبة مرتبة. هذه

الميزة هي تقييدات المكان. كانت هذه دائماً تجربتي مع المكان الذي أخطط لأن أضع فيه كتبي، إذ مهما كانت المجاميع التي أختارها لها، فالمكان كان بالضرورة يعيد تشكيل اختياري، وأهم من ذلك، يثبت، مثل لمح البصر، بأنه صغير جداً عليها، الأمر الذي يدفعني إلى تغيير ترتيبي. في أي مكتبة، ليس هناك رفوف فارغة تبقى فارغة لوقت طويل. مثل الطبيعة، المكتبات تمقت الفراغ بشدة، ومشكلة المكان متأصلة في نفس طبيعة أية مجموعة من الكتب.
هذا هو التناقض الظاهري المطروح في كل مكتبة: ذلك إذا كان القصد من توسيع المكتبة أن تصبح مرجعاً شاملاً بأكبر قدر ممكن للعالم، فلا بد من أن تكون تلقائياً فائضة عن الحاجة، لأنها لا تصل إلى الشمول إلا في حالة وصول حدودها إلى حدود العالم نفسه.

أذكر في مراهقتي أنني كنت أراقب بمزيج من الهلع والافتتان، كيف كانت رفوف الكتب التي على جدار غرفتي تمتلئ تلقائياً وبسهولة، ليلة بعد أخرى، حتى لا يعود هناك مجال فارغ. كتب جديدة ممدة على الأرض مثل مخطوطات المكتبات القديمة، وقد بدأت تتراكم واحداً فوق الآخر. كتب قديمة، احتلت مكانها المدروس خلال النهار، تضاعفت مرتين وربع في المقدار، وتركت كل القادمين الجدد في وضع حرج. كلها تحيط بي ــ على الأرض، في الزوايا، تحت السرير، على مكتبي ــ أعمدة من كتب تتصاعد ببطء، محوّلة المكان إلى غابة من الفطريات، سيقانها النامية تهدد بحشري في حجرتي.

في ما بعد، في بيتي في تورنتو، وضعت رفوفاً للكتب في كل مكان، في غرفة النوم والمطبخ، في الممرات والحمام. حتى الشرفة المسقفة كان لها رفوفها، إلى حد أن أطفالي كانوا يتندرون قائلين إنهم بحاجة إلى بطاقة مكتبة للدخول إلى بيتهم الخاص. لكن كتبي، مهما كان مكان الشرف الذي تحتله، لم تكن راضية أبداً. إذا وضعت الكتب البوليسية في قبو غرفة النوم،

فإن المكان المخصص لها ما يلبث أن يضيق عليها، فيجب عندئذ نقلها إلى الطابق العلوي في واحد من جدران الممر مزيحة الأدب الفرنسي. على الأدب الفرنسي الآن أن يتجزأ على مضض إلى أدب مقاطعة كيبيك، وأدب فرنسا، وأدب البلدان الفرنكفونية الأخرى. أمر مزعج جداً أن أفصل، على سبيل المثال، إيمي سيزار عن أصدقائه إيلوار وبريتون، أو أن أضطرّ إلى عزل كتاب لوي هيمون، "ماريا شابدولين"(ملحمة وطنية من كيبيك)برفقة كتب لهايسمان وهيغو، لمجرد أن هيمون ولد في بريتاني، فرنسا، ولم يعد لي مجالاً في القسم الكيبيكي.

كتب قديمة عرفناها لكنها لم تكن بحوزتنا، تقطع علينا الطريق داعية نفسها إلينا. كتب جديدة تحاول أن تغوينا يوميا بعناوين مغرية وأغلفة جذابة. عوائل تتوسل أن يُلم شملها: المجلد XVIII من"الأعمال الكاملة"للوب دي فيغا معلن عنها في فهرست، تدعو المجلدات السبعة عشر الأخرى التي تجلس في رف مكتبتي، وتكاد صفحاتها لم تُمس. كم هو محظوظ الكابتن نيمو إذ كان بوسعه القول خلال رحلة العشرين ألف فرسخ تحت البحر، بأن((العالم انتهى بالنسبة لي في اليوم الذي غاصت في مركبتي ناوتيلوس تحت الماء أول مرّة. في ذلك اليوم كنت اشتريت كتابي الأخير، وكراستي الأخيرة، ومجلاتي الأخيرة، ومنذئذ، كان الأمر بالنسبة لي كما لو أن البشرية توقفت عن التفكير ولم تعد تكتب كلمة واحدة)). لكن بالنسبة إلى قارئ مثلي أنا، ليس هناك من شراء"أخير"في هذا الجانب من القبر.

كان الشاعر الإنكليزي ليونيل جونسون يبحث بإلحاح عن غرفة لرفوف كتب صممها بنفسه، تتدلى من السقف مثل الثريات. صديق لي في بوينس آيرس بنى أعمدة من رفوف ذات أربعة جوانب تدور على محور مركزي، مضاعفا المكان أربع مرّات لكتبه، وكان يدعو رفوفه بخزانة الدرويش. في

مكتبة آلثورب، نورثهامبتون إستيت أوف أيرل سبنسر(التي كانت قبل بيعها عام ١٨٩٢، تضم أربعين ألف مجلداً، من ضمنها ثمانية وخمسين عنواناً من طبعات الطبّاع الإنكليزي الأول وليام كاكستون)، تصل رفوف المكتبة إلى ارتفاعات مدوّخة، وإذا كان على أحد أن يراجع الصفوف العلوية منها، سيحتاج إلى سلّم هائل، يحتوي على((زوجين من الدرجات القوية المثبتة على عجلات، ومتوّجة بعش غراب فيه مقعد ومِقرأ صغير، وهو في المظهر العام يشبه آلة حصار من القرون الوسطى. مثل الجغرافيين المجانين المصممين على جغرافية موسّعة لاستيعاب خرائط دائمة التوسع، كان مبتدعو قطع الأثاث الحماسية هذه دائماً مخيبين للأسف. في النهاية أعداد الكتب تتجاوز دائماً المكان المتاح لها.

في الفصل الثاني من"سلفي وبرونو"، يخترع لويس كارول الحل التالي: ((لو أمكننا أن نطبق تلك القاعدة على الكتب! أتعرف، لو أمكننا أن نجد المضاعف المشترك البسيط، ونشكل بسهولة ظاهرة كمية حيثما تخطر، ما عدا في الحد الذي يرتفع فيه إلى أعلى قوته، إذاً يجب علينا أن نمحو كل فكر مدوّن، ما عدا في الجملة المعبر عنها بكثافة أكبر)). يعترض رفيقه قائلا: ((بعض الكتب ستكون مختزلة إلى ورقة بيضاء، هذا ما أخشاه!)) ((وستكون كذلك))، يعترف الراوي.((أكثر المكتبات ستنقص بشكل رهيب بمقادير كبيرة. لكن فكّر فقط، كم سيربحون في النوعية!)). بروح مشابهة، اقتضى قانون صارم، في ليون في نهاية القرن الأول، أن يتم، بعد كل مسابقة أدبية، إجبار الخاسرين على محو كتاباتهم الشعرية بألسنتهم، كي لا يبقى أدب من الدرجة الثانية على قيد الوجود.

في مخطوطة محفوظة في مكتبة الفاتيكان(ولم تنشر لحد الآن)، يصف المفكر الإنساني الميلاني أنجلو ديتشمبريو نظاماً انتقائياً قاسياً، وبمقتضاه

قام الأمير الشاب ليونيلو ديستر، في القرن الخامس عشر، بتأثيث مكتبته في مدينة فيرارا تحت إشراف معلمه غورينو دا فيرونا. نظام ليونيلو يتضمن إبعاد ورفض كل شيء عدا الأعمال القيّمة في أدب العالم. من بين الأعمال المطرودة من الرفوف الأميرية كانت المؤلفات الموسوعية الرهبانية("محيطات القصص، كما كانت تسمى، الأعباء الثقيلة للحمير")، والترجمات الفرنسية والإيطالية للنصوص الكلاسيكية(لكن ليست الأعمال الأصلية)، وحتى"كوميديا"دانتي التي يمكن قراءتها في ليالي الشتاء، قرب الموقد مع الزوجة والأطفال، لكن لا يفضل أن يكون مكانها في مكتبة مثقفة. اعترف فقط بأربعة مؤلفين كلاسيكيين: ليفي، فيرجيل، سالوست وتشيشيرو. أما الباقون فعدوا مؤلفين صغار يمكن لأعمالهم أن تُباع عند أي زاوية شارع ويمكن إعارتها إلى أصدقاء دون الخشية من فقدان شيء ذي قيمة.

من أجل إيجاد طرق لمعالجة عملية نمو الكتاب(برغم عدم الاهتمام بتحسين النوعية)، لجأ القرّاء إلى كل أشكال الوسائل المؤلمة: تشذيب مجموعاتهم الثمينة، وضع الرفوف المزدوجة، التخلي عن مواضيع معينة، رمي ورق أغلفة كتبهم، الانتقال حتى إلى منزل آخر تاركين البيت كله لكتبهم. أحياناً لا تبدو هذه الخيارات محتملة. بعد وقت قصير من أعياد الميلاد في عام ٢٠٠٣، كان على رجال الإطفاء إنقاذ رجل من نيويورك يبلغ من العمر ثلاثة وأربعين عاماً، اسمه باتريس مور. قضى هذا الرجل يومين مطموراً تحت كتلة ضخمة من الصحف والمجلات والكتب، كان قد كدّسها بعناد لما يقرب العشر سنوات. اكتشفه الجيران حين سمعوه يئن ويغمغم خلف الباب التي كانت موصدة بكل أنواع الورق. لم يتم الوصول إلى مور إلا بعد كسر القفل بعتلة، وبدأت عملية الإنقاذ بالحفر في قبر المطبوعات المكوّمة، فعثر عليه في زاوية ضيقة من شقته مدفوناً، حرفياً، في كتبه. استغرق الأمر أكثر من ساعة

قبل أن يخلصوه، فكان عليهم أن يسحبوا بعيداً خمسين حقيبة من المواد المطبوعة قبل أن يصلوا إلى هذا القارئ العنيد.

في سنوات التسعينيات، قرر مديروا عدد من المكتبات الكبيرة، حين أدركوا ان أبنيتهم القديمة، الفخمة لم تعد قادرة على استيعاب طوفان المادة المطبوعة، بناء مباني ملحقة جديدة لإيواء مجاميعهم الضخمة. في باريس ولندن وبوينس آيرس(من بين مدن أخرى)، وضعت خطط للبدء بالبناء. لسوء الحظ، كان تصميم المكتبات في عدة حالات غير ملائم لتخزين الكتب. من أجل تعويض التخطيط الناقص للمكتبة العامة الرئيسية الجديدة في سان فرانسيسكو، التي لم يخصص فيها المعماري مكاناً كافياً لرفوف الكتب، عمد المسؤولون عن المكتبة إلى سحب مئات الألوف من الكتب، ورميها في أرض مخصصة لدفن النفايات. وحيث إن الكتب قد تم انتخابها للتدمير على أساس طول الفترة التي لم يتم فيها استعارتها، انسلّ مكتبيون أبطال في الليل إلى مجموعة الرفوف، من أجل إنقاذ أكبر قدر ممكن من الكتب، ودمغوا المجلدات المهددة بدمغات فيها تواريخ سحب وهمية.

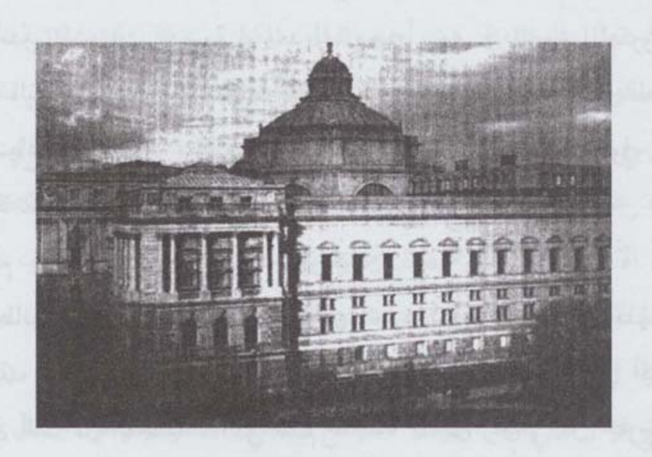
للتضحية بالمحتوى من أجل توفير المكان ــ لم تكن مكتبة سان فرانسيسكو العامة وحدها ضحية مثل هذا التصرف غير المسؤول. حتى مكتبة الكونغرس في واشنطن"الملاذ الأخير للكتب"عانت من إجراء مماثل. في عام ١٨١٤، خلال مناقشات الكونغرس الأمريكي حول شراء المكتبة الخاصة للرئيس الأمريكي السابق توماس جفرسون ــ كي تحل محل الكتب التي أحرقتها القوات البريطانية في وقت مبكر من ذلك العام بعد احتلال مبنى الكابيتول في واشنطن ــ اعترض سيريل كنغ، مشرّع الحزب الفيدرالي، ((بأن ٢٣٩٠٠ دولار من أموال الميزانية ستوضع في جيب مستر جفرسون مقابل نحو ٦٠٠٠ كتاب، منها جيد، سيء، ومتوسط القيمة، قديم، جديد وغير ذي

قيمة، في لغات لا يقرأ بها الكثيرون، وكتب لا يحسن أن تقرأ أبداً))، ردّ جفرسون((أنا لا أعلم ما إذا كانت مكتبتي تشمل أي فرع من المعرفة يتمنى الكونغرس إقصاءها من مجموعتهم: في الواقع، ليس هناك موضوع قد يملك عضو في الكونغرس داعياً للإشارة إليه)).

بعد نحو القرن ونصف، كانت ملاحظة جفرسون منسية بشكل شبه كامل. في عام ١٩٩٦، اكتشف محرر مجلة نيويوركر(والروائي الأكثر مبيعاً) نيكولاس بيكر بأن مكتبة الكونغرس استبدلت أكثر مجموعاتها الضخمة من صحف نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بأجهزة المايكروفلم، وتم تدمير النسخ الأصلية. كان تسويغ هذا التصرّف الرسمي قائماً على دراسات علمية"مضللة"عن درجة الحامضية وهشاشة الورق، شيء يشبه الدفاع عن جريمة قتل بتسميتها مساعدة على الانتحار. بعد عدة سنوات من البحث، توصل بيكر إلى استنتاج بأن الوضع أكثر سوءاً مما كان يخشاه في البداية. كل مكتبات الجامعات الكبيرة في الولايات المتحدة تقريباً، بالإضافة إلى أكثر المكتبات العامة الكبرى، اقتدت بمثال مكتبة الكونغرس، وبعض من أندر المنشورات الدورية لم يعد لها وجود سوى في النسخ المايكروفلمية. وهذه النسخ قاصرة بأكثر من طريقة. إذ إن المايكروفلم يعاني من اللطخات والأصباغ والخدوش، وتقطع فيه حافات أو هوامش النصوص، وفي أحوال كثيرة تنقص أجزاء كاملة من النص.

لم يكن مجرمو المايكروفلم أمريكيين فقط. في عام ١٩٩٦، المكتبة البريطانية، التي نجت مجموعتها من الصحف، في جزء كبير منها، من القصف الجوي الألماني في الحرب العالمية الثانية، تخلصت من أكثر من ستين ألف من المجلدات التي تضم صحفا، بشكل رئيسي من خارج نطاق دول الكومنولث، بعد الفترة من عام ١٨٥٠. بعد سنة، اختارت أن ترمي

خمسة وسبعين سلسلة من المطبوعات الأوربية الغربية، وبعد وقت قصير تخلت عن مجموعاتها من الدوريات من أوربا الشرقية، أمريكا الجنوبية والولايات المتحدة. في كل حالة، كان التبرير المعلن عنه في إزالة النسخ الأصلية، هو المكان. لكن كما حاول بيكر أن يبرهن، أن المايكروفلم تصعب قراءته، وجودة إعادة إنتاجه سيئة. حتى أحدث التكنولوجيا الإلكترونية لا يمكنها أن تقترب من تجربة قراءة مطبوعة أصلية. وكما يعرف أي قارئ، أن الصفحة المطبوعة تخلق مكان القراءة الخاص بها، ومشهدها المادي الخاص، الذي به يكتسب نسيج الورق، ولون الحبر، ومرأى طاقم الصفحة كلها، معنى محدداً في يد القارئ، يضفي نغمة ومضموناً على الكلمات.(أمينة مكتبة جامعة كولومبيا، باتريشيا باتن، وهي مؤيدة شرسة لعملية تحويل الكتاب إلى مايكروفلم، لا تتفق مع هذه الفكرة. كتبت بأن((قيمة عملية قرابة الكتاب للقارئ، في المصطلحات الفكرية، لم تطرح بشكل مقنع أبداً)). هنا يتكلم شخص أبله، ليس لديه إحساس، في المصطلحات الفكرية أو غير الفكرية، بتجربة القراءة.



مكتبة الكونغرس، واشنطن دي سي.

الأهم من كل شيء، أن الجدل القائم بشأن إعادة الإنتاج الإلكترونية، نظراً لحياة الورق المهددة، هو جدل زائف. أي شخص يستخدم جهاز الكومبيوتر يعرف كم هو من السهل فقدان نص من الشاشة، إذا ما صادف أن استعمل دسك(قرص مرن)أوسي دي(قرص مضغوط)معطوب، أو تعرض برنامجه لتحطم(كراش)قبيح. أدوات الوسائط الإلكترونية ليست خالدة. العمر الافتراضي للدسك لا يتجاوز السبع سنوات، والسي دي روم لايدوم أكثر من عشر سنوات. في عام ١٩٨٦، أنفقت محطة البي بي سي مليونين ونصف باوند لابتكار نسخة كومبيوترية متعددة الوسائط من كتاب Domesday Book، الإحصاء الرسمي لسكان انكلترا في القرن الحادي عشر، الذي ألفه الرهبان النورمانديين. بطموح أكبر من الذي للنسخة الأصلية، تضمن "دومسدَي بوك"الإلكتروني ٢٥٠٠٠٠ اسم مكان، ٢٥٠٠٠ خريطة، ٥٠٠٠٠ صورة، ٣٠٠٠ موقع بيانات و ٦٠ دقيقة من صور متحركة، إضافة إلى عدد لا حصر له من التقارير التي تصف"الحياة في بريطانيا"أثناء تلك الفترة. تبرّع أكثر من مليون شخص للمشروع، الذي تم تخزينه في دسكات ليزرية ذات اثني عشر إنج لايمكن حل شفراتها إلا بواسطة مايكروكومبيوتر بي بي سي الخاص. بعد ستة عشر عاماً، في آذار ٢٠٠٢، أُجريت محاولة لقراءة المعلومات على واحد من هذه الكومبيوترات القليلة التي ما زالت موجودة، لكن المحاولة فشلت. حلول أخرى سعت إلى إسترداد البيانات، لكن ولا واحدة منها كانت ناجحة تماماً.((ليس هناك من حلول تقنية قابلة للتطبيق بشكل يمكن إثباته هنا لهذه المشكلة))، قال جف روثنبرغ من شركة راند كوربوريشن، واحد من الخبراء العالميين في حفظ البيانات ممن دُعي للاستعانة بمشورته.((مع ذلك، إذا لم تُحل هذه المشكلة، فإن إرثنا الرقمي المتصاعد سيكون معرضا للضياع)). بالعكس من ذلك، فإن النسخة الأصلية من"دومسدي بوك"، التي يقارب عمرها الألف عام، والتي كُتبت بحبر على ورق ومحفوظة في ببلك ريكورد أوفس في كيو، هي في حالة جيدة وما زال بالإمكان قراءتها بوضوح. مديّر برنامج ارشيف المدونات الإلكتروية في

الإدارة القومية للأرشيف والسجلات في الولايات المتحدة، اعترف في تشرين الثاني من عام ٢٠٠٤، بأن حفظ المادة الالكترونية، حتى في العشر سنوات القادمة، إن لم نقل زمناً أبعد،((هي مشكلة عالمية لأكبر الحكومات ولأكبر الشركات، نزولاً إلى الأفراد)). ولأنه ليس هناك حل واضح متاح، فإن الخبراء الإلكترونيين ينصحون المستخدمين بنسخ موادهم على أقراص مدمجة، لكن حتى هذه لها عمر استهلاك قصير. مدة بقاء البيانات المسجلة على قرص مدمج مستنسخ من قرص أصلي يمكن أن تدوم أقل من خمس سنوات. في الحقيقة، نحن لا نعرف كم من الوقت سيكون فيه ممكناً قراءة نص مطبوع في ٢٠٠٤ على قرص مدمج. وبالرغم من أنها حقيقة بأن الحامضية، والهشاشة، والنار وعثة الكتب الاسطورية، كلها تهدد المخطوطات القديمة واللفافات، فإن هذا لا يعني بأن كل شئ مكتوب أو مطبوع، على البرشامة أو على الورق، محكوم عليه بالموت المبكر. قبل بضع سنوات، شاهدت في متحف الآثار في نابولي بقايا ورقة بردي، محفوظة بين لوحين زجاجيين، كانت أنقذت من خرائب بومبي. كان عمرها ألفي سنة، وقد أُحرقت بنيران بركان فيزوف، وطُمرت تحت دفق الحمم، مع هذا لا زال بإمكاني قراءة الحروف المكتوبة عليها، بوضوح مثير للدهشة.

مع ذلك، فإن كلا المكتبتين ــ الورقية والإلكترونية ــ يمكن، بل ينبغي أن يتعايشا. لسوء الحظ، الواحدة منهما تفيد، في أحوال كثيرة، من مصائب الأخرى. مكتبة الإسكندرية الجديدة، افتتحت في تشرين الأول ٢٠٠٣، وكان واحد من مشاريعها الكبرى، إقامة مكتبة افتراضية(إلكترونية)موازية، وهي مكتبة الإسكندرية للدراسات الجمعية. أُنشئت هذه المكتبة بواسطة الفنانة الأمريكية روندا رولاند شيرر، ورصدت لها ميزانية إحداث سنوية بنصف مليون دولار أمريكي، وهو مبلغ من الممكن أن يتضاعف بكثير مستقبلا. هاتان المؤسستان اللتان حاولتا كلتيهما أن تتقمصا روح مكتبة زمن كاليماتشوس، تمثلان تناقضاً ظاهرياً. في حين أن رفوف المكتبة الحجرية والزجاجية الجديدة فارغة لافتقارها للدعم المالي، وهي تعرض مجموعات هزيلة من

ورق الصحف والكتب المستعملة، إضافة إلى هبات من ناشرين عالميين، فإن المكتبة الافتراضية سرعان ما امتلأت بكتب من جميع أنحاء العالم، حيث يتم فحص جزء كبير منها بشكل دقيق بواسطة فريق من التقنيين من جامعة كارنيجي ـ ميلون، وتستخدم برنامج كومبيوتر يدعى سايبربوك بلوز، مُطَور من قبل شيرر نفسها، ومصمَم لاستيعاب أحجام ولغات مختلفة((مع التركيز الشديد على النصوص البصرية، أكثر من النصوص المطبوعة)).

مكتبة الإسكندرية للدراسات الجمعية ليست فريدة في طموحها بمنافسة المكتبات الورقية. في عام ٢٠٠٤ أعلنت الشركة الأكثر شهرة في مجال خدمات البحث في الإنترنت، غوغل، عن إبرام اتفاق مع عدة مكتبات بحث رئيسية في العالم ــ هارفارد، بودلين، ستانفورد، المكتبة العامة لنيويورك ــ لتصوير جزء من مقتنياتهم، وجعل الكتب متاحة للباحثين على الإنترنت(أونلاين)، حيث لا يحتاج الباحث بعدئذ إلى أن يسافر إلى المكتبات نفسها أو أن يغبرّ يديه عبر رفوف لاتنتهي من الورق والحبر. لكن الشركة، لأسباب مالية وإدراية، ألغت مشروعها في تموز ٢٠٠٥. وبلا شك سيتم إحياؤه في المستقبل، لأن من الواضح أنه يلائم قدرات شبكة الإنترنت. في السنوات الخمس القادمة، ملايين من الصفحات ستنتظر قراءتها أونلاين. وكما في عبرة حكاية برج بابل،((لن يمتنع إذاً عليهم أي شئ عزموا على فعله))، وقريبا سيكون بوسعنا استحضار كل المخزون الشبحي لكل أنواع الاسكندريات في الماضي أو المستقبل بنقرة إصبع.

الحجج العملية لخطوة مثل هذه لا يمكن دحضها. وفرة، سرعة، دقة، جاهزية فورية، هذه كلها، بطبيعة الحال، أمور مهمة للباحث. لكن مولد تكنولوجيا جديدة لا يعني موت سابقتها: اختراع التصوير لم يلغ الرسم، بل جدده، ويمكن للشاشة والمخطوطة أن يغذيا بعض وأن يتعايشا سلميا على نفس منضدة القارئ. إذا قارنا بين المكتبة الوهمية أو الافتراضية وتلك التقليدية ذات الحبر والورق، فإننا نحتاج إلى التذكير بعدة أشياء: أن القراءة غالباً ما تقتضي البطء، والعمق والبيئة؛ وأن تكنولوجيتنا الإلكترونية هشة،

وبما أنها دائمة التغير، فغالباً ما يكون من المحال استرداد ما كان يوماً مخزوناً في المستودعات التي ألغيت؛ وأن تصفح كتاب والتجول بين الرفوف هما جزء حميمي من فن القراءة ولايمكن استبداله بتقليب شاشة، فالأمر سيشبه استبدال السفر بدليل رحلات مصور.

ربما هذا هو جوهر الموضوع. قراءة كتاب ليست مطابقة تماما لقراءة شاشة، مهما كان النص. مراقبة مسرحية لا تماثل مشاهدة فلم، ومشاهدة فلم لا تماثل رؤية دي في دي أو شريط فيديو، والتفرّس في لوحة لا تشبه التحديق في صورة فوتوغرافية. كل تكنولوجيا توفر وسيطاً معيناً(هذا التعبير طُرح في عام ١٩٦٤، من قبل مارشال ماكلوهان)يميز العمل الذي تجسده وتحدد درجته المثلى في الخزن ووسيلة الوصول. المسرحية يمكن أن تؤدى في أمكنة دائرية، وهذه لا تلائم عرض الأفلام؛ ومشاهدة فلم دي في دي في غرفة أليفة لها سمة مختلفة عن مشاهدة نفس الفلم في دار العرض؛ صور مطبوعة بشكل جيد يمكن أن ترضي الرائي بشكل كامل، بينما اللوحات المنسوخة لا يمكن أن تعوّض عن تجربة كاملة بمشاهدة اللوحة الأصلية.

أنهى بيكر كتابه بأربع نصائح مفيدة: يتوجب على المكتبات أن تنشر قائمة بالمطبوعات التي تنوي إلغاءها؛ كل المطبوعات التي أُرسلت إلى مكتبة الكونغرس وتم رفضها يجب أن تفهرس وتخزن في مبان ملحقة ومجهزة من قبل الولاية؛ تحزم الصحف وتحفظ بشكل روتيني؛ يجب أن يلغى كلا برامج المايكروفلم والكتب المحولة على نظام الديجتال، أو أن يكون هناك شرط إلزامي بأن لا يتم تدمير النسخ الأصلية بعد معالجتها إلكترونيا. الخزن الإلكتروني والحفظ المادي للمادة المطبوعة كلاهما يحققان للمكتبة واحداً على الأقل من طموحاتها: الشمول. أو، على أقل تقدير، قياس معين للشمول. كتب العالم الأمريكي أوليفر ويندل، في القرن التاسع عشر، بلهجة تأنيب،((يجب على كل مكتبة أن تكون مكتملة في شيء ما، حتى لو كان تاريخ رؤوس الدبابيس))، وهذه العبارة تردد آراء العالم الفرنسي غابرييل نودي، الذي نشر عام ١٦٢٧ كتاباً متواضعاً سماه"نصائح في تأسيس

مكتبة"(نقح ووسع بعد عدة سنوات)، يتحدث فيه حـ ى عن طلبات القارئ. ((لا شئ هناك))، كتب نودي،((يجعل مكتبة ما أكثر جاذبية من مكتبة يجد فيها كل شخص ما يبحث عنه ولا يمكنه إيجاده في مكان آخر، لذلك فإن الشعار المثالي هو: ما من كتاب موجود، مهما كان سيئاً أو منقوداً بشكل سيء، قد لا يكون مطلوباً في وقت ما من قارئ معين)). هذه الإشارات تطالبنا بالمستحيل، لأن كل مكتبة، بالضرورة، هي مخلوق ناقص، عمل بصدد النمو، وكل رف فارغ هو بشير بكتب قادمة.

ومع هذا فإننا من أجل هذه الرفوف الفارغة ندّخر المعرفة. في سنة ٧٦٤، وبعد إخماد"تمرد ايمي"، قررت الإمبراطورة اليابانية شوتوكو، بعد أن آمنت بأن نهاية العالم باتت وشيكة، أن تخلّف تدويناً عن عصرها للأجيال التالية، مهما ستكون عليه والتي قد تُبعث من الرماد. امتثالا لأوامرها طُبعت أربع"داهاراني ــ سوترا"(كلمات رئيسية للحكمة منقولة إلى اللغة الصينية من السنسكريتية)، منقوشة بحروف من خشب على قطعة ضيّقة من الورق وموضوعة داخل برج بوذي خشبي صغير، يرمز للكون، وهوعبارة عن قاعدة مربعة تمثل الأرض وحلقات تتصاعد بدوائر إلى السماء ومثبتة فوقها عصا بوذا. هذه الأبراج البوذية كانت موزعة بين المعابد العشرة الرئيسية في الإمبراطورية.

خيل للإمبراطورة أنها يمكنها أن تحفظ بهذه الطريقة عصارة المعرفة المتراكمة منذ الأزل. بعد عشرة قرون، في ١٧٥١، أُعيد مشروعها بشكل غير متعمد على يد دينس ديدرو، رئيس التحرير المشارك(مع جان لو رون داليمبين) لأكبر مشروع نشر لحركة التنوير الفرنسية، Encyclopédie، أو"الموسوعة القياسية للعلوم، والفنون، والمهن".

من الملفت للنظر أن هذا الرجل بدأ حياته الدراسية كطالب جزويت مكرّس، لكنه عُدّ فيما بعد من أشد أعداء الكنيسة الكاثوليكية(أُدرجت الانسيكلوبيديا في"قائمة الكتب الممنوعة"للكنيسة وقد هُدد صاحبها ديديرو بالحرمان من الحقوق الكنسية). ولد ديدرو في عام ١٧١٣، ستة وسبعون سنة قبل بداية

الثورة الفرنسية. تلقى أثناء طفولته تعليماً في مدرسة الجزويت في لانغريه، وفي بداية العشرينيات من عمره تحوّل إلى مؤمن متحمس وورع. لقد كان يرفض رغد العيش في بيت والديه(كان أبوه ثرياً، صانع سكاكين ماهر وله سمعة عالمية)، فكان يرتدي قميصاً من الشعر وينام على القش، وقرر في النهاية، بتشجيع من معلميه الدينيين، الهرب من البيت ليصبح قسيسا. حين سمع الأب بنوايا ولده، قام بإقفال أبواب البيت وسأل ابنه أن يخبره إلى أين يفكر في الذهاب في وقت متأخر من الليل.((الى باريس، للانضمام إلى الجزويت))، قال ديدرو. ((أمانيك ستلَبى))، أجاب الأب،((لكن ليس في هذه الليلة)).

نفذ ديدرو الأب جزءاً مما وعد به. أرسل ابنه ليكمل تعليمه في باريس، لكن لم يرسله إلى كلية الجزويت لوي لو غران، بل إلى كلية داركور، التي أنشأها الجانسينيين(أتباع مدرسة دينية ذوي أفكار متزمتة، عقائدهم تشبه، إلى حد بعيد، عقائد الكالفينيين)، وفيما بعد إلى جامعة باريس. نية ديدرو في الحصول على الدكتوراه في علم اللاهوت لم تتحقق أبداً. بدلاً من ذلك درس الرياضيات، والأدب الكلاسيكي واللغات الأجنبية، دون هدف محدد في ذهنه، حتى قام والده، الذي علم بتوقعات تحول ابنه إلى طالب أبدي، بقطع المعونات المالية عنه وأمره بالعودة إلى المنزل. لكن ديديرو تمرّد، وظل سنوات عديدة بعد ذلك يعيل نفسه بالعمل كصحفي ومدرّس.

التقى ديدرو وداليمبير، حين بلغ الأخير لتوه الثلاثين من العمر. كان داليمبير أصغر بأربع سنوات بالعمر من رفيقه، لكنه كان حقق مسبقا شهرة في حقل الرياضيات. وكان، حسب شهادات معاصريه، ذا((عقل نيّر وعميق وصائب))، وهذا ما جذب إليه ديدرو. ولأن داليمبير كان لقيطا(عُثر عليه طفلاً رضيعاً على مدرجات كنيسة باريس)، فإنه لم يكن من النوع الذي يأبه كثيراً بالمكانة الاجتماعية، وكثيراً ما كان يقول بأن شعار كل رجل يجب أن يكون((حرية، حقيقة، فقر)). والأخيرة حققها دون جهد كبير.

قبل نحو خمسة عشر عاماً من لقائهما، في عام ١٧٢٨، نشر العالم الاسكتلندي إفرايم تشامبرز موسوعة شاملة، إلى حد ما،

سماها"Cyclopedia"(الموسوعة الأولى في اللغة الانكليزية، ولا علاقة لها بموسوعة تشامبرز الحالية)، ألهمت أعمالاً عديدة أخرى مشابهة، من بينها"Dictionary"دكتور جونسون. في وقت مبكر من عام ١٧٤٥، استعان الكتبي الباريسي آندريه ـ فرانسوا لو بريتون، الذي لم يكن قادرا على ضمان ترجمة"سيكلوبيديا" إلى اللغة الفرنسية، بخدمات داليمبير، أولا، ومن ثم ديدرو بتحرير عمل مشابه، لكن على مقياس أوسع. لمّح ديدرو، بعد أن زعم أن"سيكلوبيديا"كانت عبارة عن سرقات صغيرة، إلى حد كبير، من نصوص فرنسية، إلى أن ترجمة هذا العمل إلى لغة كانت هي لغته الأصلية، سيكون أداء لا معنى له، فالأولى جمع مادة جديدة تقدم للقرّاء بانوراما شاملة وعصرية عما أنتجته العلوم والفنون في ذلك العصر.

في لعبة المرايا المتقابلة، عرّف ديدرو مطبوعه الكبير ذي الثمانية وعشرين مجلداً (سبعة عشر من النصوص وإحدى عشر من الصور التوضيحية) في مقال يحمل نفس عنوان الموسوعة، Encyclopédie: ((الهدف من الانسيكلوبيديا))، كتب، ((هو جمع المعرفة المتناثرة على سطح الكرة الأرضية، والكشف عن نظامها العام للبشر الآتين بعدنا، كي لا تُعَد جهود القرون الماضية بلا نفع للقرون القادمة... لتكن الانسيكلوبيديا حرماً مقدساً تصان فيه المعرفة الإنسانية من عاديات الزمن ومن التغيير))، فكرة تشبيه إنسيكلوبيديا بالحرم المقدس فكرة جذابة. في عام ١٧٨٣، إحدى عشرة سنة بعد إتمام مشروع ديديرو الضخم، تخيل الكاتب غيّوم غريفيل هذا الحرم المقدس كحجر زاوية لمجتمع المستقبل الذي يجب، مثل الآخر الذي تخيلته الامبراطورة اليابانية، إعادة بناء نفسه من أنقاضه. في الجزء الأول من رواية تحكي مغامرات كروسويين جدد حطت سفينتهم على جزيرة مجهولة، يصف غريفيل كيف أنقذ المستعمرون الجدد بضعة مجلدات من"إنسيكلوبيديا"ديدرو من حطام سفينتهم، وحاولوا، على أساس مقالاتها العلمية، إعادة بناء المجتمع الذي أُجبروا على تركه وراءهم.

اعتبرت الانسيكلوبيدي أيضاً مكتبة أرشيفية ومتفاعلة. في النشرة التمهيدية التي أعلنت عن المشروع الواسع، كتب ديدرو أن هذا المشروع((سيحقق كل أغراض مكتبة، للشخص المتخصص، في أي موضوع بصرف النظر عن حقل اختصاصه)).

دفاعا عن قراره بترتيب هذه"المكتبة"الشاملة حسب الحروف الأبجدية، يشرح ديدرو ذلك بأنه لا يخل بالصلة الوثيقة بين المواضيع ولا ينتهك حرمة"شجرة المعرفة"، بل العكس، سيكون النظام ظاهرا في((ترتيب المواد داخل كل مقال، ومن خلال دقة وتعدد المراجع الترافقية)). المعنى من هذه المراجع الترافقية هو تقديم مقالات مختلفة، ليست كنصوص مستقلة كل منها يحتل حقلاً حصرياً للموضوع المعطى، بل كموجات متقاطعة لمواضيع، في عدة حالات،((ستحتل نفس الرف))، وبالتالي فهو تخيل"المكتبة"كغرفة فيها"كتب"مختلفة وضعت في مكان واحد. على سبيل المثال، مناقشة حول"الكالفينية"، أثارت سابقاً ارتياب الكنيسة منها، هي جزء من موضوع عن"جنيف"، وتقييم نقدي لسر الكنيسة المقدس متضَمن في مرجع ترافقي مثل((أكل لحوم البشر: انظر"القربان المقدس"، "العشاء الرباني"، "المذبح"، إلى آخره)). أحياناً يستشهد بمصادر أجنبية(عالم صيني، تركي)ليعبر عن نقد العقيدة الدينية، وبذلك سيعرّج على وصف الثقافات والفلسفات الأخرى، وأحياناً يأخذ الكلمة في أوسع معانيها، كي يكون بوسعه، على سبيل المثال، تحت كلمة"عبادة"أن يناقش كلا عبادة الله وعبادة المرأة الجميلة، مقارناً بجرأة بين الواحدة والأخرى.

بالرغم من سعره المرتفع، بيع المجلد الأول من الانسيكلوبيدي بسرعة. وفي الوقت الذي ظهر فيه المجلد الثاني في ١٧٥٢، كان الجزويت ساخطين جداً على ما اعتبروه سلوكاً ينم عن عدم احترام للمقدسات بشكل واضح، الأمر الذي جعلهم يطالبون الملك لويس الخامس عشر بإصدار تحريم ملكي. في ما بعد، واحدة من بنات الملك سقطت صريعة مرض مميت، فأقنع قس الاعتراف أباها بأن((الله قد ينجيها إذا ما قام الملك، كرمز للتقوى، بحظر

الانسيكلوبيدي)). امتثل الملك للأمر، لكن نشر الانسيكلوبيدي استؤنف بعد عام، بفضل جهود "المدير الملكي للنشر"(أشبه بوزير الاتصالات)، المتنوّر لامانيون دو ماليشرب، الذي تجاوز ذلك باقتراحه على ديدرو أن يُخفي مخطوطة المجلد التالي في منزل ماليشرب الخاص حتى يهدأ النزاع.

بالرغم من أن ديدرو لم يشر بصراحة إلى"المكان"في مشروعه، إلا أن فكرة أن المعرفة تحتل مكاناً مادياً كانت مفهومة ضمناً. تجميع المعرفة المتناثرة هي، بالنسبة لديدرو، يتم بوضع تلك المعرفة على صفحة، والصفحة بين غلافي كتاب، والكتاب على رف مكتبة. أي انسيكلوبيدي هي، من بين أشياء أخرى، وسيلة لتوفير المكان، لأن المكتبة مقسّمة بشكل لا نهائي إلى كتب تتطلب مكاناً دائم التوسع قد يأخذ أبعاداً كابوسية. ثمة حكاية تقول، إن سارة ونتشستر، أرملة صانع البنادق الشهير، الذي((انتصر الغرب)) ببنادقه، قد أخبرها وسيط روحي بأنه طالما استمرّت عمليات البناء في بيتها في كاليفورنيا، فإن أرواح الهنود الحمر القتلى ببنادق زوجها ستهدأ. بعدئذ نما المنزل ونما، مثل شيء في حلم، حتى غطت المئة والستون من غرفه مساحة ستة أكرات من الأرض، وهذا الوحش ما زال رابضا في قلب منطقة سيليكون فالي. كل مكتبة تعاني من هذا الحافز للنمو، كي تهدّئ أرواحنا الأدبية، ((الموتى القدامى الذين يُبعثون من الكتب ليتحدثوا إلينا)) (كما يصفهم سينيكا في القرن الأول بعد الميلاد)، وتعاني التفرّع حد الانتفاخ حتى تشتمل، في آخر يوم لا يمكن تصوره، على كل كتاب كُتب يوماً عن أي موضوع يمكن تخيله.

في ظهيرة يوم حار في نهاية القرن التاسع عشر، التقى مصادفة موظفان في منتصف العمر على دكة في حديقة بولفار بوردون في باريس، وانعقدت فوراً أواصر الصداقة بينهما. بوفار وبيكوشيه(اسمان روائيان أطلقهما غوستاف فلوبير على بطليه الكوميديين) اكتشفا أثناء صداقتهما هدفاً مشتركاً: ملاحقة المعرفة الكونية. لبلوغ هذا الهدف الطموح، الذي يبدو إنجاز ديدرو بجانبه متواضعاً على نحو مضحك، حاولا قراءة كل ما يمكنهما إيجاده عن كل

فرع من الإنجاز البشري، وأن ينتخبا من قراءاتهم أكثر الحقائق والأفكار بروزاً. مشروع كان، بالطبع، لامتناهيا. نشرت، على نحو ملائم، "بوفار وبيكوشيه" غير منتهية بعد وفاة فلوبير بعام واحد في ١٨٨٠، ولكن ليس قبل أن يقرأ هذا المستكشفان الشجاعان، خلال رحلاتهما بين مكتبات علمية، كل شيءعن الزراعة والأدب وتربية الحيوانات الداجنة والطب وعلم الآثار والسياسة، ودائماً مع نتائج مخيبة. ما توصل إليه مهرّجا فلوبير هو ما نعرفه دائماً لكننا نادراً ما نصدقه: بأن تراكم المعرفة ليس معرفة.

طموح بوفار وبيكوشيه صار الآن واقعاً، إذ تبدو الآن كل المعرفة في العالم بانتظارنا، وهي تتراقص على الشاشة المغوية. خورخه لويس بورخس، الذي تخيل يوماً مكتبة لا متناهية لكل الكتب المحتمل وجودها، اخترع أيضاً مثال بوفار- بيكوشيه حين حاول أن يجمع انسيكلوبيديا كونية مكتملة، حيث لا شيء في العالم سيكون مقصياً عنها. في النهاية، مثل سلفيه الفرنسيَين، فشل بورخس في مسعاه، لكن ليس بشكل كلي. في المساء الذي تخلى فيه عن مشروعه العظيم، استأجر حصاناً وعربة صغيرة بمقعد واحد، وقام بجولة في المدينة. إنه يرى جدرانا قرميدية، أناساً عاديين، منازلاً، نهراً، سوقاً، ويشعر، بطريقة ما، أن كل هذه الأشياء هي من صميم عمله. إنه يدرك أن مشروعه لم يكن مستحيلاً، لكنه وافر فحسب. انسيكلوبيديا العالم، المكتبة الكونية، موجودتان، وهما العالم نفسه.

المكتبة سلطة

"ليس هناك مكان يمنح اليقين الراسخ بتفاهة الآمال البشرية، أكثر من مكتبة عامة."

سامويل جونسون، في " الجوّال " ٢٣ آذار ١٧٥١

قوة القرّاء لا تكمن في قدرتهم على جمع المعلومات، أو في قابليتهم في الترتيب والفهرسة، بل في موهبتهم في تفسير وتوحيد وتحويل ما يقرأون. في المدارس التلمودية، كما في مدارس الإسلام، طالب العلم بمقدوره تحويل الإيمان الديني إلى قوة فاعلة من خلال موهبة القراءة، حيث إن المعرفة المكتسبة من الكتب هي هبة من الله. وفقاً لحديث نبوي، أو طبقا لتقاليد الإسلام،((طالب علم واحد أقوى على الشيطان من ألف متعبد)). في ثقافات الكتب مثل هذه، لا تكمن المعرفة في تراكم النصوص أو المعلومات، ولا في مادة الكتاب نفسه، بل في التجربة المستقاة من الصفحة وتحويلها ثانية إلى تجربة، وفي الكلمات التي تنعكس في كلا العالم الخارجي وشخصية القارئ نفسه.

في القرن السابع عشر، قال غوتفريد فيلهلم لايبنتز، الرياضي والفيلسوف والقانوني الشهير، إن قيمة المكتبة تتحدد فقط بمحتواها والفائدة التي يجنيها القرّاء من هذا المحتوى، لا بأعداد مجلداتها أوندرة مقتنياتها النفيسة. إنه يقارن بين تأسيس مكتبة وكنيسة أو مدرسة، مكان للعلم والمعرفة، وحملة لجمع، على الأخص، العناوين العلمية، في حين يستبعد الكتب التي يعتبرها مجرد ديكور أو تسلية، فهي بلا نفع.((بحث عن العمارة أو مجموعة مجلات دورية))، كتب يقول،((لعلها أكثر قيمة من مئات كتب أدبية كلاسيكية)). وكان يفضل الكتب الصغيرة على تلك التي من القطع الأكبر لأنها توفر مكاناً

ولا تتطلب، كما يعتقد، التزيين والزخرفة. إنه يزعم بأن مهمة المكتبات هي تسهيل تبادل الأفكار بين طلاب المعرفة، وتخيل فكرة إنشاء منظمة وطنية مكتبية تساعد العلماء على معرفة الاكتشافات التي قام بها معاصروهم. في عام ١٦٩٠، عُين أميناً للمكتبة الدوقية، برونسفيك ـ لوينبرغ في هانوفر، وفي ما بعد أصبح أمينا لمكتبة مهمة هي هرزوغ أوغست ببليوتيك، في فولفنبويتل، وهو منصب ظل يشغله حتى مماته عام ١٧١٦. كان لايبنتز مسؤولاً عن نقل مجموعة فولفنبويتل من موقعها الأصلي إلى مبنى قدّر أنه مكان ملائم أكثر لإيواء الكتب، بسقف زجاجي يوفر إضاءة طبيعية، وعدة طوابق مزودة برفوف. مع هذا فإن البناء الخشبي للمبنى لم يكن يسمح بالتدفئة، وأولئك القرّاء الذين سعوا بشجاعة وراء الكلمات الحكيمة لكتب المكتبة خلال شهور فصل الشتاء، كانوا يرتجفون وأسنانهم تصطك من البرد.

بالرغم من رأي لايبنتز بأن المكتبة تقيَم بمحتواها فقط، فإن الكتب في حد ذاتها كان لها في أغلب الأحوال سلطة غير شرعية، والمكتبة كصرح كان يُنظَر لها، على نحو خرافي، كمعلم رمزي للسلطة. في رواية أميل زولا L`Assommoir، حين عُرض على شخص متحمس للامبراطور نابوليون الثالث كتاباً يصف الملك بالرجل الفاسق، صار الرجل المسكين عاجزا عن إيجاد الكلمات للدفاع عن مليكه، لأن((كل شئ موجود في كتاب، لذا لا يمكن إنكاره!)). حتى هذا اليوم، أي شئ صغير أو غير مهم له صلة بالفكر أو بكتب مقروءة أو غير مقروءة، مهما كانت قيمتها، فهو، في كثير من الأحوال، يوحي بخشوع ملهم. مجلدات ضخمة من المذكرات ما زالت تُؤلف من قبل هؤلاء الذين يتمنوا أن يراهم الناس عظماء، والمكتبات ما زالت تُقام من قبل السياسيين(وتسمى بأسمائهم)، هؤلاء الذين يشبهون ملوك ميزوبوتاميا، ويتمنوا أن يُذكروا كمصدر لهذه العظمة. في الولايات المتحدة، تشهد سلسلة المكتبات الرئاسية على هذه الرغبة بالخلود الفكري. في فرنسا،

تظهر كل سنة مجموعة من كتب الاعترافات، والذكريات السرّية أو حتى الروايات بيد قادة سياسيين بارزين. في العام ١٩٩٤، تجرّأ الرئيس الفرنسي السابق فاليري جيسكار ديستان على المطالبة بعضوية الأكاديمي فرنسيز، القاصرة على صفوة المفكرين الفرنسيين، بناء على رواية رومانسية ضئيلة، تدعى "الممر"، وقد تحقق له ما أراد. في الأرجنتين يتفاخر إيفيتا وخوان بيرون بسيرتيهما الذاتية ـ السياسية، التي يعلم الجميع بأن آخرين كتباها لهما. بأمل تبديد صورة الحاكم الأمي، دعا بيرون نفسه، في وقت مبكر من صعوده السياسي، إلى الأكاديمية الأرجنتينية للآداب ليلقي كلمة في الذكرى المئوية الرابعة لمولد سرفانتس، وهو الكاتب الذي لم يكلف بيرون نفسه يوما، كما اعترف هو بسخرية في ما بعد، بقراءة عمله، لكن كتبه ذات الأغلفة الجلدية والمزينة بحروف من ذهب تبرز خلفه في أغلب صوره الرسمية.

الملك آشوربانيبال، آخر الملوك الآشوريين المهمين، الذي حكم من عام ٦٦٨ حتى ٦٣٣ قبل الميلاد، كان مدركاً تماماً للرابطة بين الحاكم والكلمة المكتوبة. كان يزعم بأنه هو نفسه كاتب، بالرغم من أن((بين الملوك، أسلافي، ما من أحد تعلم هذا الفن)). مجموعته من الألواح الطينية، التي جُمعت في قصره في نينوى، كانت مخصصة لاستعماله الشخصي، مع هذا فقد كتب في مكان عنوان كل لوح ــ كي يقرأها الجميع ــ بأن القوة التي نشأت عن فن الحروف كانت في يده:

"قصر آشوربانيبال، ملك العالم، ملك الآشوريين، الذي يؤمن بآشور وننليل، والذي أعطاه نابو تاشميتو آذاناً صاغية، والذي وُهب نفاذ البصيرة... حكمة نابو، إشارات الكتابة، مهما كانت أعدادها المبتكرة، قد كتبتها على الألواح، ورتبت الألواح في سلاسل، وجمعتها، ولأجل تأملاتي وتلاواتي الملكية وضعتها في قصري".

بالرغم من أن آشوربانيبال، مثل حكام عديدين بعده، يفخر بموهبته(المزعومة)

ككاتب وقارئ، فإن أكثر ما يهمه بشكل واضح لم يكن تحوّل التجربة إلى تعلم، بل توحّد التمثيل الرمزي لسمات السلطة مع الكتب. في ظل مثل هؤلاء الحكام، ، لا تغدو المكتبات "معابد للتعلم"(كما هو المألوف)، بل معابد للمحسن، والمنشئ، والمعيل.



الملك العظيم آشوربانيبال، آخر ملوك آشور.

بعد قرون من آشوربانيبال، لم تتغير كثيراً القيمة الرمزية لإنشاء مكتبة. حتى في عصر النهضة، حين باتت المكتبات في أوربا عامة رسمياً (بداية مع مكتبة إمبروسيانا في ميلانو عام ١٦٠٩)، بقي امتياز تأسيس أو تمويل أو بناء مثل هذه المؤسسات من حق المحسن لا المجتمع. أصحاب الملايين السيئي الصيت والذين كونوا، في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، ثرواتهم من المصانع والمعامل والبنوك في الولايات المتحدة، استخدموا أموالهم على نحو مواظب لبناء المدارس والمتاحف، وأهم من كل شئ، المكتبات، التي غدت، بعد أهميتها كمراكز ثقافية، نصُباً تذكارية لموليها.

((ما هي أفضل هدية يمكن تقديمها للمجتمع؟))يتساءل واحد من أشهر هؤلاء المحسنين، أندرو كارنيجي، في عام ١٨٩٠.((مكتبة مجانية تأتي في المقام الأول))، يقول مجيبا عن سؤاله بنفسه. لم يكن الجميع متفقاً مع هذا الرأي. في بريطانيا، على سبيل المثال، البديهية التي تقضي بأن((المكتبة العامة هي أساساً لصالح المجتمع))، لم يؤخذ بها رسمياً حتى العام ١٨٥٠، على أثر القانون الذي كان رفعه، في نهاية عام ١٨٣٢، عضو البرلمان عن دامفاير، وليام إيوارث، إلى البرلمان لإقرار الحق لكل مدينة بامتلاك مكتبة عامة مجانية، وتساءل حينها توماس كارلايل بغضب،((لماذا ليس هناك مكتبة صاحبة الجلالة في كل مدينة إقليمية؟ مثلما هناك سجن صاحبة الجلالة ومشنقة صاحبة الجلالة في كل مكان!)).

قصة أندرو كارنيجي لا تسمح باستنتاجات بسيطة. علاقته بالثروة وثقافة الكتاب كانت معقدة ومتناقضة. برغم انه كان دؤوبا في سعيه إلى الربح المادي، إلا أنه تبرع تقريباً بتسعين بالمئة من ثروته الضخمة لتمويل كل أنواع المنشآت العامة، بما فيها أكثر من ٢٥٠٠ مكتبة في درزينة من الأقطار التي تتحدث الانكليزية، من موطنه الأصلي اسكتلندا حتى جزر فيجي وسيشيل. كان يبجل المساعي الفكرية لكنه لا يحبها((المكتبة العامة كانت معبده))، كتب واحد من كتّاب سيرته،((و"رسائل إلى المحرر" عمود اعترافه)). كان قاسياً في معاملة شغيلته، لكنه أنشأ قائمة خاصة برواتب تقاعدية لأكثر من أربعمئة فنان وشاعر وعالم، من بينهم والت ويتمن، الذي وصف المحسن إليه بأنه مصدر((للإرادة الحسنة الأكثر لطفاً)). وبالرغم من أنه كان يؤمن بقدسية الرأسمالية(التي يدعوها بـ "إنجيل الثروة")، مع هذا كان يؤكد بأن((الرجل العامل هو مواطن أكثر نفعاً واحتراماً من أمير عاطل)).

بدايات كارنيجي، كما كان هو نفسه يذكّر سامعه على الفور، كانت فقيرة بشكل يائس. رجلان كان لهما التأثير الأكبر على طفولته في اسكتلندا.

أحدهما كان والده، حائك ماهر للقماش الدمقسي، الذي أمست مهارته فائضة عن الحاجة بدخول تكنولوجيا التصنيع الجديد للثورة الصناعية. كان ويل كارنيجي، كما قيل عنه، رجلاً ذا مخيلة، فقد وجد وقتاً، بالرغم من اضطراره للعمل من عشرة إلى اثنتي عشرة ساعة في اليوم، لإنشاء مكتبة مشتركة مع رفاقه الحائكين في دنفرملاين، وهو فعل ينم عن شجاعة ما لبث أن خلّف أثراً قويا في نفس ولده. أما الآخر فكان خاله، توم موريسون، داعية للتوزيع العادل للأراضي الزراعية، وللمعارضة اللاعنفية ضد استغلال الصناعيين، وبشّر بنهاية ما دعاه النظام الإقطاعي في اسكتلندا.((دستورنا))، كما دعا،((كل فرد سيتملّك، والكل سيتمتع. مبدأنا، هو حقوق كونية متساوية. و قانوننا للأرض، كل رجل هو سيد، وكل امرأة سيدة، وكل طفل وريث)). اعتقل الخال توم، أثناء واحد من أعمال الشغب ضد أصحاب مصانع الكتان الكبار، الذين هددوا، ثانية، بقطع أجور الحائكين. بالرغم من أنه لم تُوَجه إليه تهمة رسمية، إلا أن الحادث ترك أثرا عميقا على الفتى كارنيجي، مع هذا ليس إلى حد تشويه آداب مهنته. بعد سنوات، علّق في مكتبه الإعلان المؤطر بالتهم الرسمية، داعياً إياه "عنوان النبالة". من تجارب مثل هذه، قال كارنيجي، تطوّر((الى شاب جمهوري عنيف، شعاره كان "الموت للامتيازات.")) مع ذلك، حين صار لكارنيجي مصانعه ومعامله الخاصة في بيتسبرغ، كان يجبر عماله على العمل سبعة أيام في الاسبوع، عدا أعياد الميلاد وعيد الاستقلال، وكانت أجورهم زهيدة، واضطرّوا للعيش في مجمعات سكنية غير صحية، حيث تجري مياه البواليع إلى جنب أنابيب مياه الشرب. خمس رجال كارنيجي ماتوا بسبب حوادث العمل.

في عام ١٨٤٨، حين كان كارنيجي لم يتجاوز الثالثة عشر من العمر، أمسى والديه معدمين. وللهرب من المجاعة، هاجروا إلى الولايات المتحدة، وبعد رحلة شاقة، استقروا في بيتسبرغ، حيث اكتشفوا أن مهنة الحياكة ليست أفضل حالاً مما هي في الوطن. أخيراً وجد الفتى كارنيجي عملاً، أولاً في شركة

أتلانتك أند أوهايو تلغراف، ومن ثم في بنسلفانيا ريلرود. كان العمل في مكاتب السكك الحديد ينتهي مبكراً في المساء، متيحاً للفتى وقتا لـ((تقويم النفس)).

في مركز مدينة بتسبرغ، اكتشف كارنيجي مكتبة عامة مجانية كان أنشأها المدعو الكولونيل أندرسون((للصبيان المتهنين الذين لم تكن المدارس متاحة لهم)).((الكولونيل أندرسون فتح لي أبواب الغنى الفكري للعالم))، كما يذكر في ١٨٨٧.((أصبحت مولعاً بالقراءة، واستمتعت أسبوعا بعد أسبوع بالكتب. كان كدحي في العمل هيّنا، حيث أنهض في السادسة صباحا، راضياً بالعمل حتى السادسة مساء، لأن هناك دائماً كتاب ينتظرني لقراءته)).

لكن في عام ١٨٥٣ غيرت مكتبة أندرسون موقعها، وقررت الإدارة الجديدة فرض أجور دخول تبلغ دولارين على كل مرتادي المكتبة، عدا "المتهنين الحقيقيين"(هذا يعني، هؤلاء الملزمين بعقود مع مستخدميهم). شعر الفتى كارنيجي البالغ من العمر ستة عشرة عاماً، المتهن غير "الملزم" رسمياً، بأن هذا الإجراء غير عادل، وبعد مجادلات عقيمة مع أمين المكتبة، كتب رسالة مفتوحة إلى المحرر في صحيفة بيتسبرغ ديسباتش، ونشرت في ١٣ آيار ١٨٥٣:

السيد المحرر

أنا على يقين بأنك تولي عميق الاهتمام إلى كل ما يفضي إلى تهذيب وبناء وتطوير فتيان هذا البلد، لذا من واجبي أن ألفت انتباهك إلى التالي. لعلك تذكر أنه منذ بضع سنوات وضع مستر أندرسون(جنتلمان مدينتنا)وصيّة تضمنت تخصيص مبلغٍ كبيرٍ من المال لبناء ودعم مكتبة للفتيان العاملين والمتهنين المقيمين هنا. صارت هذه المكتبة مشروعاً ناجحاً لأكثر من عام، ناثرة بذوراً كريمة بيننا، وعلى الرغم من وقوعها((بجانب الطريق وفي مكان صخري،)) [كذا]، مع هذا فقد وجد البعض أنها واقعة في أرض جيدة. سُمح لكل الصبيان العاملين بالدخول مجاناً إلى المكتبة، وطلب منهم فقط كفالة والديهم أو الأوصياء عليهم. لكن عمل الخير هذا غدا مؤخراً مقيداً بشكل كبير من قبل المديرين

الجدد الذين رفضوا السماح لأي صبي لم يتعلم حرفة وغير ملزم بعقد للعمل وقتا معينا، بأن يصبح عضوا. أنا أفضل الإعتقاد بأن المدراء الجدد قد أساؤوا فهم قصد المتبرع الكريم. من العسير الظن بأنه قصد أن يطرد الصبيان العاملين في المحلات لمجرد انهم غير ملزمين.

فتى شغيل مع انه غير ملزم

بعد تبادل سريع للرسائل، دعا أمين المكتبة، بعد أن أنهكته الضغوط، إلى اجتماع مجلس الإدارة، وحسمت فيه المسألة في صالح الفتى. بالنسبة لكارنيجي، كانت المشكلة ما اعتبره هو نفسه "معاملة عادلة". وكما برهن هو في ما بعد مرّات عديدة، في أي مناقشة عن العدالة، أو أي مسألة عن الحقوق، أو أي جهد لتقويم النفس، ليس لها، بالنسبة إليه، أي وزن كبير، إلا إذا نجحت في النهاية بتحقيق أكبر قدر من المال والمزيد من السلطة لكارنيجي نفسه.((المال لا يقارَن بالسلطة))، كما قال لواحد من شركاء المهنة بعد خمسة وعشرين عاماً من ذلك.



كارنيجي يقدم وفاءه كـ " وحش موثوق به " للعم سام، كارتون من مجلة هاربرز ويكلي.

وفرت الولايات المتحدة في نهاية القرن التاسع عشر لكارنيجي استقراراً مثالياً لقناعاته الراسخة. في مناسبة معينة، دُعي إلى الحديث عن مكاسب المؤسسات الأمريكية مقارنة مع تلك التي في وطنه الأصلي اسكتلندا، وصف وطنه الجديد بـ((البلد المثالي لإنجاز الأعمال)). في الولايات المتحدة، كما يزعم،((العقل متحرر من التوقير الخرافي للتقاليد القديمة، وغير مروّع بالمظاهر والصيغ الفخمة عديمة المعنى)). وكما لاحظ كاتب سيرته بيتر كراس، أنه في وصف كارنيجي لليوتوبيا الأمريكية((لم تكن هناك إشارة إلى أعمال الشغب في مصانع القطن والفولاذ التي أجبرت فيها الشرطة الهنود على الرحيل، كما لم يشر بكلمة إلى العبودية، وإلى حقوق النساء في التصويت. كان لكارنيجي ذاكرة انتقائية، إذ كان يفضل تجاهل الجانب السفلي من أمريكا، كما فعل حين كوّن ملايينه في صناعة الفولاذ بينما عماله يموتون بالعشرات)).

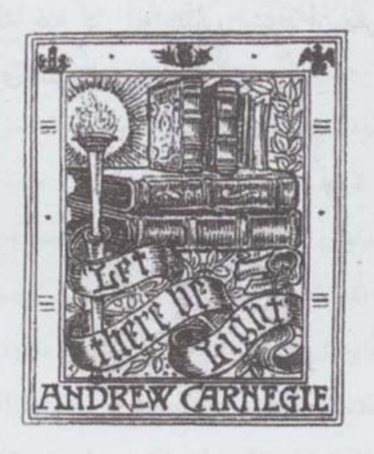
آمن كارنيجي بأن على الرجل أن يكون متحجر القلب إذا شاء أن يصبح غنياً، لكنه كان يؤمن أيضاً بأن مثل هذا الغنى يجب أن يوظَف في((تنوير روح))الجماعة التي يستغلها. وفقاً لمنتقديه، كانت المكتبات التي موّلها مجرد خطوات راسخة للتمجيد الشخصي. كان بالكاد ينفق مالاً على الكتب، فقط على المباني التي توضع فيها، وحتى هنا اشترط أن تقوم المدينة بتجهيز الموقع والتكفل بمصاريف صيانة المكتبة. أصرّ على أن تدار هذه المكتبات كما تدار معامله، ولن تكون هناك إستثناءات يمكن التساهل معها. كما لم يموّل مكتبات الولاية أو مكتبات الإشتراك، لأنهما تحصلان على تمويل بديل.((لقد اشترى الشهرة ودفع مقابلها نقداً))، كما قال مارك توين مرّة ساخراً.

وجه الكثيرون انتقادات إلى مكتبات كارنيجي بكونها لا ديمقراطية،

وحكموا عليها بأنها((مراكز لممارسة السيطرة الإجتماعية على الطبقات العاملة))، ((تفرض على القرّاء الأفكار والقيم الرأسمالية في محاولة للهيمنة على تفكيرهم وسلوكهم)). مهما كان الأمر، هذه المكتبات حققت هدفا هو أكثر من الهدف الذي سعى إليه كارنيجي في تعظيم الذات. حين طلب المعماري الذي صمم أول مكتبة لكارنيجي من المليونير شعار النبالة الخاص به ليتم نقشه فوق مدخل المبنى، إقترح كارنيجي، الذي لم يكن له مثل هذا الإمتياز، أن يضع بدلاً من ذلك شعاراً إستعارياً يمثل شمساً مشرقة محاطة بالكلمات "دعهم يتنوّرون". لعقود من السنين مثلت مكتبات كارنيجي تناقضاً ظاهرياً: نصُب لممولها، ومراكز ثقافية مثمرة ساعدت على يقظة الحياة الفكرية.

عشرات الكتّاب اعترفوا بفضل مكتبات كارنيجي عليهم. في كلمة التخرج لجون أبدايك، وهو يصف تجربته الخاصة كمراهق في مكتبة كارنيجي للقراءة في بنسلفانيا، يتحدث عن امتنانه للمكتبة بسبب((الحرية التي منحت لي في تلك السنوات التقويمية، التي تحدد ان كنا سنصبح قرّاء مدى الحياة أو لا)). ويختتم كلمته قائلاً، ((نوع من الفردوس فتح أبوابه لي هناك)). ايدورا ويلتي اقتفت آثار بداياتها في عالم الأدب في مكتبة كارنيجي في جاكسون، بالميسيسبي. هناك، وحسب شروط كارنيجي، يرهن التبرع بتعهد المدينة ضمان الصيانة والإدارة السلسة للمكتبة. أمينة المكتبة المسؤولة عن هذه المهمات كانت مسز كالواي. ((تديرمسز كالواي))، كما تذكر ويلتي، ((المكتبة بنفسها بشكل مطلق، من منضدتها حيث تجلس وهي تواجه السلالم وخلفها صفوف الكتب، تتطلع بعينيها الصقرية باب المدخل الأمامي، لتعرف أي نوع من الأشخاص يدخل مكتبتها. كلمة "الصمت" مكتوبة في حروف سوداء كبيرة على يافطات معلقة في كل

مكان.))كان لمسز كالواي قواعدها الخاصة بها حول استعارة الكتب.((لا يمكنك أن تعيد كتاباً في نفس اليوم الذي استعرته به، حيث لا يشكل فرقاً بالنسبة لها بأنك قرأت كل كلمة فيه وبحاجة أن تبدأ بكتاب آخر. ولا يمكنك أن تستعير أكثر من كتابين في المرّة الواحدة، وهذا ينطبق على الأطفال، كما على البالغين، لبقية حياتهم)). لكن هذه القواعد التعسفية لم تؤثر على شغف ويلتي بالقراءة، إذ كان ما يهمها هو أن شخصا ما(لم تكن تعرف من هو هذا المحسن البعيد)قد وضع أمامها هي شخصياً، كما اعتقدت، مجموعة نفيسة تحققت من خلالها في الحال((أمانيها المستبدة بالقراءة)).



علامة ملكية الكتاب التي تخص اندرو كارنيجي

قال الناقد الساخر أتش أل منكن محتجا:((اذهبْ إلى أقرب مكتبة من مكتبات كارنيجي، واستطلع هناك فهرس كتبها. ستكون نسبة الحظوظ خمسة إلى واحد بأن تجد مكاناً مليئاً بأدب الهراء وخلوا من الكتب الجيدة، مثل محل لبيع الكتب في بوسطن)). لكن بالنسبة لأكثر الكتّاب، حتى لو

كان صف الكتب لا يبدو كبير الجودة، فإن مجرد الدخول إلى مكان فيه كتب لا تعد ولاتحصى وتحت الطلب، هو وحده المتعة بعينها.((لقد أدركت بأن هذه كانت منتهى السعادة،))كتبت ويلتي،((عرفت في ذلك الحين أن التذوّق تقريباً ليس مهماً جداً، فهو يأتي في وقته. كنت أرغب بالقراءة وحدها، وكانت خشيتي الوحيدة من كتب تصل إلى نهايتها)).

ربما كارنيجي نفسه آمن بأن الأبنية التي أنفق عليها كانت دليلاً ((على جهودي في جعل الأرض أفضل قليلا مما هي عليه)). مهما كانت رغبته، فإن مكتباته لم تكن بالنسبة لمئات وألوف القرّاء دليلاً على أي عمل إيثاري أو أناني، أو على شهامة مليونير، بل قلعة فكرية ضرورية في قلب أي مجتمع مثقف، ومكان يمنح فيه كل المواطنين، بشرط أن يقرأوا، الحق الأساس بجعل أنفسهم((أقوى على الشيطان)).

لكن هذا هو ثمن الإستقرار الذي علينا دفعه. عليك أن تختار بين السعادة وما كان يدعوه الناس يوماً بالفن الرفيع. نحن ضحينا بالفن الرفيع.

الدوس هكسلي، عالم جديد رائع

نحن نحلم بمكتبة أدبية مبدعة من قبل الجميع ولا تنتمي إلى أحد، مكتبة خالدة وتضفي بشكل غامض نظاماً على الكون، مع هذا نحن نعرف بأن كل اختيار مرتب، وكل مملكة خيال مفهرسة، يؤديان إلى هرمية استبدادية للإقصاء. كل مكتبة هي إقصائية، ما دام اختيارها، مهما كان واسعاً، يُبعد خارج جدرانها رفوفاً لا نهائية من الكتب، لأسباب تخص الذوق، المعرفة، الزمان والمكان. كل مكتبة تستحضر أشباحها المظلمة الخاصة بها، فكل ترتيب ينشئ، تلقائياً، طيف مكتبة من كتب غائبة. من مسرحيات اسخيلوس التسعين لم يصلنا سوى سبعة، ومن ثمانين دراما فردية ليوريبيدس، فقط ثمانية عشر(اذا ما ضمناها "ريسوس"، المشكوك في مصدرها)، ومن المئة وعشرين مسرحية لسوفوكليس مجرد سبعة.

إذا كانت كل مكتبة، بمعنى من المعاني، انعكاسا لقرّائها، فإنها أيضاً صورة لما لم نكن عليه، ولن نقدر أن نكون عليه. حتى مع القيود الأشد صرامة، فإن أي اختيار للكتب سيكون أكبر من بطاقة تصنيفه، والقارئ المدقق سيرى خطراً (نافعاً أو مكروهاً) حتى في أكثر الأماكن آماناً وحماية. ربما إنه من الخطأ أن نعتبر المكتبة مكاناً شاملاً تماماً لكنه حيادي.((المراقبون))، كتب أرشيبالد ماكليش أثناء ما كان أميناً لمكتبة الكونغرس،((سواء تمنوا ذلك أم لا، لايمكنهم أن يكونوا حياديين)). كل مكتبة هي قبول ورفض في آن

واحد. كل مكتبة بالتعريف هي نتيجة الاختيار، وبالضرورة مقيدة بمداها. وكل اختيار يقصي الآخر، الاختيار الذي لم يتم. فعل القراءة يوازي على نحو أزلي فعل الرقابة.



محرقة الكتب في وارشو، انديانا.

هذه الرقابة الضمنية بدأت مع مكتبات ميزوبوتاميا الأكثر قدماً، التي نعرفها في بداية الألفية الثالثة قبل الميلاد. بخلاف الأرشيفات الرسمية، التي أنشئت لحفظ الصفقات اليومية والتعاملات الراهنة لنخبة معينة، جمعت هذه المكتبات أعمالاً طبيعية أكثر عمومية، مثل الأعمال التي تدعى النقوش الملكية(ألواح تذكارية من الحجر أو المعدن تعيد رواية الأحداث السياسية المهمة، وهي مماثلة للمنشورات التي ظهرت في أوربا القرن السابع عشر، أو

الكتب الأكثر رواجاً Bestsellers في الوقت الحاضر). في جميع الاحتمالات كانت هذه المكتبات ملكية خاصة، أماكن شخصية أنشئت بواسطة محبي الكلمة المكتوبة، الذين كانوا في أغلب الأحوال يطلبون من الناسخين كتابة اسم المالك على الألواح كإشارة للملكية. حتى المكتبات المرفقة بمعابد تحمل عادة اسم الراهب الأكبر، أو شخصية أخرى مهمة، الذي يكون مسؤولا عن مجموعة الألواح. لأجل الحفاظ على الترتيب الذي وضع بطرق معينة في الحفظ والفهرسة، تضع مكتبات معينة تحذيراً على صفحة العنوان في ألواحها لمنع أي شخص يفكر بالعبث بالترتيب. هناك موسوعة من القرن السابع قبل الميلاد تحمل هذا الابتهال: ((لتحل بركة عشتار على القارئ الذي لا يغير شيئاً في هذا الألواح ولاينقلها إلى مكان آخر في المكتبة، وليحل سخطها على الذي يجرؤ على إختلاسها من هذا المبنى)). لقد وضعت هذا التحذير على جدار مكتبتي الخاصة كي أبعد المقتحمين الليليين.

أغلب مالكي هذه المجموعات كانوا من الدم الملكي، وقد ملؤوا مكتباتهم عبر الغنائم وبوساطة أشخاص آخرين يشتروها لهم. كي يضاعف الملك آشوربانيبال مجموعة مكتبته، الكبيرة في الأصل، قيل إنه كان يرسل ممثلين عنه إلى أرجاء مملكته الواسعة للبحث عن أي كتب قد تكون مفقودة. لم يكن له مبدأ إرشادي محدد بالفئات(فرض في ما بعد على المجموعة)، لكن خزينا كيفما اتفق لأي شئ يقع تحت يده. لدينا رسالة يأمر فيها آشوربانيبال، بعد إعداد قائمة بالكتب التي يبحث عنها، بوجوب تنفيذ المهمة بلا إبطاء((اعثروا عليها وأرسلوها الي. لا ينبغي أن يعوقكم شيئا. وفي المستقبل، إذا ما اكتشفتم ألواحاً أخرى لم يشر إليها هنا، إفحصوها، وإذا قدرتم أنها مهمة للمكتبة، اجمعوها وأرسلوها إلي)). نزوة مشابهة تماماً فرضت على تأليف قوائم وفهارس المكتبات الأخرى في ميزوبوتاميا. في تعليقه على مسلّة

حمورابي الشهيرة، التي تتضمن موجزا للقوانين في القرن الثامن قبل الميلاد، يؤكد المؤرخ جان بوتيرو على حقيقة أن القوائم لا تشتمل فقط على((الواقع العام والملاحظ، بل الاستثنائي والشاذ: في النهاية كل ماهو محتمل)).

بالرغم من أن مكتبة مثل مكتبة آشوربانيبال تلك، كانت تعبيراً ظاهراً عن القوة الدنيوية، فما من شخص واحد، مهما كان ملكيا، بوسعه قراءتها كلها. لقراءة كل كتاب واستيعاب كل المعلومات، جنّد الملك عيون وسواعد أخرى لدراسة الألواح الطينية وإيجاز محتواها، بحيث يمكنه بقراءة هذه الإيجازات أن يفخر بأنه على معرفة بكل ما تحتويه المكتبة. العلماء ينتزعون اللحم من النص((مثل البجعات))، ومن ثم يقذفون به ثانية لمنفعة الآخرين.

بعد آشوربانيبال بأربعة قرون، في النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد، اثنان من الأمناء الرئيسيين لمكتبة الإسكندرية، أريستوفانيس البيزنطي، ومريده أريستاركوس الساموثراسي، قررا مساعدة قرّائهم بنفس الطريقة. لم يقوموا باختيار وشرح كل أنواع الأعمال المهمة فحسب، بل إنهم شرعوا أيضاً بتأليف فهرس للمؤلفين الذين كانوا حسب رأيهم يبزون الآخرين بالتفوق الأدبي. وكانت أهلية هذين العالمين لا تشوبها شائبة. حرّر أريستوفانيس أعمال هوميروس وهسيودس، وفي تحريره للأخير أضاف ملاحظات نقدية موجزة، ضمّن فيها قائمة بكتّاب آخرين تناولوا مواضيع مشابهة، وهي الملاحظات التي عرفت باسم "هيبوثيسيس"، وكان معلق عليها بشكل أساسي بحواشي ببليوغرافية(تخص علوم المكتبات)، تتيح للقرّاء إلقاء نظرة سريعة ودقيقة على الموضوع المعني. حرّر اريستاركوس أيضاً أعمال هوميروس، بدقة بالغة وأسطورية، بحيث إن أي نقد دقيق تبعه أضحى يُعرف باسم "نقد اريستاركوس". هذه القوائم لـ " أفضل المؤلفين "(دعاها ديفيد رونكن، بعد ألفي سنة تقريبا، بـ "القوانين")نُسخت بشكل

جيد في العصور الوسطى وعصر النهضة، ومنحت للمؤلفين الذين تضمهم خلوداً أدبياً، لأن أعمالهم كانت مطلوبة وموضع دراسة على نحو مواظب. من جانب آخر، اعتبر المؤلفين غير الموحودين في هذه القوائم غير جديرين بالاهتمام فتلاشوا في الرماد وطواهم النسيان. هذا الفهرس الطويل، غير المكتوب، والذي يضم المؤلفين الذين أهملوا يطاردنا بغيابه.



كارتون معاصر يصور محرقة الكتب في المانيا النازية.

ثقل الغياب هو ميزة كل مكتبة، مثل ميزة التقيد بالترتيب أو المكان على حد سواء. في مكتبة مدرستي كوليجيو ناسيونال دي بوينس آيرس،

كنا نشعر به خلف الأبواب الخشبية المهيبة، وفي العتمة المرحبة، وتحت الأضواء الخضراء الخافتة، التي تذكرني بأضواء غرفة نوم في عربة سيارة مقطورة. تبدو المكتبة، فوق السلم المرمري، أو على الأرضية القرميدية، وبين الأعمدة الرمادية، مثل كون موازي، مخيف ومريح في آن واحد، عاشت فيه قصتي مغامرات أخرى وعرفت نهايات أخرى. الأهم من كل هذا، انه كان غيابا(لكتب بذيئة، خطرة، محرّضة)فتح فجوة في القاعات المعتمة ونفذ من الرفوف التي لا تحصى من الكتب صاعدا نحو السقف.

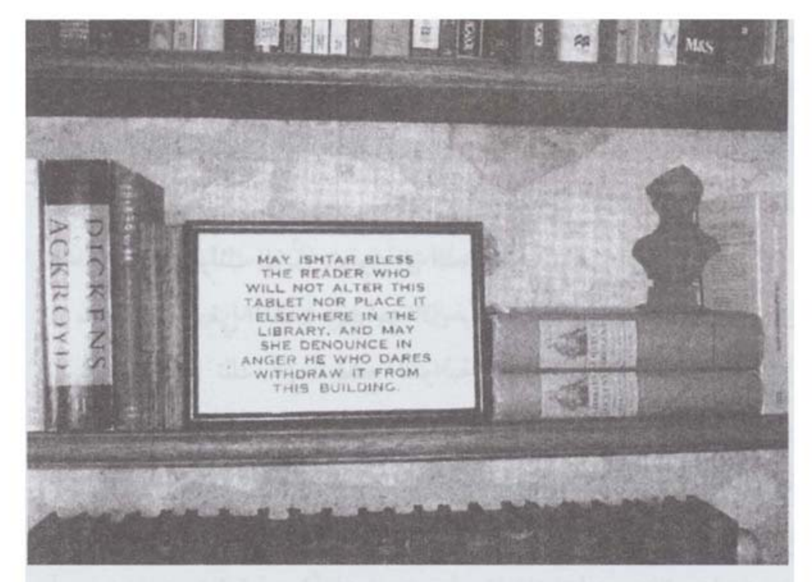
بالرغم من هذا العديد من العناوين البريئة كما يبدو تضلل العين الناقدة لأمين المكتبة. أذكر، في الصمت المكسور بوشوشة الأحاديث المهموسة، صفحات كانت تُفتَح عفويا في كتاب معين: لوركا Romancero Gitano، في صفحات "العر وس الخائنة"، أو La Celestina في مشهد الماخور، أو كورتازار Los Primios في الفصل الذي يتم فيه إغواء صبي على يد بحار شرير. معرفة كيف وجدت هذه النصوص المحرّمة طريقها إلى مكتبتنا المدققة والكثيرة الوساوس، كان لغزاً بالنسبة لنا، وكنا نتساءل كم سيدوم الأمر قبل أن يكتشف المكتبي بأن تحت أنفه جيلا بعد جيل قابل للفساد من التلاميذ ملأوا الغياب على رفوفه بقراءتهم بشكل انتقائي هذه الكتب الفضائحية.

إنه من المحتمل، كما يقول بريمو ليفي في مذكراته، أن المهمة غير المعلنة للمكتبيين هي التأكد فقط بأن تلك الرغبات الحقة التي تجد سبيلها إلى الكتب هي التي يجوز أن تبقى في الحرم المقدس. وفقاً لليفي، كانت مكتبة المعهد الكيميائي في تورينو في ١٩٣٠

"في ذلك الوقت، مثل مكة، لا ينفذ إليها الكفار، وحتى على مؤمن مثلي أنا من العسير اختراقها. ساد الانطباع بأنه كان لدى الإدارة مبدأ حكيما يقضي بأن من الخير أن يُثبَط كل اهتمام بالفنون والعلوم: فقط الشخص المكره

بسبب ضرورة مطلقة، أو بدافع هوى غامر، سيخضع نفسه طوعياً لتجارب من نكران الذات التي تتطلبها مراجعة الكتب. أوقات الافتتاح، في هذه المكتبة، كانت قصيرة وغير منتظمة، وفي الشتاء ليس هناك تدفئة، وأخيراً أمين المكتبة لم يكن كفوءاً، كان وقحاً، ريفياً بقباحة استثنائية، يقف عند المدخل ليرهب أولئك الذين يتوقون إلى الدخول بمظهره وصوته المزمجر".

مثل مكتبة ليفي الفظة، وبدرجة أقل مثل مكتبة مدرستي الرادعة، كل مكتبة، بما فيها تلك التي تخضع للمراقبة الأشد صرامة، تحتوي، بشكل سرّي، على نصوص متمرّدة أفلتت من عين المكتبي. كسجين في معسكر روسي قرب الدائرة القطبية يقضي، ما يدعوه((وقتي الخاص في الشمال))، قرأ جوزيف برودسكي أشعار دبليو أتش أودن، التي رسخت تصميمه على تحدي سجانيه وأبقته حياً في سبيل بصيص من الأمل بالحرية. هارولد كونتي، الذي عُذب في زنازين الطغمة العسكرية في الأرجنتين في سنوات السبعين، وجد سلوانه في روايات ديكنز، التي سمح له سجانه بالاحتفاظ بها. فارلام شالاموف، الذي حكم عليه ستالين بالعمل في مناجم الذهب في موليما بسبب((نشاطاته المضادة للثورة))، كانت مكتبة السجن بالنسبة إليه هي منجم الذهب نفسه، والتي((لأسباب مبهمة، أفلتت من إجراءات التفتيش التي لا تحصى، وعمليات "التطهير" التي أبتليت بها بشكل منظم كل مكتبات روسيا)). على رفوفها البائسة وجد شالاموف كنوزا غير متوقعة، مثل كتابات بولغاكوف وأشعار مايكوفسكي.((كان الأمر))، يقول،((كما لو ان السلطات رغبت في أن تمنح السجناء عزاء في دربهم الطويل الذي ينتظرهم في نهايته جبل الجلجلة. كما لو أنهم فكروا: "لماذا نراقب هؤلاء المدانين؟")).



إشارة التحذير في المكتبة في لو برسبيتير.

في بعض الأحيان، يواجه هؤلاء الذين أخذوا على عاتقهم مهمة حراسة المدخل المؤدي إلى الرفوف المتراصة للمكتبة خطراً لا يراه الآخرون. أثناء ملاحقة "العناصر المخربة" في حقبة النظم العسكرية في الأرجنتين والأورغواي وتشيلي في السبعينيات، كان يقبض على أي شخص لديه كتبا "مشبوهة" ويسجن بدون محاكمة. "مشبوهة" كانت أشعار نيرودا وناظم حكمت(الاثنان شيوعيان)، روايات تولستوي ودوستويفسكي(الاثنان روسيان)، وأي كتاب بكلمات خطرة في عنوانه، مثل رواية ستاندال "الأحمر والأسود"، أو الرواية الكلاسيكية اليابانية من القرن السادس عشر "الحب الرفاقي بين الساموراي". كثير من الناس، خوفا من غارات بوليسية مباغتة، أحرقوا مكتباتهم بإشعال موقد في أحواض مراحيضهم، وانتابت الحيرة السمكريون الذين كانوا لا يفهمون سبب الكسور التي شاعت بشكل وبائي في مقاعد التواليت(حرارة الورق المحروق تسبب تشقق البورسلين).((لقد شاهده أطفاله يحرق كتبه))،

بهذه الكلمات يصف الروائي جيرمان غارسيا الجيل الذي تعرض إلى القتل والتعذيب أو الإكراه على النفي.

بإمكان هؤلاء الذين بيدهم السلطة أن يحظروا كتباً لدوافع متباينة. حالة شهيرة هي الجنرال بينوشيت، الذي أبعد "دون كيخوته" من مكتبات تشيلي لأنه قرأ في هذه الرواية مناقشة عن عصيان مدني. قبل عدة سنوات، اعترض وزير الثقافة الياباني على " بينوكيو " لأنها تظهر صورا انتقادية للناس المعاقين، في شخصيات القط الذي يدّعي أنه أعمى، والثعلب الذي يدّعي أنه أعرج. في آذار ٢٠٠٣، زعم الكاردينال جوزيف راتزنغر(الذي أصبح البابا بنيدكت السادس عشر)بأن ((كتب "هاري بوتر" تشوه بعمق المسيحية في الروح قبل أن يتسنى لها أن تنمو تماماً)). أسباب فردية أخرى وردت لحظر كل أنواع الكتب، من "ساحر أوز"(مرتع للوثنية) إلى The Catcher in the Rye(نموذج خطر لدور المراهقين). في كلمات وليام بليك:

"معا نقرا الكتاب المقدس ليلاً ونهاراً،
لكني أقرأه أبيض بينما تقرأه أنت أسودا".

كما قلت سابقاً، كل مكتبة، بوجودها المطلق، تستحضر بديلها المحرّم، والمنسي: غير مرئية إلا أنها مكتبة هائلة للكتب التي، لأسباب مبتذلة تخص النوعية ومحتوى الموضوع أو حتى الحجم، اعتبرت غير صالحة على أن تقيم تحت سقف معين.

عند نهاية القرن السادس عشر، نشر الجزويتي المتشدد جاكوب غريتسر كتيباً دفاعاً عن الرقابة تحت هذا العنوان الصريح: " عن القوانين والأعراف التي تخص تحريم، وتشذيب وتدمير الكتب الهرطوقية والضارّة". المعرفة الموسوعية لغريتسر قادته إلى منصب مستشار الكنيسة الكاثوليكية عندما وضعت " لائحة الكتب الممنوعة " في مدريد عام ١٦١٢، وقد استخدم نفس

المعرفة الموسوعية لدعم حجته(الواضحة للكثيرين)بأن الرقابة على الكتب هي أمر عادي لكل الناس في كل الأزمان. سلالة غريتسر الشائنة بدأت مع الوثنيين الذين أحرقوا رسالة تشيشيرو " عن طبيعة الآلهة "(لأنها كانت ذات ميول شديدة للتوحيد، وفقاً لقصة قديمة، ولم تثبت صحتها)، الأمر الذي مهد السبيل لمحرقة كتب أتباع لوثر وكالفن. لو أُتيح لغريتسر رؤية المستقبل، ربما كان سيضيف إلى قائمته الكتب "المنحطة" التي أُدينت بالمحرقة على أيدي النازيين، وأعمال الكتّاب "البرجوازيين" التي أحرقها ستالين، وكتب " المؤلفين الشيوعيين التافهين " الذين حظرهم السناتور ماكارثي، والكتب التي أتلفها طالبان، وفيدل كاسترو، وحكومة كوريا الشمالية، والمسؤولين في الجمارك الكندية. كتاب غريتسر هو في الواقع التاريخ غير المعترف به لهاته المكتبات الهائلة التي تهمس لنا من بين الفجوات التي في رفوف الكتب.

أشرت سابقاً إلى الخرافة التي تتحدث عن اتهام عمْرو بن العاص، بأمر من الخليفة عمَر، بإحراق كتب الإسكندرية. جواب عمر، المشكوك بصحته، يستحق هنا أن نستشهد به، لأنه يعكس المنطق الغريب لكل حارق كتاب في كل عصر. يقال إنه أعطى أمراً بهذه الكلمات:((إذا كانت محتويات الكتب تتفق مع كتاب الله، فهي لاتضيف شيئاً ومن ثم فهي فائضة عن الحاجة. وإذا لم تتفق فهي غير مرغوبة. في كلا الحالين فإن مصيرها يجب أن يكون النار)). ما يشير إليه الخليفة عمر هنا، وهي حقيقة إلى حد ما، هي المرونة الجوهرية للأدب. لهذا السبب، ما من مكتبة تبنى لتكون ما هي عليه، وقدر المكتبة في غالب الأحوال لا يقرَرْ بواسطة أولئك الذين ابتدعوها لمزاياها، بل هؤلاء الذين يتمنون تدميرها لأخطائها المفترضة.

هذه هي حقيقة الأدب المحلي لسكان القارة الأمريكية الأصليين، الذي لم يصلنا منه إلا النزر اليسير. في المكسيك وأمريكا الوسطى، بوجه خاص،

دمرت بشكل منظم المكتبات الكبيرة وأرشيف شعوب ما قبل كولومبس على يد الأوربيين، لتجريدهم من هويتهم وهدايتهم إلى دين المسيح في آن واحد. يحكي لنا الشاعر الأسترالي أي دي هوب قصة إحراق الفاتحين الإسبان لكتب المايا:

ديبغو دي لاندا، رئيس أساقفة يوكاتان
ـ لعنة الله على روحه التقية ـ
حكم على كتبهم، التي فيها صورة الشيطان، بالتحريم
وكدسها في ركام من الخطيئة، وأحرقها جميعاً،
لكنه تجشم عناء الاحتفاظ بالتقويم
الذي علمهم به الشيطان حساب الوقت.
يبدو أن هذه النفوس الآثمة تعلمت الحساب قديماً
قبل تسعين مليون سنة من جريمة حوّاء.
كان ذلك كافياً: أحرقوا كتب المايا،
أنقذوا أرواحهم، وصارت نفوسهم طاهرة.
ديبغو دي لاندا في السماء لايني
ينظر إلى الرب: الرب يأبى النظر إليه.

معاصر ديبغو دي لاندا، الراهب خوان دي زوماراغا،((اسم يجب أن يخلد مثلما خلد اسم عمر،))كما قال وليام بريسكوت في كتابه الكلاسيكي " البحث عن المكسيك ". فهو فعل الشيء نفسه مع كتب شعوب الأزتيك. ولد زوماراغا في دورانغو، في إسبانيا، في عام ١٤٦٨، وتلقى علومه في دير الفرنسيسكان في أرانزازو، في إقليم الباسك. عيّن في " المكتب الأكثر قداسة " لمحكمة التفتيش، وتسلم أول مهمة تفتيشية له من الامبراطور شارل الخامس((لمطاردة الساحرات في بيسكاي))، في الشمال الإسباني. أثبت

زوماراغا قدراته بنجاح، فاختير بعد فترة قصيرة من ذلك لمنصب نائب الملك في المكسيك كأسقف منتخب. في ١٥٤٧، توّجه البابا بول الثاني أول رئيس أساقفة في المكسيك.



نقش من القرن التاسع عشر مأخوذ من بورتريه من القرن السادس عشر لرئيس الأساقفة خوان دي زوماراغا.

قضى زوماراغا سبع سنوات رئيسا لمحكمة التفتيش المكسيكية من ١٥٣٦ حتى ١٥٤٣، وهي الفترة التي ألف فيها كتاباً اشتمل على خلاصة العقيدة الدينية للمعتنقين الجدد من السكان الأصليين، وكتيب وجيز عن التعاليم المسيحية لاستخدامه في المهمات التبشيرية، وأشرف على ترجمة الكتاب المقدس في عدد من اللغات المحلية، وأسس مدرسة كوليجيو دي سانتا كروز في تلال تيلولكو، ليتعلم فيها أبناء الوجهاء من السكان الأصليين اللغة اللاتينية والفلسفة وعلم البلاغة والمنطق، كي يصبحوا((مسيحيين أخيار)).

اسم زوماراغا، على أي حال، ارتبط بشكل رئيسي بحدثين أثرا بعمق بالتاريخ المكسيكي: كان مسؤولاً عن تأسيس أول مطبعة في العالم الجديد، وعن تدمير أكثر أدب امبراطورية الأزتيك الواسع.

كان زوماراغا اقتنع ولفترة طويلة بالحاجة لطبع الكتب محلياً، تلك الكتب المطلوبة لهداية السكان الأصليين، لأنه أحس أنه من الصعوبة السيطرة، عبر المحيط، على دقة الترجمة إلى اللغات المحلية، وعلى محتوى الكتب المذهبية الموجهة لهؤلاء الناس. في عام ١٥٣٣، في واحد من رحلات العودة إلى اسبانيا، زار عدة مطبعيين في إشبيلية للعثور على واحد منهم يساعده في إنشاء مطبعة في المكسيك. فوجد شريكه في شخص جاكوب كرومبرغر، وهو يهودي متحول إلى الديانة المسيحية، وله تجربة طويلة في طبع الكتب، وكان يرغب بالاستثمار بمشاريع فيما وراء البحار، وكان يحتاج أن يوفر((آلة طباعة، حبر، مجموعة حروف مطبعية، ورق، بالإضافة إلى أدوات أخرى تحتاجها الحرفة، كل هذه يقدر ثمنها بمئة ألف مارافيديس))، وأن يرسل ممثلاً له واحداً من مساعديه، إيطالي يدعى خوان بابلوس أو جيوفاني باولي.

طرق الرقابة كانت غامضة. كان واجب زوماراغا كمفتش البحث عن كل هؤلاء الذين يحسَبون من أعداء الكنيسة الكاثوليكية ـ وثنيون، زناة، تجديفيون، ساحرات، لوثريون، مسلمون ويهود ـ ومعاقبتهم، وقد فعل ذلك بضراوة غير عادية. اليهود المتحولون، منذ زمن كولومبس، كان لا يسمح لهم بالإقامة في المستعمرات. لكن بما أن رأس المال المطلوب في إنشاء الأعمال في العالم الجديد كان في الغالب في أيدي اليهود والمسلمين المتحولين، فقد أصبحت الهجرة غير القانونية شائعة في السنوات المبكرة من القرن السادس عشر، وبحلول العام ١٥٣٦، كانت هناك جالية يهودية ضخمة في المكسيك. أول قانون محلي ضد الهراطقة واليهود يعود تاريخه إلى عام ١٥٢٣، ويقضي

بأن أي شخص يبلغ عن يهودي متحول يمارس شعائره الدينية في السر، سيفيد من ثلث الأملاك اليهودية المصادرة(الثلثان الآخران يذهبان إلى الخزينة الملكية وإلى القاضي). وعلى ذلك، ازدهرت الوشاية وكثرت الاتهامات، وزوماراغا، بوجه خاص، اضطهد اليهود بأحكام قاسية، وغالباً ما حكم عليهم بالحرق على خازوق، على أساس أدلة واهية. لذا كان أمراً محيراً أن يختار زوماراغا خدمات اليهود المتحولين لبناء مطبعته المكسيكية. وعلى الرغم من أنه كان يعلم بالأصول العرقية لشريكه، فإنه لم يترك تعليقا على اختياره هذا، ونحن نتساءل، بعد خمسة قرون تقريباً، كيف سوّغ المفتش علاقته بـ " المهجن " كرومبرغر.

نحن أيضاً لا نعرف فيما لو كان زوماراغا قد أدرك التناقض الظاهري بصناعة الكتب من جهة، وتدميرها من جهة أخرى. بعد فترة قصيرة من تعيينه رئيساً لمحكمة التفتيش، أرسل جنوداً إلى أبعد زوايا المستعمرة للبحث عن أي أحد يشتبَه بامتلاكه أشياء دينية أزيتيكية أو كتب مزينة برسوم. اكتشف من خلال الرشوة والتعذيب، موقعاً لمجموعات مهمة من الفن ومكتبات محلية كاملة كانت مخبأة،((خصوصا من تزكوكو))، يكتب بريسكوت،((أكثر العواصم تحضراً في اناهواك، ومستودع عظيم للأرشيف الوطني)). أخيراً، بعد قيام مبعوثيه بجمع أعداد هائلة من الرسوم والكتب، كدسها زوماراغا في وسط سوق تلالتيلوكو وجعل منها ركاماً شاهقاً ثم أحرقها. بقيت النيران، كما قال شاهد عيان، متأججة عدة أيام.

بفضل جهود الآخرين، إسبان أكثر تنوراً (منهم، على سبيل المثال، الراهب برناردينو دي شاغون، الذي حفظ وترجم عدداً من النصوص الأزيتيكية)لدينا فكرة تقريبية عما ضاع هناك: رؤية مركبة عن الكون كاملة مع اللاهوت والأغاني والقصص والوقائع التاريخية والأعمال الفلسفية

والتنبؤية والبحوث العلمية والخرائط الفلكية. من بـ ، الكنوز التي بقيت على قيد الوجود بمعجزة، اكتشفها باحثون في عام ١٩٢٤، في ما يدعى الارشيف السري للفاتيكان، وهي أربعة عشر فصلاً من ثلاثين من " كتاب الحوارات "، العمل الكبير الأخير في لغة ناهوتل(واحدة من لغات عديدة محكية في إمبراطورية الأزيتيك)، كُتب في منتصف القرن السادس عشر. في هذا الكتاب، مجموعة من الرهبان والعلماء المحليين يدافعون عن رؤية الأزيتيك للعالم ضد عقيدة الكاثوليك، صيغت في سلاسل درامية من حوارات تذكّر بالحوارات التي كتبها بلاتو. أعمال مثل " كتاب الحوارات "(وهناك بلا ريب أعمال أخرى كثيرة)كانت ستعطي الاوربيين صورة أفضل عن الناس الذين التقوهم، وتتيح تبادلاً للحكمة والتجربة.

حتى من جهة نظر سياسية ودينية فإن تدمير الثقافة الأخرى، حتى لو كانت معادية، هو دائماً تصرف أحمق، بما أنه يرفض احتمالية الولاء، والهداية والاندماج. الراهب الدومينيكاني الإسباني دييغو دوران، كتب يجادل، قبل موته بقليل في ١٥٨٨، بأنه كي نحاول أن نهدي السكان الأصليين للعالم الجديد من الضروري أن نعرف عاداتهم وديانتهم، وقد وجّه اللوم لهؤلاء، أمثال دييغو دي لاندا وزوماراغا، الذين أحرقوا الكتب:

"هؤلاء الذين قاموا في البداية بحماسة متقدة(لكن بتعقل أقل)بإحراق وتدمير كل وثائق الكتابة التصويرية الهندية القديمة كانوا مخطئين. لقد تركونا دون هادي يرشدنا إلى اللحظة التي يعبد فيها الهنود أوثانهم في حضورنا، ونحن لا نفهم شيئاً من ما يجري في رقصاتهم، وفي أسواقهم، وفي حماماتهم العامة، وفي أغانيهم التي ينشدونها(حين يندبون أربابهم وآلهتهم القديمة)، وفي طعامهم ومآدبهم، فهذه الأشياء لا تعني شيئاً لنا".

قلة من أصحاب السلطة أعاروا انتباها إلى تحذيرات دوران. إن تدمير

كتب أمريكا ما قبل كولومبس يقدم مثلاً عن الخوف الذي شعر به ذوي السلطة هؤلاء من القدرات المدمرة للكلمة المكتوبة. في أحيان اعتقدوا بأن حتى إيداع الكتب إلى النار ليس كافياً. انه أمر ملازم لوضع المكتبات، كونها لا تؤكد سلطة القوة فقط، بل تشك بها أيضاً. كمستودع للتاريخ ومصدر للمستقبل، وكدليل أوكمرشد للأوقات الصعبة، وكرمز للسلطة ماضياً وحاضراً، كانت الكتب في أي مكتبة ترمز إلى أكثر من مضامين جمعية، ومنذ أول نشأة الكتابة كانت تعتبر تهديداً. لا يهم بالكاد لماذا دمرت مكتبة: كل عمل تحريم، تطهير، بتر، إبادة، نهب أو سلب يكون باعثاً على بروز(على الأقل كحضور شبحي)مكتبة أكبر وأوضح وأكثر ديمومة من التي حُرّمت وسُلبت ونُهبت وأُبيدت أوطُهرت. هذه الكتب قد لا تعود بعد الآن متاحة للمراجعة، ربما انها موجودة فقط في ذاكرة ضبابية لقارئ أو في ذاكرة تبقى ضبابية لتقليد أو أسطورة، لكنها اكتسبت نوعاً من الخلود.((نحن نزدري))، كتب تاسيتوس في القرن الأول،((عمى هؤلاء الذين يؤمنون بأن مع تصرف متغطرس واحد، حتى ذاكرة الأجيال القادمة يمكن أن تمحق. في الواقع مثل هذا الفعل يزيد من عظمة الأرواح النبيلة التي يريدون لها أن تصمت، والحكام الأجانب أو هؤلاء الذين يلجأون إلى عنف مشابه، لا يجنون سوى العار لأنفسهم والمجد الدائم لأعدائهم)).

المكتبات التي اختفت أو التي لم يتح لها أن توجد أبداً تتفوق بالعدد كثيراً على تلك التي نزورها، وتشكل حلقات من سلسلة دائرية تتهمنا وتديننا جميعاً. بعد ثلاثة قرون ونصف من حكاية الجواب الشكس لعمر، حكم أبو أمير المنصور، حاكم قرطبة السيء الصيت، بالحرق على مجموعة نادرة من الأعمال العلمية والفلسفية التي جُمعت في المكتبات الأندلسية على يد سلفه. كما لو كان جواباً عبر العصور على ذلك الحكم القاسي، شعر المؤرخ سعيد

الإسباني بتأثر وهو يلاحظ، ((أن العلوم ازدريت من قبل الشيوخ وشجبت من قبل ذوي القوة، وهؤلاء الذين درسوها اتهموا بالزندقة والهرطقة. منذ ذلك الحين، صمت هؤلاء الذين يملكون المعرفة، وتواروا واحتفظوا بما يعرفونه لأنفسهم ووفروه لعصور أكثر نوراً)). وما زلنا ننتظر. بعد خمسة قرون، في عام ١٥٢٦، دخل الجنود العثمانيون بقيادة السلطان سليمان الثاني إلى بودابست وأحرقوا مكتبة كورفينا الكبيرة، التي أسسها الملك ماثياس كورفينوس في ١٤٧١ ـ قيل عنها بأنها كانت واحدة من درر التاج الهنغاري ـ في محاولة لإبادة ثقافة الشعب الذي قهروه. بعد هذا التدمير بأكثر من ثلاثة قرون، أحرق سليمان، في ١٨٠٦، المكتبة الفاطمية الاستثنائية في القاهرة، وكانت تضم مئة ألف مجلد نفيس.

في عصرنا الحاضر، الأساليب الحكومية في الرقابة أقل تطرفاً لكنها ما زالت مؤثرة. في آذار ١٩٩٦ اعترض وزير الثقافة الفرنسي فيليب دوست بلازي على السياسة الثقافية لعمدة أورانج، عضو في حزب جان ماري لوبن اليميني المتطرف، وأمر بإجراء تحقيق عن المكتبة البلدية لتلك المدينة. جاء في التقرير، الذي نشر بعد ثلاثة أشهر، بأنه بناء على أوامر من العمدة تم سحب كتب معينة ومجلات من رفوف مكتبة أورانج: أي مطبوعات مرفوضة من قبل أتباع لوبن، كل الكتب التي لمؤلفيها آراء نقدية ضد الحزب، بالإضافة إلى أي أدب أجنبي(قصص شعوب أفريقيا الشمالية، على سبيل المثال)يمكن أن يعَد بأنه لا يشكل جزءا من الإرث الفرنسي الأصيل.

يعرف الرقباء أن القارئ معرّف بالكتب التي يقرأها. بعد كارثة ١١ سبتمبر ٢٠٠١، تبنى الكونغرس الأمريكي قانون، قسم ٢١٥ من يو أس أي باتريوت آكت، يسمح للشرطة الفدرالية بالحصول على لوائح الكتب المستعارة من أي مكتبة عامة أو المشتراة من المحلات الخاصة لبيع الكتب.

((بخلاف التفتيش التقليدي بتفويض قانوني، هذه السلطة الجديدة الممنوحة لا تقتضي من رجال الشرطة حيازة دليل على جريمة، ولا تقديم أدلة إلى المحكمة تثبت أن هدفهم المعني متهم بجريمة. ولا يسمح لموظفي المكتبة بإعلام الشخص محل الشبهة بأنه تحت التحقيق)). بناء على هذه المطالب قامت عدد من المكتبات في الولايات المتحدة، مداهنة للسلطات، بإعادة النظر بشراء عناوين مختلفة.

أحياناً، مجرد تصرف عشوائي يحدد مصير مكتبة. في ١٧٠٢، سمع العالم آرني ماغنيسون بأن السكان المفقرين في آيسلندا، الذين كانوا جوعى وعراة في ظل الحكم الدانماركي، أغاروا على المكتبات القديمة في بلدهم ـ وكانت تحوي على نسخ فريدة من كتب "ايدا" [مجموعة كتب عن الأساطير الإسكندنافية]، كانت محفوظة لأكثر من ستمئة سنة ـ كي يحولوا البرشامات إلى ملابس تقيهم برد الشتاء. بعد أن علم ملك الدانمارك فردريك الرابع بهذا التخريب، أصدر أمراً لماغنيسون بالإبحار إلى آيسلندا وإنقاذ المخطوطات النفيسة. استغرق الأمر من ماغنيسون عشر سنوات لينتزع المجموعة من اللصوص ويجمعها ثانية، وكانت مخيطة ومتسخة، وأبحر بها من جديد إلى كوبنهاغن، حيث تم حراستها بعناية لأربعة عشر سنة إضافية، حتى أحالتها النيران إلى رماد.

هل هو قدر المكتبات أن تحيا دائماً مصيراً مشكوكاً فيه؟ ربما لا. المكتبات الوهمية، إذا ما أصبحت مرنة، يمكن أن تراوغ بعض هذه التهديدات، إذ سوف لن يكون هناك بعد الآن أي مسوغ للغربلة، مادام فضاء الإنترنت، عملياً، بلا حدود، ولن يعد للرقابة تأثير على الأكثرية من القرّاء، طالما لا يستطيع الرقيب، وهو المقيد إلى إدارة وإلى مكان واحد، أن يمنع القارئ من أن يستدعي نصوصاً ممنوعة من مكان بعيد عن نفوذه. لكن يمكن للرقيب،

على أي حال، أن يوظف الإنترنت كأداة خاصة به ويعاقب القارئ بعد إن يتم الفعل. في ٢٠٠٥ قامت شبكة الإنترنت العملاقة ياهو، بتوفير معلومات ساعدت السلطات الأمنية الصينية على إدانة الصحفي شي تاو لإستخدامه المزعوم لموقع إنترنت في نيويورك للحصول على نصوص ممنوعة ونشرها، وعلى أثرها حكم بالسجن عشر سنوات.

لكن بالرغم من مثل هذه المخاطر، فإن أمثلة لا تحصى للحرية قدمتها شبكة الإنترنت. في ايران، وفي ظل استبداد الملالي، ما زال بوسع الطلاب قراءة كل أنواع الأدب المحرّم أونلاين، وفي كوبا، لدى المعارضين وسيلة وصول عبر الإنترنت إلى تقارير منظمة العفو الدولية ومنظمات أخرى لحقوق الإنسان، وفي روديسيا، بإمكان القرّاء قراءة كتب محظورة على شاشة الكومبيوتر.

بوسع حتى الورق والحبر أن يفلتا من عقوبة الموت. واحدة من مسرحيات سوفوكليس المفقودة هي "في حب أخيل"، ولا بد أن نسخها قد أُبيدت الواحدة بعد الأخرى، على مر القرون، مدمرة في النهب والنيران أو مبعدة من فهارس المكتبات، لأن المكتبيين ربما حسبوها لا تبعث إلا على اهتمامٍ قليل أو أنها تفتقر إلى الجودة الأدبية. على أي حال، بضع كلمات من هذا العمل قد حُفظت بمعجزة.((في العصور المظلمة، في مقدونيا))، يقول توم ستوبارد على لسان واحدة من شخصياته في مسرحيته " اكتشاف الحب "،((في آخر ومضة ضوء من العصر الكلاسيكي، نسخ رجل قطعاً صغيرة من كتب قديمة لابنه الفتي، الذي كان اسمه سبيتيموس، لذا فنحن لدينا جملة واحدة من "في حب أخيل". الحب، قال سوفوكليس، يشبه الثلج الذي تقبض عليه كف طفل)). أنا على يقين بأن حارقي الكتب مطاردون في أحلامهم بهذا البرهان المتواضع على بقاء الكُتب حية.

المكتبة شكلاً

يمنع دخول هذا المكان لمن لا يفقه في الهندسة.

نقش على باب بلاتو في أكاديمية أثينا

في النظرة الأولى التي ألقيتها على المكان الذي سيغدو مكتبتي، رأيت صخوراً وغباراً يغطي حيزاً مستطيلاً من ستة أمتار في ثلاثة عشر متراً. كانت الصخور المتداعية ترقد بين برج الحمام وحجرة الفرن التي ستصبح غرفة عملي، وكان مسحوق رملي يرش النبات المتسلق كلما حطت حمامة على الجدار المشطور. المعمارية التي صممت، أخيراً، مخططات المكتبة والتي(من حسن حظي)تسكن في قريتنا، أصرّت على استخدام الطرق التقليدية في تنظيف المكان وإعادة بنائه، وتعاقدت مع بنائين ذوي خبرة في معاملة الحجر المحلي، tuffeau، وهو ناعم مثل الحجر الرملي وله لون الزبدة. كان مشهد غير عادي أن ترى هؤلاء الرجال وهم يعملون صفا إلى صف، راصفين حجرا بجوار آخر بمهارة مطبعيين في محل للطبع من الطراز القديم. خطرت هذه الصورة إلى ذهني لأنه في مصطلحات مهنة البناء تعرّف الأحجار الكبيرة بـ majuscules(حروف البداية الكبيرة) والأحجار الصغيرة minuscules(الحروف الصغيرة)، وأثناء البناء، بدا أمراً ملائماً بكل معنى الكلمة، أن يمزج ورثة بناؤوا بابل هؤلاء بين الأحجار والحروف في عملهم. ينادي أحدهم على الآخر((Passe moi une majusculeune !)) (أعطني حجراً كبيراً!)بينما كتبي تنتظر بصمت في صناديقها يوم النشور.

الكتب تمنح مكاناً ما هوية خاصة يمكن، في بعض الحالات، أن تستولي على هوية مالكها، وهي خاصّية معروفة جيداً للشخصيات الساذجة التي تطلب أن يرسم لها بورتريه(أو أن تصَور)وخلفها جدار مليء بالكتب، بأمل

أن يمنحهم هذا بريقا ثقافيا. سخر سينيكا من القرّاء المتباهين، الذين يعتمدون على مثل هذه الجدران كي يضفوا على أنفسهم عظمة فكرية، وأيّد فكرة امتلاك عدد صغير فقط من الكتب، لا((رفوف لانهاية لها من الكتب، التي يزيّن بها الجهلة حجرة الاستقبال في بيوتهم)). في المقابل، المكان الذي نحفظ فيه كتبنا يغيّر علاقتنا معها. نحن لا نقرأ الكتب بنفس الطريقة ونحن جالسون داخل مكان دائري أو داخل مكان مربّع، في غرفة ذات سقف واطئ أو في واحدة عالية ذات عوارض خشبية. والجو الذهني الذي ننشئه في فعل القراءة، الحيز المتخيل الذي نبنيه حين نفقد أنفسنا في صفحات كتاب، هو مثبت أو منفي بواسطة الفضاء المادي للمكتبة، ومتأثر بالمسافة بين الرفوف، ووفرة أو ندرة الكتب، وبخصائص الرائحة واللمس والدرجات المختلفة للضوء والظل.((كل أمين مكتبة هو إلى حد ما معماري))، لاحظ ميشيل ميلو، مدير مكتبة مركز بومبيدو في باريس((أنه ينشئ من كتبه مجموعة عضوية واحدة، من خلالها لا بد أن يجد القارئ طريقه في الحياة، ويكتشف نفسه، ويحيا)).



مكتبة تورنتو رفرنس المتعة.

المكتبة التي تخيلتها لكتبي، قبل وقت طويل من بناء جدرانها، حددت مسبقا الطريقة التي أتمنى أن أقرأ فيها. هناك قرّاء يتمتعون بقراءة قصة في حدود مكان ضيّق، بينما آخرون يتيح لهم مكان مدوّر فسيح وعام تخيل النص يمتد نحو آفاق بعيدة، وآخرون

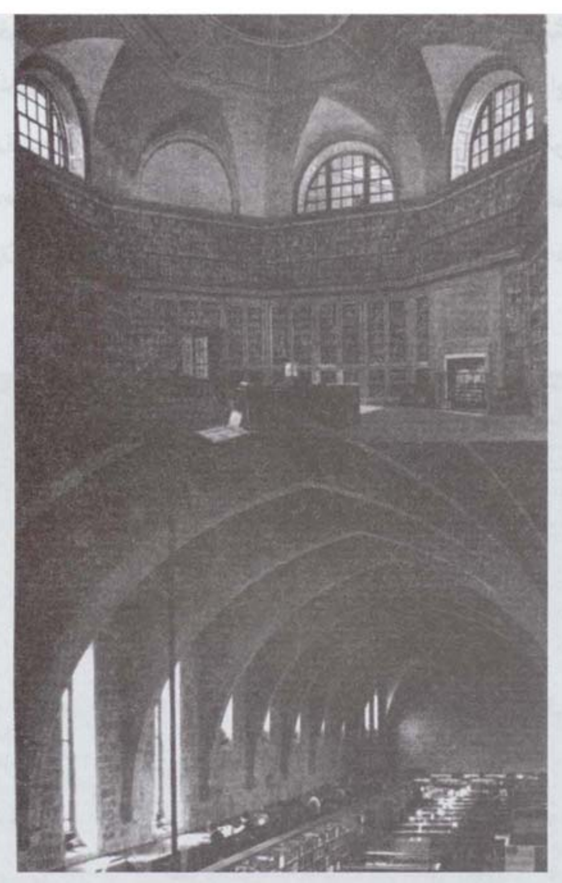
ما زالوا يجدون متعة في متاهة غرف بوسعهم الطواف خلالها، فصلاً بعد فصل. لقد حلمت بمكتبة طويلة، واطئة حيث يكون هناك دائماً ظلام كاف يطوّق ضوء مصباح المنضدة، ليوحي بأن الليل يخيم في الخارج، وهي مكان مستطيل الشكل تقابل فيه الجدران واحدها الآخر، وأشعر فيه على الدوام كما لو ان الكتب على الجانبين هي تقريباً على مدى ذراعيّ، فأقرأ كيفما اتفق، متيحا للكتب أن تتوحد بشكل حر، وتقترح روابطاً بقرابتها، ويدعو واحدها الآخر عبر الحجرة. الشكل الذي اخترته لمكتبتي ينشّط عاداتي في القراءة.

فكرة مكتبة موضوعة على الورق، غير مأهولة بعد بالقرّاء والكتب، وحتى الآن خالية من رفوف وقواطع، هي لا شيء سوى إطار لأسلوب معين للقراءة، واختزال كون ما يزال عديم الشكل إلى تعبيره الأدنى: شكل هندسي محض. الأماكن المربعة تشمل وتحلل؛ الأماكن الدائرية تقترح الاستمرارية، وأشكال أخرى تستدعي سمات أخرى. مكتبة تورنتو رفرنس مؤلفة من سلسلة من الأقراص المتصاعدة. مكتبة باكنغهام هاوز(حيث احتفظ الملك جورج بكتبه)هي على شكل مثمن. مكتبة إمبرسيانا الأولى في ميلانو، كانت أقيمت في ثلاثة مساكن أعيد بناؤها مجدداً، تلائم بالكاد((الخنازير والبغايا الماجنات))، إحتلت شكلاً مستطيلاً ضيّقاً. مكتبة فرايه يونفرستايت في برلين صممها نورمان فوستر بشكل يشبه الجمجمة وتلقب الآن بالدماغ. ببليوتيك دو فرانس، في باريس، لها شكل طاولة مقلوبة. ببليوتيكا دي كاتالونيا، في برشلونة، على شكل أسطوانة مقطوعة بالتساوي إلى نصفين. مكتبة فولفنبويتل في ألمانيا صممت على يد المعماري هرمان كورب على شكل بيضوي. مكتبة جامعة فرايبورغ، التي بنيت في ١٩٠٢، على شكل مثلث.

أول تخطيط لدينا عن مكتبة قروسطية هو مربع الشكل، تم رسمه في دير ريشونو لرهبان سانت غال في سويسرا، مؤرخ في عام ٨٢٠، ومقسم إلى طابقين. في الطابق الأرضي تقع حجرة النسّاخين، يحتلها من جانبين سبع طاولات صغيرة وضعت تحت نفس العدد من النوافذ، مع منضدة كبيرة وسط الحجرة. في الأعلى مكان لخزن الكتب، حيث هناك مجاز يقود إلى جناح المرتلين الذي تحفظ فيه كتب الطقوس الدينية. النتيجة (باستثناء المجاز وجناح المرتلين)، هي مكعب مثالي، فيه القسم العلوي يعكس القسم السفلي: الكتب التي تكتب في الأسفل تخزَن في الأعلى، وهي في المقابل تستخدم لسد حاجة النساخين من الكتب، في سلسلة لا متناهية من الأدب المعاد إنتاجه. لا نعرف إن كان هذا المخطط قد نفذ أو لا، لكن بالنسبة للمعماري المجهول، لا بد أن الشكل الهارموني للمربع بدا مكاناً مثالياً لإبداع وحفظ ومراجعة الكتب.

مكتبة من زوايا مستقيمة تقترح تقسيماً إلى أجزاء أو مواضيع، مطابق للمفهوم القروسطي عن الكون الهرمي والمقسّم إلى فئات مستقلة. مكتبة دائرية هي أكثر سخاء بالنسبة للقارئ، وتمنحه وهماً بأن كل صفحة أخيرة هي الأولى أيضا. لكثير من القرّاء، ستكون المكتبة مثالية أكثر لو جمعت بين كلا الشكلين، الدائرة والمستطيل، أو البيضوي والمربع، مثل الطابق الأرضي لكاتدرائية. هذه الفكرة ليست جديدة.

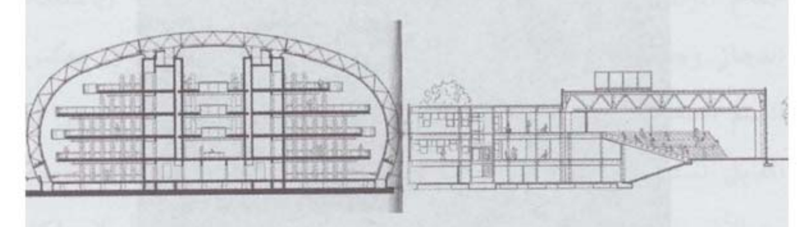
نحو نهاية القرن السابع عشر، نمت المكتبة الملكية الفرنسية من مجموعة خاصة كوّنها لويس الحادي عشر في القرن الخامس عشر، وتوسّعت إلى عدد كبير من المجموعات، نتيجة للمنح وغنائم الحرب والمرسوم الملكي الذي وقع في كانون الأول ١٥٣٧، وقضى بإيداع نسختين من كل كتاب يطبع في



فوق: مكتبة الملك في باكنغهام هاوز في لندن.
تحت: السقف النصف إسطواني لمكتبة ببليوتيكا دي كاتالونيا في برشلونة.

فرنسا في شاتو دو بلوا. وفي فترة الثورة الفرنسية، بدا من الواضح أن هذه المكتبة الوطنية النامية بسرعة بحاجة إلى مبنى جديد، وخلال القرن الذي تلا قدمت اقتراحات عديدة لحل مشكلة إيواء الكتب الكثيرة. بعض من المتحمسين اقترحوا نقل المجموعة إلى مكان لا يتعدى حدود باريس، مثل كنيسة لا مادلين(كانت حينئذ قيد الإنشاء)، واللوفر(وقّع نابوليون مرسوماً بهذا الشأن لم ينفذ أبداً)، والمكاتب الحكومية على مرسى كاي دورساي،

وسوق أو فو، حيث محلات الجزارين، أو حتى مستشفى أوبتال دو لا شاريتي، حيث كانت خالية من المرضى، آخرون تخيلوا بناء يتكون من مبان جديدة من مختلف الأنواع والحجوم، واقتراحاتهم، من أكثرها شذوذاً إلى أكثرها عملية، تدل على البحث الشغوف عن شكل مثالي، شكل يجب أن يتيح للقرّاء حرية ضرورية للحركة، وفي نفس الوقت يمنحهم مكان عمل أكثر نفعاً.



تصميم على شكل جمجمة لمكتبة فرايه يونفرستايت في برلين.

أيتين ـ لوي بوليه، واحد من أكثر المعماريين سعة خيال في كل العصور، اقترح في عام ١٧٨٥ غاليري طويل عالي السقف بأحجام عملاقة، مستوحى من الخرائب القديمة الإغريقية، حيث يكون مستطيل الغاليري متوّجا بسقف مقوّس، ويمكن للقرّاء أن يطوفوا في شرفات الأدوار الطويلة فوق وتحت في بحثهم عن الكتب المطلوبة. المشروع لم يتجاوز أبداً مرحلة التخطيط، لكن في التصميم كان هناك القليل من الإمكانيات التي توحي بالخصوصية والتركيز. مكتبة بوليه الرائعة لها هيئة النفق، وتشبه ممراً أكثر منها مكاناً للتوقف، مبنى مهيأ للمراجعة السريعة أكثر مما للقراءة الرخية. بعد خمسين سنة، تخيل المعماري بنجامين ديليسر مكتبة بيضوية محاطة ببناء مستطيل، برفوف تشبه شعاع العجلة، تتشعب من المركز إلى كل الاتجاهات. طاقم المكتبة سيكون جالساً في الوسط لمراقبة القرّاء،لكن كان هناك اعتراض أنه((ما

لم يكن المكتبي مسلحا بتلسكوب ومكبر للصوت، وبإمكانه الدوران على محور بشكل متواصل، فإن المراقبة ستكون مستحيلة))، لذا ستفتقر المكتبة دائماً إلى النظام. علاوة على ذلك، طاولات القراءة، التي وضعت بين الرفوف، ستوحي للقارئ بشعور كريه بالتقيد أو حتى شعور برهاب الاحتجاز. بالرغم من الاعتراضات، فإن فكرة وجود مكتب لموظفي المكتبة يقع في المركز ومحاط بالطاولات ورفوف الكتب لم تفقد جاذبيتها أبداً.



الأبراج المصممة على شكل كتاب لمكتبة ببليوتك دو فرانس، باريس.

أخيراً، في العام ١٨٢٧، أتاحت للمخططين فرصة إلغاء عدة مبان على الضفة اليمنى لنهر السين العثور على موقع جاهز. من بينها فندق تيبوف العتيق، الواقع عند التقاء شارعي فينيان وبتي شامبز، وتم التخلي عنه من

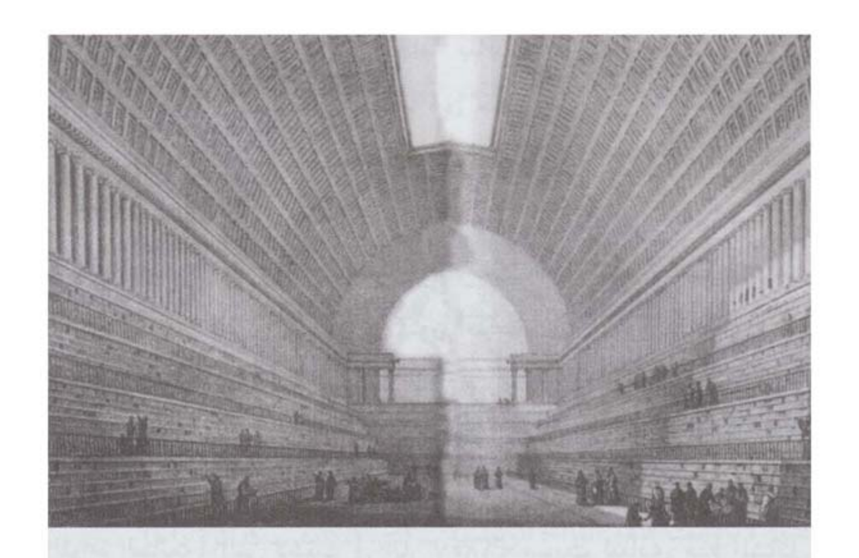
قبل وزارة المال، ومحلات متاخمة له صارت متيسرة بشكل ملائم لبلدية المدينة. استغرق الأمر من السلطات ثلاثين سنة تقريباً قبل أن تتم الموافقة على خطط التحويل للموقع. كان المعماري المسؤول عن المشروع النهائي هنري لابروست، الذي ذاع صيته مع تجديد مكتبة أخرى مهمة في باريس، ببليوتك سان ـ جنفييف.

كان لابروست مدركاً أن أي مكتبة وطنية هي معلم ومكان للأعمال اليومية العادية، فضلاً عن انها رمز للغنى الفكري للبلاد ومكان عملي يحتاج فيه القرّاء العاديون أن يؤدوا عَملهم على نحو مريح وفعال. لذلك توجب على الشكل والحجم أن يعكسا كلا الاتساع والألفة، و كلا الفخامة والعزلة الهادئة. تصوّر لابروست قاعة القراءة الرئيسية ــ قلب المكتبة ــ كدائرة داخل مربّع، أو بالأحرى سلسلة من الدوائر المعلقة فوق مربّع من قرّاء متجمعين، وهي تسع قباب زجاجية تتيح لضوء الشمس أن ينفذ وينوّر المكان القائم الزوايا تحتها. كما في مشروع ديليسر، يعاين المكتبي جمهوره من وسط القاعة، من داخل حجيرة تشبه الكشك، وبوسعه أن يدير ناظريه حوله كلما دعت الحاجة. أعمدة معدنية طويلة تدعم قناطر القباب، تمنح الجزء الداخلي مظهر حديقة شتوية، في حين تغطي الطوابق الخمسة من رفوف الكتب الجدران على كلا الجانبين، وتحوي أكثر من مليون كتاب.

بعد ذلك بثلاثين سنة، في الجانب الآخر من القنال، اكتمل بناء قاعة جديدة للقراءة في مكتبة المتحف البريطاني في لندن وفقاً لنموذج مشابه، ما عدا أن قبة وحيدة توّجت المربّع الدائري، والطاولات تشعبت من المركز، مراقبة من قبل المكتبي المنتبه دائماً. في ذلك الحين، كان مضى على وجود المتحف البريطاني(المؤسسة التي أقيمت فيها المكتبة)أكثر من قرن، وكان للمكتبة في حينه ست قاعات قراءة قديمة يرثى لها. القاعة الأولى، التي أمر بها القيّمون

في ١٧٨٥، كانت قاعة ضيّقة ومظلمة بنافذتين صغيرتين،((أثثت لتكون قاعة للقراءة، وأعد لها طاولة ملائمة من خشب السنديان، مغطاة بأكاليل غار خضراء، مخصصة للقراءة مع عشرين كرسي.))قاعة القراءة السادسة، التي تم استخدامها من عام ١٨٣٨ إلى ١٨٥٧، تألفت من قاعتين مربعتين عاليتين، مع أربعة وعشرين طاولة وأكثر من ألف مرجع. التهوية كانت رديئة، إذ كان القرّاء يتشكون من كون أقدامهم حين تكون باردة، تكون رؤوسهم ساخنة جداً. الكثير عانى مما أصبح يعرَف بـ "صداع المتحف"، ومن "برغوث المتحف" البغيض، الذي قال عنه واحد من القرّاء إنه((أكبر من أي حشرة وجدت في مكان آخر، عدا في غرف ملاجئ الفقراء)). قاعة القراءة السابعة، التي دشنت في آيار ١٨٥٧، صممت لتفادي هذه المشاكل ولتكفل حيزاً أكبر للكتب. شكلها ـ دائرة داخل مربّع ـ أوحي به من قبل انتونيو بانيزي، أبرز أمين مكتبة لمكتبة المتحف البريطاني، الذي أعلن ذات مرّة بأن((كل رف ووتد ومحور من المبنى الجديد كان مفكراً به ومقرراً في ساعات الأرق)).

مثل بانيزي، كان لابروست، هاوي المكتبات المتحمس، مقتنعاً بأهمية إضفاء طابع إنساني على هذا المكان الفسيح، حتى في المساحات التي تقع خلف قاعة القراءة. الأعداد الهائلة من الكتب لا يجب أن تخزن فقط، بل يجب أن تكون في متناول القارئ العادي، لذا ينبغي تصميم كل حيز بين خزانات الكتب بحيث يكون اتساعه مساوياً لإمتداد ذراعي إنسان متوسط القامة(كي يستطيع القارئ سحب الكتب من كلا الجانبين دون أن يتحرك)، والعلو محدد بمدى ارتفاع اليد(بحيث يمكن للقارئ الوصول إلى أعلى رف دون الحاجة إلى درجات أو سلم متحرك). بالرغم من رحابة المكان، ليس هناك شعور بالحشر تحت القباب الزجاجية المقوّسة. مع أن قاعة



تصميم بوليه المدهش لمكتبة مثالية

القراءة يمكن أن تسع مئات القرّاء في وقت واحد، إلا أن كل مقيم له عالمه الخاص، حيث يجلس على منضدة مرقمة، مهيأة بمحبرة وماسكة أقلام، وتحفظ دافئة في الشتاء بواسطة تركيب من المواقد المعدنية ومشعاعات الماء الحار التي تستخدم أيضاً كمسند للقدمين. حين عملت في كلا القاعتين، قاعة سال لابروست وقاعة المكتبة البريطانية، عرفت المشاعر المختلطة للاتساع والاحتواء، للمشاركة والعزلة، تلك التي يمنحها لمثل هذه الأمكنة التركيب بين المربّع والدائرة.

أشكال أخرى تنطوي على خصائص مادية أخرى. مستطيل بسيط، على سبيل المثال، يمكن أن يوحي بأنواع مختلفة من النهاية واللانهاية، الاستمرارية والانقطاع، كما هو واضح في واحدة من أجمل المكتبات التي بنيت على مر العصور، ببليوتيكا لورنزيانا في فلورنسا. إنها معجزة أن نمتلك تخطيطا لفكرتها: قصاصة من الورق، لا تتعدى حجم ورقة فئة دولار واحد، حفظت في أرشيفات بوناروتي، إحدى زوايا الورقة منتزعة، ربما كتب عليها الفنان رسالة ما على عجل. المخطط لا يظهر سوى مستطيل من خطين مزدوجين مقاطعين بعدة خطوط قصيرة تمثل، كما قيل لنا، نتوءات حجرية متقطعة. هذه المخطط رُسِم بيد ميكيل آنجلو، وهو أول مخطط تمهيدي لما سيكون((أول عمل معماري له منفذ وكامل، ويعّد من الإسهامات الأكثر أصالة في عصر النهضة)). كلمتان فقط كتبتا على الورقة، واحدة في أعلى المستطيل، orto(حديقة)، وأخرى في الأسفل chiostro(فناء الدير). رغم أن موقع المكتبة في بداية المشروع لم يكن قد تقرر بعد، فإن ميكيل آنجلو حالما تخيل شكله المستقبلي صار بإمكانه أن يحدد بدقة موقعه أيضاً: القسم الأوسط من البناية الرئيسية لدير سان لورينزو، في مكان ما بين الحديقة وفناء الدير.

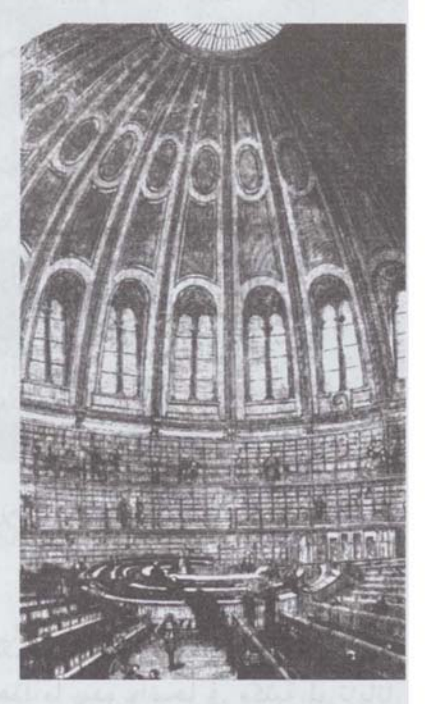
فكرة مكتبة ديرية كبيرة في سان لورينزو، لخزن مجموعة فخمة تعود إلى عائلة ميديتشي، قدمها الكاردينال جيلو دي ميديتشي في زمن مبكر من عام ١٥١٩، قبل عدة سنوات من التكليف الفعلي للمشروع، الذي انتظر، لأسباب مالية، حتى العام ١٥٢٣ ليقر رسمياً. وهي نفس السنة التي أصبح فيها الكاردينال دي ميديتشي البابا كليمنت السابع. في رأي البابا كليمنت، لا بد لأي مكتبة أن تكون مكتبة حقا، لا مجرد بناء معّد للفت الأنظار مليء بمجلدات فاخرة، بل مكان لحفظ الكتب والاستفادة من الكلمة المكتوبة، ومعهد هدفه خدمة عموم طالبي العلم، يتمم بما يدخره النقص في مجموعات كتب الجامعة.

كليمنت هو حفيد لورنزو العظيم، الذي مُنح اسمه إلى مجموعة ميديتشي الكبيرة(المكتبة). كان ابنا غير شرعي لجليانو دي ميديتشي ومحظيته فيوريتا، لكن فساد نسبه لم يمنع إبن عمه البابا ليو العاشر من تعيينه رئيس أساقفة فلورنسا ومنحه رتبة كاردينال، ضارباً بعرض الحائط كل الاعتراضات. برغم افتقاره إلى المواهب السياسية التي كان يتمتع بها جده، فإن كليمنت كان مثله، رجل أدب وعاشق للفنون الجميلة. لقد عارض بعناد حركات الإصلاح التي انتشرت في كل أرجاء الكنيسة الكاثوليكية، وكان وراء الإجراءات التي نفذت ضد لوثر والأمراء البروتستانت في ألمانيا. كان كليمنت قبل كل شيء ميديتشيا وفلورنسيا، وقف بصرامة ضد كل أشكال التغيير، لكنه كحاكم سعى وراء الرفاهية الاجتماعية والفنية التي يهيأها له منصبه. طموح، لكنه راعي حصيف، دعم الكتّاب أمثال فرانشسكو جوتشارديني ونيكولو ماكيافيلي، والفنانون أمثال بنفينيتو تشليني، روفايل وميكيل آنجلو.

كان كليمنت خبيرا، لا مجرد معجب بالأعمال الفنية التي أمر بإنجازها. المراسلات التي تمت بينه وبين ميكيل آنجلو، منذ بداية بناء المكتبة حتى الانتهاء منه، تشهد على استغراقه في التفاصيل. خلال ثلاث سنوات كاملة، من ١٥٢٣ إلى ١٥٢٦، تبادل البابا كليمنت في روما وميكل آنجلو في فلورنسا ثلاث أو أربع رسائل كل أسبوع. في رسالة تلو الأخرى، كان كليمنت يقترح على ميكيل آنجلو ـ برغم أن الاقتراحات البابوية بمثابة أوامر ـ كل أنواع الترتيب والتنظيم: أن تفصل النصوص اللاتينية عن الإغريقية، أن تحفظ الكتب النادرة في حجرات مستقلة، أن تدعم تأسيسات المبنى، أن تكون السقوف معقودة لتساعد على منع الحرائق. باهتمام مزعج، كان يصرّ على معرفة كل شيء: كم عدد المناضد التي خطط ميكيل آنجلو وضعها في قاعة القراءة، كم عدد الكتب التي يمكن أن توضع على كل منضدة، هل في نية ميكيل آنجلو الحصول على خشب الجوز للطاولات وبأي عملية سيعامل

الخشب. لقد قدم أفكارا عن كل شيء، من تصميم الأبواب حتى طريقة الإضاءة، وعن أفضل مكان يمكن العثور فيه على الحجر الجيري لصنع الجير وعن عدد طبقات الجص التي يجب أن تستخدم في طلاء الجدران. كان ميكيل آنجلو في أغلب الأحيان يرد بلطف ولباقة، أحياناً يقبل الاقتراحات وأحياناً يتجاهلها تماما.

ريدنغ رووم في المكتبة البريطانية، كما صورت في ذي اليستريدت لندن نيوز.



التخطيط الأولي لريدنغ رووم مرسوم بيد بانيزي نفسه ومؤرخ في ١٨ نيسان ١٨٥٢.

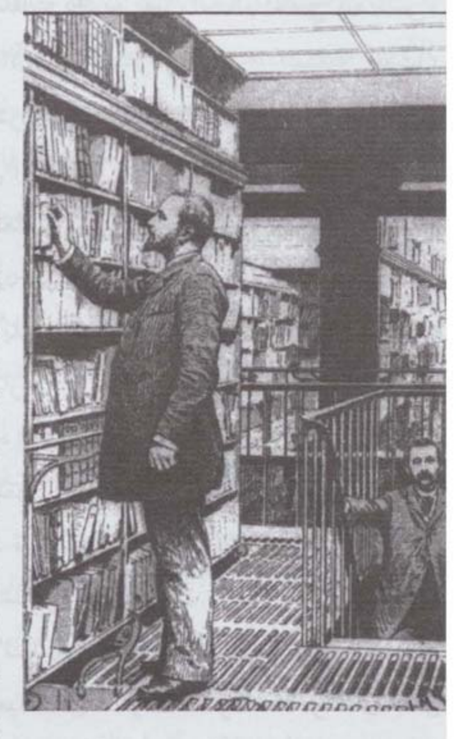
على الرغم من أن كليمنت كان محافظاً في السياسة، لكنه فيما يتعلق بالابتكار في الفن كان أكثر انفتاحا، مع أنه بقي دائماً عملياً. حين كان ميكيل آنجلو يقترح بأن تضاء ردهة المكتبة بمنورات دائرية في السقف، كان كليمنت يبدي سروره في البداية لكنه ما يلبث أن يعقب بأن الأمر سيحتاج توظيف شخصين على الأقل((فقط للمحافظة على الزجاج نظيفا)). على أي حال، ميكيل آنجلو(الذي كان عناده واحداً من أكثر طباعه سوءاً)لم ينتظر موافقة البابا على كل شيء، وبدأ إقامة الجدران في كانون الأول عام ١٥٢٥، قبل

ثلاثة أشهر من موافقة قداسته على التصميم النهائي.حين تسلم ميكيل آنجلو أمر بناء المكتبة في تشرين الثاني ١٥٢٣، كان في الثامنة والأربعين من العمر. كان مشهوراً في أرجاء أوربا، وكان في أعين أوصيائه وأقرانه الفنانين رساماً ونحاتاً ومعمارياً وشاعراً، مواهبه لا يرقى إليها الشك. في كل هذه المجالات، زاوج بين العالم المادي وعالم الأفكار، فكانت قوانين الواحد منهما تتمازج مع قوانين الآخر. بالنسبة لميكيل آنجلو، صفات الخشب والمرمر تنعكس في صفات العقل والمخيلة، ففي رأيه، الجماليات والماديات، علوم الأخلاق وعلوم الرياضيات تتشارك نفس المحتوى والجوهر. في سونيته غير منتهية ألفها في الوقت الذي كان يعمل فيه على سان لورنزو، كتب:

لأنه ما من قطعة من خشب بوسعها حفظ
نداوتها الملائمة بعيداً عن مكانها الخاص
فلا مفر من أن تجف، ولو لامست قليلا من سخونة،
تتفطر في اللهب أوتحترق.
تماما مثل قلب، يسرقه أحد ولا يعيده،
غارقا في الدموع ويتلظى في النار،
والآن وهو بعيد عن منزله ومكانه الملائم
أي عاصفةٍ سيكون فيها هلاكه؟

آمن ميكيل آنجلو في قابلية الأشياء المادية على التعبير أو ترجمة الأفكار والمشاعر وفقاً لأحكام موضوعية، وهذا ما يبدو واضحاً في مكتبة لورنزيانا. عهد إليه بثلاثة مباني منفصلة. الأول، وهو واجهة مبنى سان لورنزو، لم يكتمل أبداً. الثاني، الجزء الداخلي من كنيسة ميديتشي، كان مشروعا باشر به متأخراً، بعد أن عمل عليه لسنوات فنانون آخرون، وبرغم أنه أنجز بعض

من أفضل عمله هنا، فإن الإسهام ظل جزئياً. على أيٍّ حال، البناء الثالث، المكتبة، هو بالكامل من إبداع ميكيل آنجلو الخاص.



حجيرات في البيبليوتك ناسيونال لا تتطلب درجات سلم: أبعادها محددة بارتفاع جسم إنسان.

بما أن المكتبة كانت تستخدم، في المقام الأول، كمكان عمل، فإن الجزء الداخلي منها أعطي أهمية جمالية أكبر من الجزء الخارجي. شيدت المكتبة على الطابق الثالث(بسبب الخشية من الفيضانات)وتتألف من دهليز، وسلم رائع وأصيل على نحو مروِّع، وقاعة قراءة شاهقة تبدو ممتدة نحو نقطة المنظور غير المرئية على الأفق. فضاء المكتبة بالكامل بني من مستطيلات: الفتحات المعمّدة على الجدران التي تضم النوافذ، مفتوحة أو مغلقة، وصفوف المناضد على كلا جانبي القاعة، والممشى الأوسط الفخم، والسقف المقسّم والمنحوت. ليس من الصعب تخيل التأثير الذي كانت تحدثه المخطوطات الكبيرة المنوّرة أو الكتب الصغيرة التي وضعت مفتوحة على سطوح الطاولات المائلة، مضاعفة بأشكال مستطيلة متساوية على الأرضية والجدران والسقف، بحيث إن كل عنصر من العمارة والديكور يذكّر القارئ بالعلاقة الحميمة بين العالم

والكتاب، والمكان المادي اللامحدود ينقسم، في المكتبة، إلى مساحات شبيهة بصفحة كتاب. الفكرة المركزية لسقف الدهليز الخشبي المنحوت ليست مستطيلاً، بل عبارة عن أربع حلقات دائرية تمثل الخاتم الماسي لميديتشي، وهو نموذج يتكرر في الأرضية الآجرية الصفراء والحمراء للمكتبة نفسها، مذكّرا القارئ بالأركان الأربعة المترابطة لكون الرب، ومعكوسة في كلمة الرب المدبجة من قبل مؤلفي الأناجيل الأربعة.

يتحدث جورجيو فاساري معاصر ميكيل آنجلو عن((الحريّة))التي كان الفنان يبيحها لنفسه حين يحيد عن الأفكار الكلاسيكية للتناسب والطراز المعماري القديم، حرية، كما يقول فاساري،((يدين لها بالفضل العظيم والدائم كل الفنانين)). وفقاً لفاساري، ما من مكان أفضل من مكتبة لورنزيانا برهن فيه ميكيل آنجلو على هذه الأفكار الجديدة:

"..أعني، في التوزيع الجميل للنوافذ، ونموذج السقف، والمدخل الأعجوبي للدهليز. لم يُظهر أحد من قبل مثل هذه الرشاقة في التفاصيل، كما في الكل، في تيجان الأعمدة وقواعد التماثيل والطُنُف والسلم الذي لا مثيل له في الملائمة. ففي هذا السلم صنع ثلمات غريبة في تصميم الدرجات، وخرج في الكثير من التفاصيل، وإلى حد بعيد، عن الأعراف المألوفة، الأمر الذي جعل الكل يشده بهذا العمل".

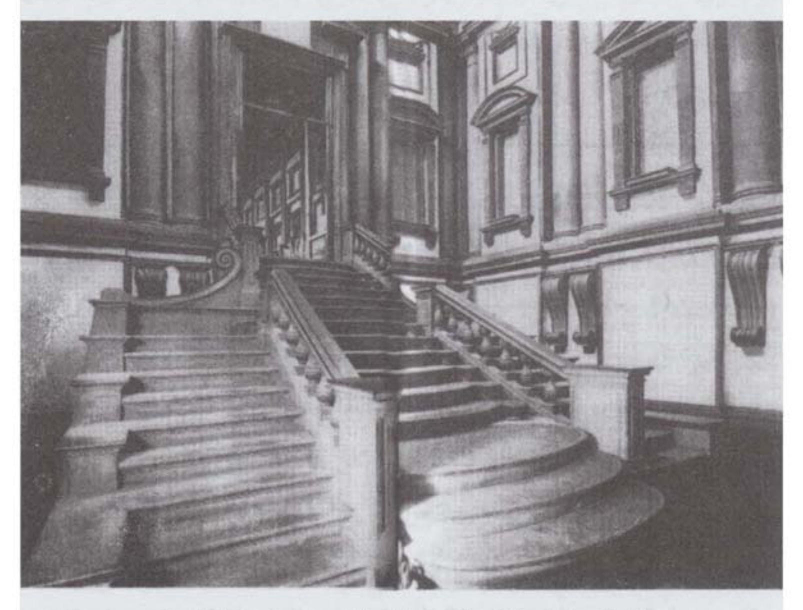
السلم الذي أعجب فاساري جداً هو حقاً أعجوبة. لقد تخيله ميكيل آنجلو أولاً في خشب الجوز، لا في الحجر الرمادي حيث نفذ في النهاية على يد النحات الفلورنسي بارتلوميو أماناتي في ١٥٥٩، خمسة وعشرون عاماً بعد مغادرة ميكيل آنجلو فلورنسا عام ١٥٣٤. لكن حتى في الحجر الرمادي المفضل على الخشب المعتم، الذي يعرّف الزوار على المادة التي صنعت بها المناضد وسقف قاعة القراءة، يوحي السلم بتعقيد مكاني يبدو تقريباً مستحيلاً في مكان محصور، حيث المر المعقد الذي يحوي على ثلاث مسالك

مختلفة، وهو إختيار ملائم تماماً لأي شخص يدخل ملكوت الكتب. مساحة الدهليز صغيرة: تصميم ميكيل آنجلو عاملها كما لو كانت واسعة، بحيث ان الدرجات تسقط من بين الدرابزين خارج الباب على ثلاث سلالم دون مساند، الأوسط صنع من درجات منحنية، كل واحدة منها تنتهي بشكل حلزوني، والسلمان الجانبيان مستطيلان، وعند وصولهما إلى الأرض يتحولان تدريجياً إلى أشكال معينية. كتب ميكيل آنجلو إلى فاساري من روما قبل البدء بالبناء، يقول بأنه يتذكر حقاً تصميمه الأصلي للسلم، لكن فقط((كما لو في حلم)). هذه هي الخاصية التي تلائم بشكل أفضل العمل النهائي.

على أي حال، ما عدّه فاساري جِدّة مدهشة، كان بالأحرى إتقانا للأفكار الأولية القديمة للشكل الذي كان عليه المكتبة. الأمثلة كثيرة: واحدة في تاريخ قديم جداً، من ٢٣٠٠ قبل الميلاد، إذ قام الآثاريون عام ١٩٨٠ بحفريات في موقع لقصر ألبا الملكي، في سوريا، واكتشفوا غرفاً مستطيلة الشكل تحتوي على بقايا مكتبة، فيها أكثر من خمسة عشر ألف لوح من الصلصال التي كانت كما يبدو محفوظة على رفوف خشبية على طول الجدران، وعلى الأرجح حين هوجم القصر، احترقت الرفوف فوقعت الألواح بأكداس على الأرض. كما اكتشف بأن مكتبة برغاموم اتبعت نفس النموذج بعد خمسة وعشرين قرناً من ذلك. خرائبها تظهر أنها تألفت من مستطيل مشكّل من غرف متتابعة: الغرفة الأولى والأكبر استخدمت للاجتماعات، والغرف الثلاثة التالية ضمّت رفوف الكتب. كان القرّاء يراجعون اللفائف في حيز يقع أمام الغرف، في ظل صف من الأعمدة. في روما، في مكتبة ساحة تراجانوس، التي بنيت عام ١١٢ بعد الميلاد، تغير التصميم إلى حد ما: الشكل المستطيلي بقى كما هو، لكن ألغي التقسيم إلى غرف صغيرة. في ببليوتيكا لورنزيانا، كان ميكيل آنجلو واعيا بتأثره بتصميم عملي وقديم، مألوف لدى بلاتو وفرجيل.

طوال حياته، كان يبدو ميكيل آنجلو أنه يسعى وراء مثالين يتمم واحدهما

الآخر برغم تضادهما، الأول هو مثال الكمال، الخاصية المصقولة إلى حد الكمال للفن الإغريقي، التي كان يؤمن هو ومعاصروه بأنها أعطت لكل رائعة من روائع هذا الفن الانطباع الراسخ لشيء كامل ومتقن. المثال الآخر، الطبيعة المؤلفة من شظايا، نتيجة الزمن وعامل المصادفة، التي تبيح، برأي فناني عصر النهضة، لخرائب معينة وعدد وافر من بقايا مكسورة أن تعكس كمالاً زائلاً، يكمن الآن في جذوع التماثيل المقطوعة الرؤوس ونقوش بقايا الأعمدة. اكتشاف جمالي كثيرا ما استخدم فيما بعد من قبل مبدعي النهضة القوطية في القرن الثامن عشر. ببليوتيكا لورنزيانا أظهرت كلا الخاصيتين.



السلالم الشهيرة لمكتبة لورنزيانا، التي صممها ميكيل آنجلو.

من بين الاكتشافات العديدة التي قام بها فنانو عصر النهضة كانت "المقطع الذهبي". على الرغم أن الفكرة كانت معروفة في العمارة الإغريقية والرومانيّة، فإن معالمها لم تتضح إلا في عام ١٤٧٩، حين عرّفها العالم

الرياضي لوكا باتشيولي، في كتاب مرفق برسوم ليوناردو دافنتشي، لم ينشر إلا بعد عشر سنوات في ما بعد، بالشكل التالي:((خط يُقطع بطريقة تكون فيها نسبة الجزء الأصغر إلى نسبة الجزء الأكبر مساوية لنسبة الجزء الأكبر إلى نسبة الكل)). الكمال المحبب لمثل هذا القياس لا يمكن شرحه رياضياً، لذلك فهو ينطوي(وما زال حتى اليوم)على صفة جمالية سحرية، مثل توازن مادي لا توجد له صيغة. المستطيل الذي صممه ميكيل آنجلو لقاعة القراءة، والذي تماثل جوانبه النسب المثالية التي أملتها فكرة "المقطع الذهبي"، هو تكريم للجمال المتوازن لمعبد إغريقي أو فناء روماني، ويختزل النسب البديعة لكوننا الواسع إلى قياسات ممتعة لعيوننا البشرية. النوافذ الصارمة والنقوش المتكررة في أعلى الأعمدة من جهة، والسلم المعقد والديناميكي من جهة أخرى، توضح بشكل تام طبيعة المكتبة التي تنطوي على تناقض ظاهري. الأولى توحي بوجود إمكانية لمكان منظم ومتوازن، حيث يمكن لمعرفتنا عن الكون أن تحفظ بلياقة؛ الثاني يؤدي إلى الاعتقاد بأنه ما من نظام أو طريقة أو تصميم أنيق بوسعه يوماً أن يحتويها تماماً.

المكتبة عامل مصادفة

الوظيفة المثالية لمكتبة هي أن تشبه قليلاً كشك تاجر كتب قديمة، مكان للقى النفيسة.

إمبرتو إيكو، إسم الوردة

المكتبة ليست مكاناً لكلا النظام والفوضى فحسب، إنها أيضاً مملكة المصادفة. كتب، حتى بعد أن تودع برف وتعلّم برقم، تحتفظ بقابلية التحرك بنفسها. إذا ما تركت لمصيرها، تتجمع في تشكيلات غير متوقعة: تتبع قوانين سرّية للتشابه، وسلالات غير مسجلة، واهتمامات مشتركة، وثيمات. متروكة في الزوايا المهملة أو بأكداس جنب سرير نومنا، في علب كرتون أو على رفوف، تنتظر أن تفهرس في يوم يؤجَل مراراً، القصص المتشبثة بالكتب تتحلق حول ما دعاه هنري جيمس " هدف مشترك "، الذي غالبا ما يفوت القرّاء: ((السلك الذي تسلّك به اللآلئ، الكنز المطمور، الرسم الذي على البساط)).

حسب أمبرتو ايكو، يجب أن تحمل المكتبة صفات اللامتوقع، والمصادفة، وسوق البراغيث. كل صبيحة أحد تُنصَب brocante (تجارة السَّقَط)في واحدة من القرى المجاورة. ميزتها أنها لا تملك خيلاء أسواق براغيث باريس المعروفة في كل مكان، ولا هيبة معرض الأشياء الأثرية الذي يقام بشكل منتظم في كل أرجاء فرنسا. البروكانت خليط من كل شيء، من الأثاث الثقيل من القرن التاسع عشر إلى القطع العتيقة من الأقمشة المطرّزة والمخرمات، ومن القطع المثلومة للخزف الصيني والكريستال إلى البراغي الصدئة وأدوات البستنة، ومن اللوحات الزيتية البالية والصور العائلية المجهولة إلى اللعب البلاستيكية

ذات العين الواحدة والسيارات المصغرة المكشوطة. هذا المعسكر التجاري يشبه المدن القديمة المخرّبة التي تخيلها ستيفنسون من وجهة نظر طفل:

هناك سأذهب حين أغدو رجلاً

بقافلة من جمال،

أوقد ناراً في عتمة

حجرة الطعام المغبرّة قليلاً،

أتطلع الصور على الجدار،

أبطال، معارك، ومهرجانات،

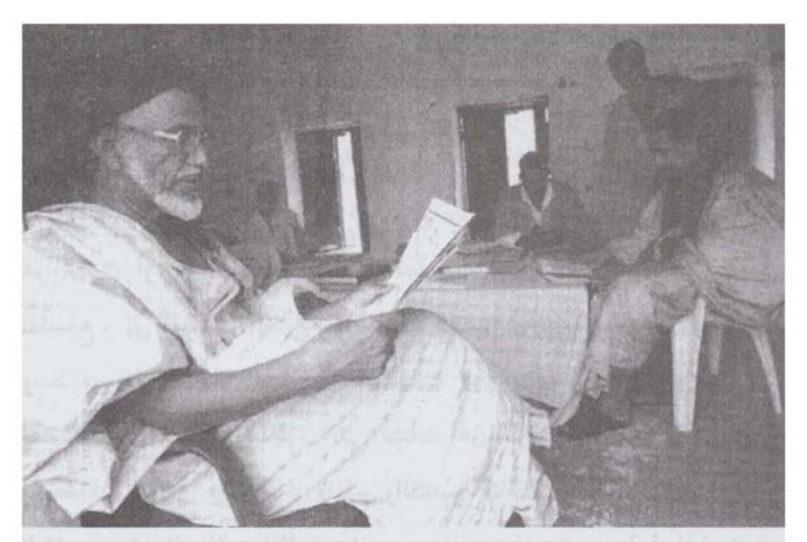
وأعثر في ركن على دمى

لأولاد مصريين قدماء.

في البروكانت، يتجه اهتمامي عادة إلى الصناديق المليئة ببطاقات بريدية، مجلات، تقاويم، وعلى الأخص كتب. في بعض الأحيان تظهر الكتب تحت عنوان واضح بأحرف ضخمة: تاريخ الإقليم أو أسرار العصر الجديد، تربية الحيوانات الداجنة أو قصص حب. لكنها في غالب الأوقات تتكدس عشوائياً: مجلد بجزء واحد مغلف بالجلد من القرن الثامن عشر، ترجمة لهوميروس مع قصص سيمنون المهترئة عن الحرب، طبعات أنيقة لروايات موقع عليها.(عثرت على نسخة منشورة في ١٩٤٧ لكوليت "شيري"، مكتوب عليها بشكل مبهم هذا الإهداء:((الى غلوريان، الذي سعى إلى "إصلاح" النساء ونجح بشكل أعجوبي بذلك))، وجدتها في صندوق مؤشر عليه " كل كتابين بـ ٨ يورو ")، مع عدد لا يحصى من كتب بستسلرز أمريكية منسية.

كتب تلتقي معاً بسبب نزوة جامع كتب، ترسخ أفكار لمجتمع ما،

تعاقب الحروب ومضي الزمن، أو بسبب الإهمال، التدقيق، مزاجية الباقين أحياء، التصفية العشوائية في تجارة الخرق والروبابكيا، وقد يستغرق الأمر قروناً قبل أن يأخذ تجمعها شكلاً معروفا لمكتبة. كل مكتبة، كما اكتشف ديوي، لا بد أن تأخذ ترتيبا، ومع هذا فليس كل ترتيب هو عمدي أو مبني بشكل منطقي. ثمة مكتبات تدين بتكونها إلى الذوق المتصنع، إلى الهبات الطارئة واللقاءات التصادفية. في صحراء أدرار، في وسط موريتانيا، ما زالت مدن الواحات شنكويتي وأودان تضم عشرات المكتبات من العصر القديم، التي نشأت عن طريق نزوات القوافل المارّة المحملة بالتوابل والحجاج والملح والكتب. كانت هذه المدن، من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر، محطات توقف ضرورية في الطريق إلى مكة. تُركت الكتب هناك طوال العام، لأسباب تجارية أو للأمان ــ تحف اشتملت على أعمال المدارس القرآنية الشهيرة لغرناطة وبغداد، القاهرة ومكناس، قرطبة وبيزنطة ــ وانتهى مكانها في البيوت الخاصة للعوائل البارزة. في شنكويتي، على سبيل المثال ــ وهي واحة افتخرت بامتلاكها اثني عشرة مسجداً وخمسة وعشرين ألف نسمة في العصر الذهبي في القرن الثامن عشر، هناك خمس أو ست عوائل بين الثلاثة ألاف نفس من الذين بقوا الآن، تحتفظ، للقارئ الفضولي، بأكثر من عشرة آلاف مجلد في الفلك، علم الاجتماع، تفسيرات القرآن، النحو، الطب، الشعر. أغلب هذه الكتب اقترضت من طلاب العلم الرحالة أثنا مرورهم ونسخت على يد مكتبيي المدينة واسعي المعرفة، لكن أحياناً تصبح العملية معكوسة، الطلاب يصلون إلى هنا ويقضون أشهراً في نسخ واحد من الكتب التي حفظت على رفوف المكتبة.



قاعة القراءة في مكتبة حبوط في موريتانيا.

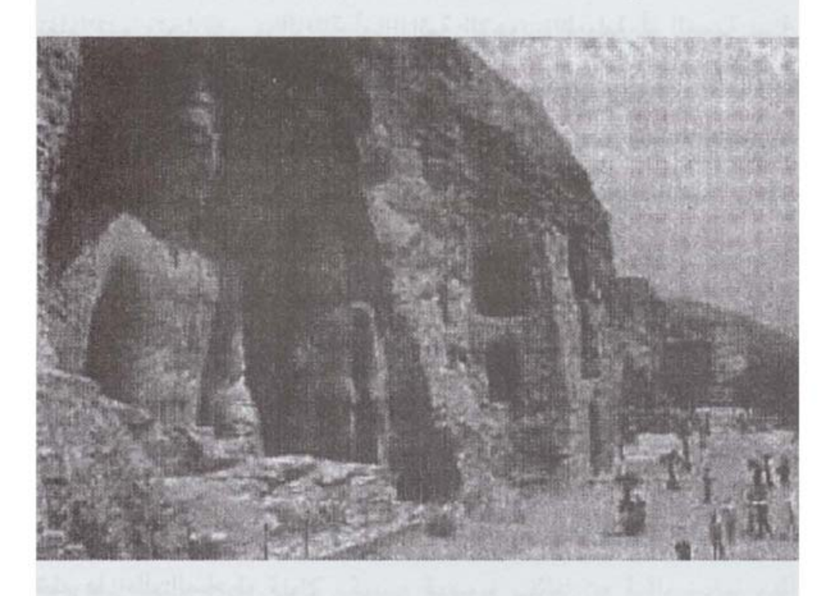
يتداول الناس قصة في أودان، عن رجل ظهرعند أبواب المدينة، في أوائل القرن ١٥، جائع وعليه أسمال بالية. أخذه الناس إلى المسجد، وأطعموه وكسوه، لكن لم يفلح أي منهم أن يجعله ينطق باسمه أو المدينة التي ولد فيها. كان يبدو أن كل ما يهم الرجل هو قضاء ساعات طويلة وسط كتب اودان، قارئاً بصمت تام. أخيراً، بعد شهور من هذا التصرّف الغامض، نفذ صبر إمام الجامع وقال للمتسول، ((لقد كُتب بأن من يحفظ المعرفة لنفسه لا يدخل ملكوت السماء. كل قارئ ما هو إلا فصل واحد في حياة كتاب، وما لم ينقل معرفته إلى الآخرين، فإنه كما لو حكم على الكتاب بالدفن حياً، هل تتمنى مثل هذا المصير للكتب التي أفادتك بأحسن ما يكون؟)). بعد أن سمع الرجل هذا الكلام، فتح فمه وأفصح بعبارات مسهبة ورائعة من النص المقدس الذي كان بين يديه. أدرك الإمام بأن زائره كان عالماً بعينه شهيراً، كان قد قطع على نفسه وعداً، بعد أن يأس من طرش الناس، أن يحفظ لسانه ولا يتفوه بحرف حتى يصل مكاناً تكون المعرفة فيه مبجلة.

نقطة البداية لأي مكتبة من الصعب أحياناً تصورها. في عام ٣٣٦ بعد الميلاد، قام راهب بوذي لا نعرف اسمه، بمغامرة في رحلة على طول طريق الحرير العظيم، بين صحراء غوبي وأقفار تاكليماكان، في البقعة الواقعة في آسيا الوسطى، التي سميت قبل قرنين من ذلك ببلاد السيرس على يد الجغرافي الإغريقي باوساياناس، على إسم دودة القز. هنا، وسط الرمال والأحجار رأى الراهب رؤيا يظهر فيها إلهه في كوكبة من آلاف النقاط الضوئية(التي يحاول غير المؤمنين تفسيرها كونها من تأثير أشعة الشمس على قشرات معدن البيريت وتبعثرها على سفح الجبل). لتبجيل هذه الرؤيا، حفر الراهب كهفاً في الصخور، وكسا جدرانه بالجص ورسم عليها مشاهد من حياة بوذا.

خلال الألف سنة التالية، ظهر خمسمئة كهف تقريباً، نحتت كلها من صخور ناعمة وزُينت بجداريات مبهرة وتماثيل من الصلصال مشغولة بدقة، أسفرت عن تكوّن الحرم المقدس الشهير في ماغاو غربي الصين. هذه الصور المنحوتة والمرسومة بيد أجيال متعاقبة من الفنانين الورعين، تعطي فكرة عن تحوّل فن الأيقونات البوذي التبتي والصيني، والذي كان بشكل رئيسي تجريدياً، إلى فن رمزي ديني، صُور فيه على نحو رائع آلهة مغامرين وملوك طموحين ورهبان منوّرين وأبطال جوالين. مع الوقت، حمل الحرم المقدس أسماء مختلفة، من بينها موغاوكو أو " كهوف القمة المنقطعة النظير"، وكيانفودونغ أو "موقع الألف بوذا". بعد ذلك، وفي وقت ما من القرن الحادي عشر، خبئت بعيداً مجموعة من أكثر من خمسين ألف مخطوطة ورسوم نادرة، وعلى الأرجح لحمايتها من جشع الجيوش الأجنبية، وختم عليها في واحد من كهوف موغاو، فتحوّل الموقع إلى((واحد من أكبر وأقدم أرشيف ورقي في العالم، والمكتبة البوذية الوحيدة في عصرها))، حيث قبعت بهدوء لمدة سبعة قرون.

لكن هذه الكهوف الشبيهة بمملكة النحل في موغاو لم تكن المستودع النفيس الوحيد في المنطقة، إذ نشأت في مكان لا يبعد كثيرا عن الحرم المقدس المدينة العتيقة دنهاونغ، التي تأسست في القرن الرابع قبل الميلاد، وهي واحدة من أكثر المحطات أهمية على طريق الحرير الذي يمتد من ليويانغ على النهر الأصفر شرقا، وباتجاه سمرقند وبغداد غرباً. بعد قرنين من تأسيسها، صارت دنهاونغ حامية، بسبب موقعها الإستراتيجي على أطراف الإمبراطورية الصينية، وأصبحت هدفاً لأطماع أمم عديدة: التبتيون، اليغورس التوركيون، القوطيون، التاتغوت وأخيراً المغول، الذين فتحوا هذه الحاضرة الكونية النفيسة في وقت مبكر من القرن الثالث عشر، تحت قيادة جنكيز خان. مزيج فريد اجتمع عند هذه التخوم بين صحرائين عظيمتين، جامعة تحت سقف واحد(أو عدة سقوف لدنهاونغ)النماذج الفاخرة لفارس والأناقة الشكلية لآسيا الهلينية، الثقافات المتعددة للهند وتقاليد البراعة الصينية، تجريدية الحضارة التبتية ورمزية الفن الأوربي. تبدو الفريزات العمودية من القرن الخامس من دنهاونغ، المزخرفة بشخوص راقصة، أنها تحاكي حركات لإفريزات مشابهة اكتشفت في بومبي، إيطاليا، فالنحت النافر في الصخر، ورسوم القصة التي تعلم فيها الأمير سيدهارتا أربعة وستين أبجدية مختلفة على يد معلمه، فيسفاميترا، تظهر الفتى وهو جالس مقاطعاً ساقيه وعلى حجره كتاباته، منجزة بنفس الطريقة التي يظهر بها المسيح الطفل جالساً ومتوّجاً بنفس الهالة، منحوتا من العاج على غلاف كتاب ألماني للصلوات من القرن العاشر، والذي عُرض في متحف دو لوفر نوتردام في ستراسبورغ، كما يبدو السقف المزخرف من القرن الخامس من مدينة دنهاونغ، الذي يمثل ثلاثة أرانب بريّة تطارد بعضها البعض في دائرة، شبيها بالرسوم التي على الأرضية الآجرية لكاتدرائية تشستر في إنكلترا في

القرن الثالث عشر، وهناك أنسجة مزدانة بالرسوم، ٍجدت على بعد عدة أميال شرق كوتان، الواحة التي زارها ماركو بولو عام ١٢٧٤، تظهر رسوماً لمجالدين رومان، وهناك جداريات من معبد بوذي في قلعة تبتية من القرن الثامن، قرب صحراء لوب نور في الصين، تصوّرملائكة مجنحين تذكّر بتلك الموجودة في مذابح مئات الكنائس في أوربا القرون الوسطى.



كهوف دنهاونغ على طريق الحرير العظيم.

في إمبراطورية شاسعة مثل الصين، عُرف مثل هذه التمازج الثقافي منذ زمن طويل كنتيجة، حسنة أو سيئة، للسياسات التوسعية، وكان واضحاً للصينيين أن واحدة من امتيازات الفاتح ليست القمع، بل بتبني إنجازات الثقافات المغلوبة والاغتناء بها. يخبرنا سجل صيني قديم لتاريخ الأحداث عن الحرب من أجل السيادة التي دارت بين القائدين الصينيين هسيانغ يو، من تشو، وليو بانغ، من هان، بعد فتح مملكة تشين في ٢٠٦ قبل الميلاد.

ذات ليلة، بينما كان هسيانغ يو وجنوده محاصرين من قبل ليو بانغ، سمعوا أغاني من أغانيهم المحلية في تشو تغنى في معسكر الأعداء((أدركوا في النهاية أن تشو هي الآن في الكامل في قبضة ليو بانغ من هان)).

هذه الشعوب المختلفة في أذواقها وتقاليدها تأثرت الواحدة بالأخرى، سواء كانوا عابرين أو مستوطنين لزمن في تلك المناطق البعيدة، سجلوا تعاملاتهم وتجاربهم ـ الزائلة أو الدائمة الوجود، العملية أو الغيبية ـ في السياق الاعتيادي لحياتهم. بذلك أضحت دنهاونغ، بالإضافة إلى كونها مكاناً لتبادل المخطوطات النفيسة، أرضاً مغرقة بكل ما يمكن تخيله من رسوم عابثة وخربشات مدبجة بأيدي رهبان ورحالة وجنود وتجار زاروها لأكثر من ألفي عام: أوراق إدارية ووثائق خاصة، مراسلات عامة وشخصية، كتابات مقدسة ووقائع دنيوية، دفاتر هامشية ولفائف طقوسية. حتى بعد أن كفّ هذا الجزء من طريق الحرير عن كونه درباً سالكاً وقلّت أهمية مدينة دنهاونغ فإن الوافر من الحطام استمر بالتراكم، وهو عبارة عن بقايا الحياة اليومية للناس الذين عاشوا هنا. ولمئات السنين، تركت كل المخطوطات النفيسة في موغاو والبقايا البالية المتهدلة في منازل دنهاونغ المهجورة منسية تطمرها رمال الصحراء.

في عام ١٩٠٠، عالم بريطاني باسم لايُعقل، ماركوس اوريليوس ستاين(اختزله في ما بعد إلى مارك أوريل ستاين)، ولد في هنغاريا، وعمل في مكاتب شركة الهند الشرقية، انتابه الفضول حول القصص الدائرة هنا وهناك حول المنطقة الأسطورية. اجتاز أكثر من آلاف الكيلومترات من الطرق الوعرة المليئة بالصخور والرمال بحثا عن الحرم المقدس المنسي. في واحد من تقاريره عن مغامرته، أطلق ستاين تسمية "سيرنديا" على المنطقة، محاكياً تسمية باوسانياس. قاد ستاين أربع حملات إلى سيرنديا، وبالرغم من

المساعدة الضئيلة والمتأخرة من السلطات البريطانية، فقد جمع عدداً كبيراً من المخطوطات والأشياء المخبوءة.

رأت الحكومة الصينية في حملات ستاين حجة للنهب غير المحدود من أجل إملاء قاعات المتحف البريطاني. على أي حال، لم يجمع ستاين المخطوطات وأعمال الفن فحسب، بل أيضاً الأشياء الغريبة والبقايا التي كانت مجرد نفايات خلفها سكان مدن الصحراء، التي قال عنها،((بالرغم من أنها لم تغر الباحثين عن الكنوز لعصور متعاقبة، بيد انها اكتسبت بالنسبة لنا قيمة استثنائية))، مثل مصائد فئران مكسورة أو كسرة من قدح شراب محطم، أولائحة تعليمات عن كيفية حفظ اعتذار قصير ومتواضع عن الثمالة في الشرب في حفلة ما، أو المسوّدة الأولى من أشعار وصلوات بوذية من أجل سلامة واستعادة طفل مختطف.

لم تكن الغنائم كلها مستخرجة من الأرض خلال الحملات. الآلاف من أكثر المخطوطات قيمة، التي حملها ستاين إلى انكلترا، كانت أشتريت من راهب طاوي يدعى وانغ يوانلو، الذي كان أعطى قبل ذلك كثيراً من القطع المهمة ابتغاء رضا الحكام المحليين. أغلب مشتريات ستاين كانت فريدة: أقدم نماذج باقية من لفائف مرسومة صينية، كاملة مع أربطتها الحريرية الأصلية؛ أقدم خريطة كوزمولوجية في الوجود(التي كانت بالنسبة للصينيين أيضاً رسماً بيانياً للإدارة، لأن الإمبراطور كان يؤمن بأنه قائد سماوي)، كتاب دايموند سوترا(الحكمة الماسية)الشهير، والمعروف بكونه أقدم كتاب مطبوع في العالم. هذه الأشياء كلها محفوظة اليوم بين ممتلكات المتحف البريطاني، وتشكل واحدة من أندر وأهم المجموعات على مر العصور.

لكن ماذا تمثل هذه المجموعة؟ ما الذي يجمع بين هذه الأعمال العظيمة في الفلسفة وعلم الفلك، واللاهوت وعلم السياسة، والمحفوظة بعناية في

كهف مختوم للقارئ المقبل، وبين قطع من رسائل ولوائح ومذكرات موجزة وجدت في خرائب حانة أو في مرحاض آجري؟ بخلاف المكتبات الموريتانية في مدن الواحات شنكويتي وأودان، التي يسهر عليها حرّاس ارتضوا بمهنتهم كواجب سلفي، لا كنوز سيرنديا ولا فضلاتها المرمية تناولتها أيدي أي خبير عدا أجنبي جاء من بعيد متأخراً. المصادفة جمعتها معاً، لكنها الآن، وقد تحررت من مدافنها، تبدو أنها تظهر تماسكا بالغ الوضوح. ما هو راقد أمامنا، في قاعات المتحف البريطاني وفي الرفوف المكتظة للمكتبة البريطانية، ربما يبدو غنيمة لمستكشف طموح، ومجموعة عُثر عليها مصادفة لكتابات يتيمة ووقائع تاريخية ملعثمة، لكنها حكاية منذرة لإمبراطورياتنا الراهنة. أو بوسعنا أن ننظر إلى مشروع ستاين كمهمة إنقاذ. في زمنها الخاص، كل واحدة من هذه القطع مثلت قيمة وكان لها وظيفة دون أي علاقة مع القطع الأخرى. لكنها جمعت معا، وهي شاخصة أمامنا في شهادة مشتركة، كمكتبة للناجين، للمشاركين في تاريخ اختفى منذ زمن بعيد.

المكتبة ورشة عمل

سأقيم حيث أرغب

روبرت لويس ستيفنسون، لاي مورالس

ثمة فرق بيّن، بالنسبة لي، بين الحجرة الكبيرة التي أحتفظ فيها بمعظم كتبي، والحجرة الأصغر حيث أعمل. في الكبيرة، "المكتبة الخاصة"، أختار الكتب التي أحتاج وأرغب، أجلس وأقرأ وأدوّن ملاحظات، أراجع موسوعاتي. لكن في الحجرة الصغيرة، مكتبي، فإن الكتب المختارة هي تلك التي أحسبها عاجلة وضرورية وحميمية أكثر. نسخ متهرئة من "باكت اوكسفورد دكشنري" و"شورتر اوكسفورد"، والمعجم الضخم والمخلص "روبير"، وقاموسي من أيام الدراسة " بيكينيو لاروس اليسترادو"، "كنوز روجيه" نسخة ١٩٦٢، قبل أن تنقحه وتفسده أيدي آثمة، " معجم الأدب" لكيلي، "الأساطير الإغريقية" لغرافس في طبعة بنغوين... أشعر بهذه الكتب كأنها امتداد لذاتي، جاهزة تطالها يدي، نافعة دوماً، معروفة وقديمة. في أوقات علي أن أعمل في غرف دون هذه المجلدات الأليفة، فكنت أحس بغيابها بنوع من العمى وفقدان الصوت.

في مكتبي كنت أحتاج أيضاً إلى تعويذات معينة تغمر منضدتي لسنوات طويلة، أداعبها بذهول وأنا أستدعي الكلمات حين أكتب. كان علماء من عصر الهضة ينصحون بالاحتفاظ بأشياء مختلفة في المكتب: آلات موسيقية وفلكية لإضفاء التنوع والهارمونية على المكان، أشياء نادرة من الطبيعة مثل حجر ذي شكل غريب وقواقع ملونة، وبورتريهات لسانت جيروم، القديس الحامي للقرّاء. لقد اتبعت نصائحهم إلى حد ما. وسط الأشياء التي على منضدتي حجر صابون على هيئة حصان من كونغوناس دو كامبو، عظم

منحوت بشكل جمجمة من بودابست، حصاة من كهف سيبيل قرب كيميه.

إذا كانت مكتبتي سجلاً لتاريخ حياتي، فإن مكتبي هو هويتي الذاتية.

الغرف التي يحيط فيها الكتّاب(هؤلاء الأنواع الصغيرة من القرّاء) أنفسهم بمواد يحتاجونها في عملهم، تكتسب صفة حيوانيّة، مثل تلك التي على هيئة وكر أو عش، تحمل شكل أجسادهم وتتيح حيزا لأفكارهم. هنا بوسع الكاتب أن يضع سريره الخاص وسط الكتب، قارئ أحادي الزواج أومتعدد الزوجات كما يحلو له أن يكون، يختار كتباً كلاسيكية معروفة أو كتباً جديدة مجهولة، يترك مناقشات غير منتهية، يبدأ بصفحة مفتوحة بالمصادفة، يقضي الليلة قارئا بصوت عال كي يسمع صوته نفسه يقرأ له، كما يدعوه فرجيل، "الصمت الودود للقمر الكتوم". المعلم الإنساني باتيستا غورينو، ابن المفكر الإنساني الشهير غورينو فيرونس، أصرّ على القرّاء أن لا يقرأوا في الصفحة بصمت،((أو أن يتمتموا مع أنفسهم، لأنه غالبا ما يحدث أن الشخص الذي لا يستطيع سماع نفسه سيتخطى مقاطع شعرية لا تحصى كما لو أنه شخص آخر. الفائدة الكبيرة للقراءة بصوت عال هي الفهم، لأنه ما يبدو صوتاً آتيا من الخارج يجعل آذاننا تنخس الذهن بحدة لتدعوه إلى الانتباه)). وفقاً لغارينو، التفوه بالكلمات يساعد القارئ حتى في عملية الهضم، لأنه((يرفع من حرارة الجسم ويخفف الدم، وينظف تماما كل الأوردة ويفتح الشرايين، ولا يسمح للرطوبة غير الضرورية أن تبقى في هذه الأوعية التي تستقبل وتهضم الطعام)). إنه يساعد على هضم الكلمات أيضاً، إذ غالبا ما أقرأ لنفسي بصوت عال، في ركني من المكتبة، حيث لا يسمعني أحد، من أجل أن أحظى بأفضل تذوق للنص، وأجعل منه كله ملكاً لي.

إذا كان المكان الخصوصي هو جنس، فإن المكتب الذي يضمه هذا المكان هو نوع. أثناء عصر النهضة، يعد امتلاك غرفة مكتب لأي شخص ملهم

بالكتابة، دليلاً على الثقافة والذوق الحضاري. أكثر من أي غرفة في البيت، المكتب هو فكرة عن التمتع بشخصية سرّية قائمة بذاتها، تدوم طويلاً بعد موت صاحبها. وهو مؤلف من نصوص وطلاسم، أيقونات وأدوات من كل نوع. مكتب قارئ أو كاتب هو أشبه ما يكون بمقام مقدس، ليس لإله بل لنشاط حيوي. عرض أدوات حرفة ما تدل بوضوح على ورشة، نظامها(أو فوضاها)لا يتبع متطلبات مكتبة عادية، مهما كانت خصوصية. المكتب ليس نسخة مصغرة لبناء أكبر ـ المكتبة ـ الذي غالباً ما يحتويه. إنه يضطلع بمهمة مختلفة: يكفل مكاناً عمليا للاستبطان والتخيل، الإيمان بقوة الأشياء والاتكال على سلطة معجم ما. وصف المؤرخ ياكوب بركهارت عصر النهضة بأنه((إيقاظ للشخصية الفردية))، لكن الشخصية الفردية كانت يقظة من غير ريب مرات كثيرة من قبل، في أقدم مكاتب القرّاء، بواسطة الرجال والنساء الذين خلقوا أمكنة تمكنت فيها ذواتهم الباطنية من التعلم، والنمو، والتأمل، والتبصر، في حوار بين الحاضر الفردي والأجيال اللانهائية الماضية، أمكنة يعتزلون فيها بعيدا عن وطأة الحياة الاجتماعية. وهو جالس في بيته المشرف على البحر في أنتيوم، في القرن الأول قبل الميلاد، كتب تشيشيرو إلى صديقه الحميم اتيكوس((أسلّي نفسي بالكتب التي لدي منها خزين ضخم في أنتيوم، أو أقوم بعّد الموجات، والجو يلائم صيد سمك الأسقمري في البحر))، أضاف فيما بعد،((القراءة والكتابة لا تمنحاني العزاء حقاً، بل الذهول)). الذهول من صخب العالم. مكان للتأمل.

في عام ١٩٢٩ نشرت فرجينيا وولف محاضرتها، التي غدت الآن شهيرة، عن النساء والرواية، تحت عنوان " غرفة إنسان خاصة "، تعبر فيها بشكل حاسم عن حاجتنا إلى مكان شخصي للقراءة والكتابة:((لا بد من أن الذهن البشري سيفتح على وسعه إذا شعرنا أن الكاتب يعبر عن تجربته على

نحو تام ودقيق. يجب أن تكون هناك حرية، ويكون سلام وصمت))، ثم تضيف، ((ما من صوت عجلة يصّر، ولا ضوء يومض. الستائر يجب أن تكون مسدلة))، كما لو أن الوقت ليل.

محترفات الكتّاب المشاهير تذكارية لافتة للنظر. غرفتا عمل رديارد كبلنغ في بيتيه في فيرمونت، وفي روتنغديان، التي تدور أغلب كتبها عن الرحلات أو الحرف الصناعية، تكشف عن اهتمامه بالعبارة والكلمة التقنية المضبوطة. في غرفة إيراسموس في بروكسل، شعاع الضوء الذي يخرق ألواح النافذة الزجاجية الشبيهة بالمعين يلعب على مجلدات مرسلة له من أولئك الأصدقاء والزملاء الذين كان يكاتبهم. مكتبة فردريش دورنمات المغلقة، البيضاء، المستطيلة في بوشاتيل، فيها رف بسيط ذو جلدة أنيقة وعصرية، يلف نفسه حول الغرفة، مثل واحدة من المتاهات الدائرية التي أبرع فيها في رواياته. شقة فكتور هيغو الفخمة المكسوة جدرانها بالقماش والمفروشة بسجاد ناعم، على بلاس ديه فوسج في باريس، مسكونة بمخطوطات قصصه الميلودرامية وبتخطيطات مناظره الشبحية. غرفة آرنو شميدت الصغيرة والقبيحة في بارغفيلد بي سيل، في سكسونيا السفلى، علقت على جدرانها رفوف آيلة للسقوط تحمل عناوين إنكليزية مغمورة(مثل روايات إدوارد بولوير- ليتون، الذي أعاد شميدت كتابة نصوصه بنسخ ألمانية أفضل)، وتحوي علباً صغيرة فيها قصاصات من ورق كرتوني مكتوب عليها بخط اليد أرشيف مصغر، حفظه شميدت مرتباً حسب الموضوعات، حيث يستخدمه في تأليف تحفه. آلاف من محترفات ومكتبات أخرى حول العالم حُفظت كنصب تذكارية لأصحابها الذين صاروا أطيافاً، والذين قد يراجعون في أي لحظة شاردي الذهن قطعة مألوفة، جالسين في الكرسي المعتاد ليأخذوا كتابا ضخما من بين رفاقه أو ليفتحوا مجلدا على صفحة معينة بقيت كلماتها في البال. المكتبات المهجورة تبقي على أرواح الكتّاب الذين عملوا فيها وهي مسكونة بغيابهم.



رديارد كبلنغ في غرفة عمله في منزله في فيرمونت.

في فالادوليد، يمكن لقرّاء " دون كيخوته " أن يتجولوا في أرجاء المنزل الذي أقام فيه ميغيل دي سرفانتس من ١٦٠٢ إلى ١٦٠٥، في السنة التي نشر فيه الجزء الأول من الرواية، وأن يجرّبوا إثارة البصبصة. للبيت ذكريات ميلودرامية: في ليلة ٢٧ حزيران ١٦٠٥، كان المدعو غاسبر دي إيزبيليتا عائداً إلى منزله ماشياً حين هاجمه، على مقربة من البيت، رجل مقنع وتركه يعاني من جراح قاتلة. تمكن إيزبيليتا من الصراخ، فهرع إلى نجدته جاره الذي إستدعى بدوره سرفانتس، فحمل الاثنان الرجل المحتضر إلى بيت سيدة معروفة. عمدة المدينة، اشتبه بمسؤولية سرفانتس(أو واحد من أقاربه)

عن الهجوم، فأمر بسجن الكاتب وعائلته. وبعد بضعة أيام أطلق سراحهم، بعد التأكد من براءتهم، إلا أن جدلاً طويلاً قام بين المؤرخين حول مسألة تورط سرفانتس في جريمة القتل. كان البيت، بالرغم من أنّه جُدد بعناية، مؤثثا، لدواعي الضرورة، بأمتعة لم تكن أبداً ضمن ملكية سرفانتس. فقط غرفة المكتب، في الطابق الثاني، احتوت على بضعة أشياء كانت من شبه المؤكد تعود إليه: ليست هي المنضدة((من خشب الايبوني والعاج))التي وصفت في وصية ابنته، إيزابيل دي سرفانتس، بل واحدة أخرى، أشير إليها أيضاً في الوثيقة،((المصنوعة من خشب الجوز، وأكبر واحدة أمتلكها))، لوحتان، واحدة للقديس يوحنا والأخرى للعذراء، مجمرة نحاسية، صندوق لحفظ الأوراق، ورف كتب وحيد يحمل بعضاً من عناوين أشار إليها في عمله. في هذه الغرفة كتب سرفانتس عدة قصص((لرواياته النموذجية))، وهنا لا بد أنه خاض نقاشا مع أصدقائه عن فكر كيخوته الفذ.

في واحدة من الفصول الأولى من "دون كيخوته "، حين قرر الحلاق والقس أن يغربلا مكتبة الفارس ويشذباها من الكتب التي كانت فيما يبدو سبب جنونه، أصرّت مدبرة المنزل على وجوب رش الغرفة أولاً بالماء المقدس((لأنه ربما كان أحد هؤلاء السحرة الكثر الذين يسكنون الكتب حاضراً، وربما يلقي سحره علينا، ليعاقبنا على رغبتنا بطردهم من العالم)). مثل عديد من الناس الذين لا يقرؤون، تخشى هذه المرأة من قوة الكتب، تلك التي ترفض أن تفتحها. نفس الخرافة تسيطر على أغلب القرّاء، فالكتب التي نبقيها أكثر قربا إلينا، هي مسحورة. القصص التي تكشف نفسها بين جدران حجرة عمل الكاتب، الأشياء الموضوعة على المنضدة، الكتب التي اختيرت بعناية على الرفوف، كلها تنسج شبكة من الأصداء والتأملات، من الدلالات والنوازع، تعطي للزائر وهما بأن شيئاً من مالك هذا المكان ما زال يحيا

بين هذه الجدران، حتى لو لم يعد له وجود. أحياناً روح الكاتب وكذلك طيف مكتبته يُفسَدان قبل زمن بعيد من موته. لسنوات طويلة، إلى أن ترك يموت في جنيف عام ١٩٨٦، عاش بورخس في بوينس آيرس وسط كتب لم يعد بإمكانه رؤيتها، لأن العمى تمكن منه في بداية سنيه الخمسين. شقته الصغيرة كانت تقع في الطابق السادس من مبنى لا يلفت الأنظار، في وسط المدينة، في ركن من ساحة بلازا سان مارتن. كان الباب يفتح دائماً من قبل فاني، الخادمة، التي كانت تقود زواره الكثر عبر رواق صغير حيث تقف، في العتمة، عصي المشي وعكازات بورخس،((تنتظر بصبر))، كما يحب أن يقول،((لتؤخذ خارجا في جولة))، ثم، خلال مدخل مغطى بالستائر، يدلف المرء إلى حجرة الجلوس، حيث يستقبل الأستاذ ضيفه بمصافحة ضعيفة وخجولة. إلى اليمين، طاولة مغطاة بقماش مخرم وأربعة كراسي مستقيمة الظهر تؤلف أثاث حجرة الطعام، إلى اليسار، تحت النافذة، أريكة متهرئة واثنان أوثلاثة كراسي بمساند. يجلس بورخس ويدعو زائره إلى الجلوس قبالته. تتفرس عيناه العمياوان في نقطة في المكان حين يتحدث، ويترجع صدى صوته الربوي في أرجاء الغرفة المليئة بأشياء مألوفة في حياته اليومية: طاولة صغيرة وضع عليها قدح فضي وقدح الماتي الذي يعود إلى جده، منضدة كتابة مصغرة مؤرخ عليها التناول الأول لوالدته، رفا كتب أبيضان يحملان موسوعات، خزانتا كتب واطئتان من الخشب الأسود. على الجدار لوحة معلقة بريشة شقيقته، نورا بورخس، تصور عيد البشارة، ونقش لبيرانيسي يظهر مباني دائرية غامضة. ممر قصير في أقصى اليسار يفضي إلى غرف النوم: غرفة نوم أمه، مليئة بصور فوتوغرافية قديمة، وغرفته، بسيطة مثل صومعة راهب، بسرير نوم حديدي، وخزانتي كتب وكرسي وحيد. على جدار غرفة نومه صحن خشبي عليه شعارات النبالة لمختلف مقاطعات

سويسرا، ونسخة من نقش "الفارس والموت والشيطان" لدورر، التي جعلها بورخس شهيرة في سونيتتين رائعتين.

لأن بورخس دعا الكون كتاباً، وقال إنه يتخيل الفردوس((في شكل مكتبة))، فإن زواره كانوا يتوقعون مكاناً مليئا على نحو وافر بالكتب، ورفوفاً طافحة، وأكداساً من المطبوعات تسد المداخل وبارزة من كل شق، غابة من حبر وورق. لكنهم عوضا عن ذلك، يكتشفون هذه الشقة المتواضعة حيث الكتب تحتل مكاناً متحفظا بترتيب. حين زار الشاب ماريو فارغاس يوسا بورخس في وقت ما في منتصف الخمسينيات، لاحظ محيطه الزاهد وتساءل لماذا لا يعيش الأستاذ في بيت مترف وفيه كتب أكثر. أحس بورخس بالإهانة من كلماته،((ربما يعيشون على هذا النحو هناك في ليما))، قال للبيرواني قليل التحفظ،((لكننا هنا في بوينس آيرس لا نحب التباهي)).

خزانات الكتب القليلة هذه، على أي حال، كانت مصدر فخر لبورخس،((سأفضي لك بسر))، قال لي ذات مرة،((أحب أن أتظاهر بأني لست أعمى، وأطمع بكتب مثل رجل يمكنه أن يرى. إنني حتى مغرم بموسوعات جديدة، وأتخيل أنه بوسعي تتبع مجاري الأنهر على خرائطها واكتشاف أشياء مدهشة في النص)). كان يمتعه أن يروي كيف كان في السابق، وهو طفل، يرافق أباه إلى المكتبة الوطنية، ولأنه أجبن من أن يسأل عن كتاب، فقد كان يتناول واحدا من مجلدات موسوعة البريتانيكا من الرفوف المفتوحة ويقرأ أول مقال يفتح بالمصادفة أمام عينيه. أحياناً يكون محظوظاً، لأنه إختار مجلد De–Dr وعرف عن درويدس، والدروز، ودرايدن. لم يتخل أبدا عن عادته بأن يسلم نفسه إلى المصادفة المرتبة للأنسيكلوبيديات، وكان يقضي ساعات عديدة متصفحاً (وشخص آخر يقرأ له)في مجلدات غارزانتي، والبروكهاوز، والبريتانيكا أو الإسباسا- كالبه.

وإذا ما عثر على معلومات مثيرة للاهتمام، فإنه يسأل قارئه أن يسجلها، بكتابة رقم الصفحة على ظهر المجلد الإلهامي.

الخزانتان الواطئتان في حجرة الجلوس تحويان أعمال ستيفنسون، وتشسترتون، وهنري جيمس، وكبلنغ، بالإضافة إلى "تجربة مع الزمن" لجي دبليو دن، وبضعة روايات خيال علمي لأتش جي ولز، و"حجر القمر" لولكي كولنز، وروايات متنوعة لإيسا كيروز في أغلفة صفراء كرتونية، وكتب من القرن التاسع عشر لكتّاب أرجنتينيين. هنا أيضاً كانت "أوليسيس" و"يقظة فينيغان" لجويس، و"حيوات متخيلة" لمارسيل شوب، وروايات بوليسية لجون دكسون كار وملوارد كندي وريتشارد هول، و"حياة على الميسيسبي" لمارك توين، و"مدفون حيا" لآرنولد بينت، وطبعة صغيرة لروايتي "سيدة في جلد ثعلب" و"رجل في حديقة الحيوان" لديفيد غارنيت، وهي مصورة وبحروف بارزة وناعمة، و Der Untergang des Abendlandes لشبنغلر، وعدة كتب مختلفة عن الرياضيات والفلسفة، بما فيها عناوين لسويندبرغ وشوبنهاور، وكتابه الأثير Wörterbuch der Philosophie لفريتز ماوتنر. بعض من هذه الكتب رافقت بورخس منذ صباه، وأخرى، تلك التي بالإنكليزية والإلمانية، تحمل بطاقات محلات بيع الكتب في بوينس آيرس حيث اشتراها، وكلها الآن اختفت، مثل محلات ميتشيل وررودريغز وبيغماليون.

خزانة الكتب في غرفة النوم تحفظ دواوين شعر وواحدة من أكبر مجموعات الأدب الأنجلو- ساكسوني والآيسلندي في أمريكا اللاتينية. هنا احتفظ بورخس بالكتب التي يحتاجها لدراسة ما يدعوه((الكلمات الخشنة والمجدة / التي، مع الشفاه تتحول إلى تراب، / أغمغم بها في زمن نورومبريا وميرسيا / قبل أن تصبح هاسلام أو بورخس))وهي: "المعجم الايتمولوجي"

لسكيت، نسـخة معـلق عليها بحـواشي من "معركة مالدون"، كتاب Altgermanische Religionsgeschichte لريتشارد ماير. الخزانة الأخرى فيها أشعار انريكه بانشس وهاينه وسان خوان دي لاكروز، وعدة كتب عن دانتي. الغائبون بشكل مبهم عن خزانة كتبه كانوا بروست، وراسين، و"فاوست" غوته، وملتون، والتراجيديات الإغريقية(التي قرأها بالطبع كلها وأشار إليها في كتاباته).

الغائب أيضاً كانت كتبه الخاصة. كان حين يسأله زواره أن يريهم طبعة مبكرة من أعماله، يجيب بفخر بأنه لا يملك بين كتبه نسخة واحدة تحمل إسماً، كما يقول،((سهل للغاية نسيانه)). في الواقع إنه لا يحتاج كتبه هذه، فهو حتى لو ادّعى أنه لا يتذكر، كان بوسعه أن يستشهد بمقاطع شعرية منها حفظها عن ظهر قلب منذ عشرات السنين، ويصحح ويغير في ذاكرته كتاباته الخاصة، وغالباً وسط ذهول وبهجة سامعيه. بعد وقت قصير من وفاته، تبرعت أرملته، ماريا كوداما، بالجزء الرئيسي من كتبه إلى مؤسسة في بوينس آيرس تحمل اسمه، وبين وقت وآخر كانت تظهر كتباً له في معارض نظمت تكريماً له. راقدة مفتوحة في خزائن زجاجية، منتزعة من محيطها، مكرّمة لكنها غير مقروءة ــ أشياء مأتمية أكثر منها موّردة كلمات، مرحّلة من وطنها بعد موته ــ كتب بدت وكأنها تعاني نفس مصير أرامل وخدم أولاء الملوك القدماء الذين يتبعون سيدهم إلى القبر.

غرفة المكتب، تعير مالكها، قارئها المميز، ما دعاه سينيكا euthymia، كلمة إغريقية وضح سينيكا أنها تعني "رفاهية الروح"، والذي ترجمها إلى كلمة " tranquillitas ". في النهاية، كل غرفة مكتب تتوق إلى إيثميا. إيثميا، ذاكرة غير محرّفة، حميمية وقت القراءة ــ فترة سرّية أثناء اليوم العادي ــ هذا ما نسعى إليه في مكان خصوصي للقراءة. وفقاً لبليك،

ثمة لحظة في كل يوم لا يمكن للشيطان أن يعثر عليها،
ولا أتباعه الأشرار يمكنهم العثور عليها، لكن المجدّين يعثرون عليها
هذه اللحظة، تتضاعف حين يُعثر عليها مرّة
إنها تتجدد في كل لحظة من اليوم لو وضعت في مكانها الملائم.

رغم أننا نبحث في المقام الأول عن إيثميا في هذه النوع من اللحظات السرية، فإنه بوسعنا أحيانا أن نكتشفها في مكان مشترك لمكتبة عامة. في القاهرة المملوكية، في القرن الخامس عشر، برغم ان أغلب العلماء كانوا يعملون في غرفهم الشخصية، فقد كان يتم حث القرّاء الأقل شأنا على ارتياد المكتبات العامة في المدارس والجوامع. هناك كانت الكتب متاحة للذين لا يمكنهم شراؤها، وبوسعهم نسخ ما يرغبون من أعمال لاستخدامهم الخاص، سواء لحفظ النصوص عن ظهر قلب أو لدراستها على مهل في أوقات الفراغ. مع أن العالم ابن جماعة، من القرن الثالث عشر، كان ينصح الطلاب بشراء الكتب متى ما كان ذلك ممكناً، لكنه كان يعتقد بأن الأمر الأكثر أهمية هو أن((يحملوها في قلوبهم))، لا لمجرد وضعها على رف. نسخ النصوص يساعد المرء على إيداعها في الذاكرة، بذلك(كما أعتقد)يتم بناء نوع من مكتبة موازية لتلك التي من حبر وورق.

((ينبغي على طالب العلم أن يحمل معه دائماً دواة، كي يكون في مقدوره كتابة الأشياء النافعة التي يسمعها))، كما نصح ابن جماعة. من المفهوم أن النص المكتوب يدعم النص المحفوظ غيبا، لأن((ما يحفظ في الذاكرة فقط معرض للضياع، وما يكتب يبقى)). (نسخة إسلامية للمقولة اللاتينية verba volant, scripta manent). وفقاً لابن جماعة فن الذاكرة يماثل فن العمارة، لأنه يمكن للقارئ من خلال ممارسته هذا الفن أن يبني لذوقه مكاناً خاصاً، مؤثثاً بمجموعة من التحف، معلناً ملكيته

للنصوص التي إنتقاها بطريقة عميقة ولا تقبل التغيير. لشحذ مهارة استظهار الكتب يُنصح باستخدام العسل، وتسويك الأسنان، وأكل خمسة وعشرين زبيبة في اليوم، بينما استهلاك الكزبرة والباذنجان تعَد مؤذية. نصح ابن جماعة أيضاً بعدم ((قراءة النقوش على المقابر، وعدم المشي بين جمال مقيدة في صف، وعدم نفض القمل بعيدا))، فكلها أفعال تحد من الذاكرة.

في نهاية القرن الخامس عشر، كان نيكولو ماكيافيلي، من أجل تمرين ذاكرته على حفظ الكتب التي عرفها أفضل من غيرها، يفضل القراءة في مكتبه أثناء الليل، لأنه عندئذ سيكون من الأسهل عليه التمتع بالصفات التي كانت برأيه تحدد بشكل أوضح العلاقة بين قارئ وكتبه: الحميمية والتفكير الهادئ.((حين يحل المساء))، كتب،((أعود إلى البيت وأقصد غرفة مكتبي. على العتبة، أتجرّد من ثياب العمل الموحلة، المتعرّقة، وأضع أردية البلاط والقصر، وبهذا اللباس الرزين أدلف إلى البلاط العتيق للأقدمين، فيرحبون بي، وهناك أتذوّق الغذاء الذي هو لي وحدي، ومنه ولدت. هناك تؤاتيني الجسارة لأتحدث معهم نداً لند وأسألهم عن دوافع أعمالهم، فيجيبوني رفقة بي. وفي غضون ساعات أربع أنسى العالم حولي، وأنفض عني هموم الحياة اليومية، ولا أعود أخشى الفقر، ولا أرتجف أمام المنية: أنا أولج عالمهم)).

المكتبة عقلاً

... أن تمنح شكلا مرئيا للحضور العقلي ولحركات الروح.

آبي فاربورغ، Ausgewählte Schriften

مثل ماكيافيلي، أجلس غالباً وسط كتبي في الليل، بينما أفضّل أن أكتب في الصباح. في الليل أنعم بالقراءة في الصمت المطلق، حين تشطر مثلثات الضوء التي يشكلها مصباح القراءة رفوف مكتبتي إلى نصفين. فوق، الصفوف العليا من الكتب تغيب في الظلمة؛ وتحت يبرز الجزء المفضل للعناوين المضاءة. هذا التقسيم الجزافي الذي يمنح كتباً معينة حضورا متوقدا ويبعد الأخرى إلى الظلال، يُبطَل بترتيب آخر، يدين بوجوده فقط لما تحويه ذاكرتي. مكتبتي ليس لها فهرس، فقد وضعت الكتب على الرفوف بنفسي، وأنا أعرف بوجه عام مكان كل واحد منها باسترجاع مخطط المكتبة في ذاكرتي، ولا يشكل الضوء والظل فرقاً كبيراً في استكشافي. الترتيب المتذكر يتبع نموذجاً في ذهني، هو شكل وتقسيم المكتبة، والأمر شبيه إلى حد ما بتحديق منجّم إلى النجوم ناظراً خلال نقاطها الضوئية إلى نماذج في ذهنه، وهكذا هي مكتبتي، انعكاس لنجوم عقلي، منجّمها البعيد. الترتيب العشوائي، لكنه المدروس أيضا، للرفوف، واختيار مواد الموضوع، والتاريخ الحميمي لحياة كل كتاب، وآثار أزمان معينة وأماكن معينة تُركت بين الصفحات، كلها تشير إلى قارئ خاص. ربما بوسع ملاحظ حاد النظر أن يحزر من أكون من رؤيته لنسخة مهلهلة من أشعار بلاس دي أوتيرو، ومن عدة مجلدات لروبرت لويس ستيفنسون، ومن الجزء الكبير المخصص للقصص البوليسية، ومن الجزء الصغير جداً المفرد لنظرية الأدب، ومن واقع أن هناك الكثير من بلاتو والقليل جداً من أرسطو على رفوفي. كل مكتبة هي بمثابة سيرة ذاتية.

في كاتدرائية سانت سيسيل في آلبي، في جنوب فرنسا، لوحة جصية من نهاية القرن الخامس عشر تصور مشهداً من يوم الحساب الأخير. تحت لفيفة نص مفتوحة تسير الأرواح المدعوة نحو مصيرها، كل منهم يحمل بإجلال على صدره كتابا مفتوحا. في هذا الحشد المنبعث من القرّاء، كان "كتاب الحياة" مقسّماً ومعاد إصداره كسلسلة من كتب منفصلة، ومفتوحة، كما نصَّ كتاب سفر الرؤيا، كي يتاح((محاكمة الموتى على أساس ما هو مكتوب في الكتب))الفكرة تتواصل حتى اليوم: كتبنا ستكون شاهدة معنا أو ضدنا، كتبنا تعكس من نكون وما كنا عليه، كتبنا تضم حصتنا من صفحات كتاب الحياة. بالكتب التي ندعوها كتبنا سنحاسَب.

ما يجعل المكتبة صورة منعكسة لمالكها ليس اختيار العناوين فحسب، بل شبكة الأفكار المترابطة التي ضمها الاختيار. تجربتنا بنيت على تجارب، وذاكرتنا على ذاكرات أخرى. كتبنا بنيت على كتب أخرى غيّرتها أو أغنتها، منحتها جدولا كرونولوجيا(تقسيم زمني)بمعزل عن كرونولوجيا المعاجم الأدبية. أنا الآن عاجز، بعد كلٰ هذا الوقت، عن اقتفاء أثر هذه الروابط بنفسي. لقد نسيت، أو حتى لا أعرف، بأي طريقة ترتبط كثير من هذه الكتب واحدها بالآخر. إذا ما تحركت في اتجاه واحد ـ القصص الأفريقية لمارغريت لورانس تستدعي إلى ذهني رواية " خارج أفريقيا " لإيساك دينيس، وهذه بدورها تذكرني بقصصها "سبع حكايات قوطية"، وهذه تعود بي إلى إدغاردو كوزارينسكي(الذي عرّفني على دينيس)وكتابه عن بورخس والسينما، والعودة أكثر إلى روايات روس ماكولاي، التي كان لنا، أنا وكوزارينسكي، نقاشا حولها ذات ظهيرة في بوينس آيرس منذ وقت طويل، وكل منا دهش أن يكون الآخر يعرفها ـ حينها سأفقد الخيوط الأخرى

لهذه الشبكة المعقدة، وأتساءل، مثل عنكبوت، كيف تسنى لي دوزنة هذا التباين الذي يبدو متعذراً على القياس، على سبيل المثال، من " تريستان " أوفيد إلى أشعار عبد الرحمن، المنفي إلى شمال أفريقيا من وطنه إسبانيا. إن الأمر ليس مسألة روابط تصادفية فقط. الكتب تتحول في التسلسل الذي يُقرأ بها. "دون كيخوته" الذي يُقرأ بعد "كيم"، و" دون كيخوته " الذي يُقرأ بعد " هكلبري فن " هما كتابان مختلفان، كلاهما تلوّن بتجربة القارئ في الرحلات والصداقة والمغامرات. كل واحد من كتب الكاليدوسكوب(المشكال) هذه لا تنقطع أبداً عن التغيّر، إذ إن كل قارئ جديد يضفي عليها تحريفاً آخراً، شكلاً مختلفاً. ربما كل مكتبة في النهاية لا يمكن تخيلها، لأنها، مثل العقل، تعكس نفسها، وتتضاعف هندسيا مع كل انعكاس جديد. ومع ذلك، من مكتبة كتب مجسمة نحن نتوقع صرامة نغفرها في مكتبة العقل.



اللوحة الجصية " يوم الحساب الأخير " في كاتدرائية سانت سيسيل في آلبي.

مثل هذه المكتبات العقلية المرنة ليست(أو لم تكن) استثنائية، ففي الإسلام كانت نموذجية. وبرغم أن القرآن كتب مبكراً، فإن أغلب الأدب العربي القديم كان مودعاً لوقت طويل في ذاكرة قرّاءه. على سبيل المثال، بعد موت الشاعر العظيم أبو نوّاس في عام ٨١٥، لم يُعثر على أي نسخة من عمله، فقد كان الشاعر يحفظ كل قصائده غيباً، ومن أجل تدوينها على الورق لجأ الكتاّب إلى ذاكرة هؤلاء الذين استمعوا إلى المعلم. دقة الذاكرة كانت تعَد مهمة بشكل أساسي، وطوال العصور الوسطى الإسلامية، كان التعلم عن طريق الاستماع إلى الكتب التي تقرأ بصوت مرتفع يُعَد أكثر قيمة من الدراسة الشخصية، لأن النص حينها سيدخل الجسم من خلال العقل لا من خلال العينين فقط. لم ينشر المؤلفون أعمالهم بتدوينها بأنفسهم بقدر ما نشروها بإملائها على مساعديهم، وكان الطلاب يتعلمون بالاستماع إلى هذه النصوص تتلى عليهم أو يقرؤوها بصوت عال أمام مدرس. بسبب الاعتقاد الاسلامي بأن النقل الشفاهي هو الذي كان فقط شرعياً بحق، صارت الذاكرة(ليس تمثيلها المادي بهيئة كلمات وكتب ومخطوطات مجسمة، برغم أن هذه كانت مهمة أيضاً لتحفظ بشكل كامل في المدارس والجوامع)تعَد المستودع الأكثر أهمية لمكتبة. "المكتبة " و"الذاكرة" كانتا، إلى حد ما، مترادفتين.

وعلى الرغم من ذلك، ومهما كانت قراءتنا منتبهة، تكابد النصوص المتذكرة غالبا تغيرات غريبة، فهي تتفكك، وتذوي أو تغدو طويلة على نحو لا يمكن تصوره. في مكتبتي العقلية تتضاءل " العاصفة " إلى بضعة سطور خالدة، بينما رواية قصيرة مثل "بدرو بارامو" لخوان رولفو تتمدد وتهيمن على كل مخيلتي عن الريف المكسيكي. بضعة جمل من جورج أورويل في مقالة " أطلق النار على الفيل" تتوسع في ذاكرتي إلى عدة صفحات من الوصف والتأمل، وأعتقد أن بوسعي رؤيتها في ذهني، مطبوعة على الصفحة، في حين

من الرواية القروسطية الطويلة جداً "القلب المفترس" لا أتذكر سوى العنوان.

لا المكتبة الراسخة على رفوفي ولا تلك المتغيرة في الذاكرة تملكان سلطة مطلقة لزمن طويل. مع الوقت، متاهات المكتبتين تتمازج على نحو مبهم. وعبر ما يدعوه علماء النفس مثابرة الذاكرة(الظاهرة العقلية التي تفهم بواسطتها فكرة معينة كحقيقة حتى بعد أن يُثبت خطأها)، غالباً ما تقهر مكتبة العقل مكتبة الورق والحبر.

هل من الممكن إنشاء مكتبة تحاكي هذه الترتيب النزوي، الترابطي، الذي قد يبدو للشخص غير المطلع توزيعاً عشوائياً للكتب، بالرغم من انه في الواقع يتبع تنظيماً منطقياً، إن لم يكن شخصيا للغاية؟ لا يمكنني أن أفكر بمثال واحد على الأقل.

ذات يوم من عام ١٩٢٠، دُعي الفيلسوف أرنست كاسيرر، المعين حديثاً لكرسي الفلسفة في جامعة هامبورغ الجديدة وكان يعمل في الوقت نفسه على عمله الأول المبتكر " فلسفة الأشكال الرمزية "، إلى زيارة مكتبة فاربورغ الشهيرة، التي أنشأها قبل ذلك بثلاثين عاما آبي فاربورغ. وفقاً لتصور فاربورغ عن الكون، كانت كتب الفلسفة في المكتبة موضوعة إلى جانب كتب التنجيم، والسحر والفولكلور، وكتب الفن إلى جانب أعمال الأدب والدين، بينما كانت كتيبات عن اللغة تجاور مجلدات اللاهوت، والشعر. اقتيد كاسيرر، عبر المجموعات المنظمة بطريقة فريدة، من قبل مساعد مدير المكتبة، فريتز ساكسل، وفي نهاية الجولة التفت إلى مضيفه وقال، ((سوف لن أعود إلى هنا ثانية أبدا. إذا رجعت إلى هذه المتاهة، سأنتهي إلى الضياع)).

بعد سنوات، فسّر كاسيرر حيرته: ((مكتبة [فاربورغ] ليست مجرد مجموعة كتب، بل هي فهرست مشاكل. وليست الحقول الموضوعاتية للمكتبة هي التي أثارت بيَ هذا الانطباع الغامر، بل مبدأ التنظيم، مبدأ أهم

بكثير من حجم الموضوعات. هنا لم تكن كتب تاريخ الفن، وتاريخ الأديان والأساطير، وتاريخ اللغات والثقافة، موضوعة جنباً إلى جنب فحسب، بل مرتبطة الواحدة بالأخرى، وكلها مرتبطة في المقابل بهدف مركزي واحد)).
بعد موت فاربورغ عام ١٩٢٩، قارن كاسيرر رفوف قاعة القراءة في المكتبة، التي بنيت لتتبع الشكل البيضي للجدران، بـ((نفس ساحر)). بالنسبة لكاسيرر، كتبُ فاربورغ، رُتبت وفقاً لتعقيد أفكاره، وكانت، مثل كتب بروسبيرو، معقلاً للقوة العقلية لحياته.



آبي فاربورغ يقرأ.

ولد آبي فرابورغ في هامبورغ في ١٣ حزيران ١٨٦٦، وهو الابن البكر لمصرفي يهودي. يبدو في الصورة رجلاً قصير القامة، خجول المظهر بعينين قاتمتين كبيرتين. في استبيان تخيله هو ذات مرّة على سبيل التسلية، وصف

نفسه على النحو التالي: ((سيد ضئيل الحجم بشاربين، يروي أحياناً قصصاً باللهجة المحلية)). لعجزه عن ترويض نفسه على الإذعان لمطالب أبيه بالإلمام باليهودية الآرذوكسية ومهنة العائلة المصرفية معاً، عانى فاربورغ من نوبات طويلة من الحَصَر النفسي والسوداوية. وعلى سبيل التعويض، خاض تجربة الحياة في الكتب، وصار مهتما بعمق بالفلسفات القديمة للإغريق والرومان، وفي ثقافات عصر النهضة، وفي حضارات سكان أمريكا الأصليين وفي الديانة البوذية. كان يبدو عاجزاً عن القبول بالإكراه الذي يفرضه الانضباط في المدرسة وفي عالم الأفكار. كل مشاريعه سيطر عليها فضول انتقائي.

شغفه بالكتب والصور بدأ منذ طفولته. من بين التجارب الفكرية الأولى في حياته التي بوسعه تذكرها، كانت رؤيته في عامه السادس للرسومات المدهشة لكتاب بلزاك " التعاسات الصغيرة للحياة الزوجية ". في هذا الكتاب ثمة مشاهد ميلودرامية من حياة عائلة، نتبين فيها نساء باكيات، ورجالا غاضبين، وأطفالاً يصرخون، وخدم لاهين، وعلى الجملة شقاء الحياة الزوجية البرجوازية. غدا الفتى موسوساً بهذه الصور وسكنت أحلامه مراراً. بعد سنوات قليلة، بدأ يلتهم الكتب، ((قصص مليئة بالهنود الحمر))، هذه الصور والمغامرات وفرت، كما يذكر في ما بعد، ((وسيلة لإبعادي عن الواقع الكئيب الذي كنت أعيش فيه يائسا تماما)). لم يكن فاربورغ قادرا على التعبير عن غضبه وإحباطه، أو ما كان يدعوه عاطفة الألم، فبحث ووجد ((متنفسا في الخيالات عن الوحشية الرومانسية. كان هذا لقاحاً ضد الوحشية القائمة فعلاً)). أقرانه يتذكرونه دائماً محاطا بالكتب، قارئاً كل قطعة ورق يجدها أمامه، حتى الموسوعة العائلية، قرأها من الجزء الأول حتى الأخير.

ليس فقط القراءة بل إن جمع الكتب غداً لفاربورغ حاجة حيوية. في سن

الثالثة عشرة، عقد العزم على أن لايتبع مهنة والده ولا ديانة أهله، فقدم المراهق النهم عرضاً لأخيه الأصغر ماكس يتضمن حقوقه في الولادة: يتبادل معه الإمتياز، كإبن بكر، بالعمل في شركة العائلة، مقابل وعد من ماكس بشراء كل الكتب التي يرغب بها فاربورغ في المستقبل. وافق ماكس، البالغ من العمر إثنا عشرة عاماً، على العرض. منذ ذلك الحين تجمعت كتب كثيرة بالدعم المالي الذي قدمه ماكس المخلص، وشكلت ذخيرة مكتبة فاربورغ.

ولع فاربورغ بالجمع لم يكن أبداً اعتباطياً. بالعكس، إذ بدا منذ بداياته المبكرة، أن قراءاته كانت موجهة نحو مسائل معينة ومحددة. يدرك الكثير منا حين ننظر إلى الماضي، وبشيء من الدهشة أن بداية الإهتمام في أول كتبنا لا يغدو واضحا إلا بعد فترة طويلة، لكن هذا الاهتمام كان قد شغلنا طويلا قبل أن نعبر عنه بكلمات كما يبدو. الأحاسيس التي في كتب طفولة فاربورغ وجدت لها في النهاية تفسيراً في " لاكون " لغوتهولد إفرايم ليسنغ. نص كلاسيكي قرأه للمرة الأولى حين دخل إلى جامعة بون في عمر العشرين. "لاكون" ليسنغ غدا بالنسبة له وسيلة اختبار سحرية.((يجب أن يكون المرء شاباً))، كتب الشاب غوته قبل ذلك بستين سنة،((كي يفهم التأثير الذي تركه لاكون ليسنغ علينا جميعا، فقد انتشلنا من سلبية التفكير وفتح ممالك جديدة وحرة للفكر. إن " ut pictura poesis" [المقارنة الكلاسيكية بين جماليات الرسم وجماليات الشعر]، التي أُسيء فهمها لزمن طويل جداً، تم تجاهلها فجأة، إذ إن قمتيّ هذين الفنين تبدوان لنا مختلفتين جداً، مع أنهما يبدوان قريبين جداً في القاعدة)). في عمل ليسنغ لم يتعرّف الشاب فاربورغ على قوة الحجة التي حاولت أن تستكشف النظام الإبداعي المختلف للصور والكلمات، بل الأهم من ذلك فكرة بأن كل عصر يحيي لأسباب خاصة

به جانبا تقليدياً يبني عليه الرمز والمعنى الخاصين به، وسيدعو هذه الفكرة في ما بعد((إحياء العصور القديمة، مشكلة طبيعة تاريخية مجرّدة)). المسألة التي بدأت تتشكل أمام فاربورغ هي كيف تجددت رموزنا الأكثر قدما في مختلف العصور، وكيف أن تجسداتها ارتبطت وانعكست ببعضها البعض. واحدة من الكلمات الرنانة في تطوره الفكري كانت Kompatibilität، انسجام ــ خبرة عبر الترافق ــ لذا ليس من المستغرب انه اختار أن يفسر مكتبته الخاصة بتعريف استعاره من الناقد إيوالد هيرنغ. بالنسبة لفاربورغ، كانت مكتبته ذاكرة، لكن((ذاكرة كمادة منظمة)).

المكتبة التي بدأ فاربورغ بجمعها في صباه، والتي نقلت في عام ١٩٠٩ إلى بيته الجديد في شارع هايلفيغشتراسه في هامبورغ، كانت قبل كل شيء مكتبة شخصية، اتبعت نظام فهرست خواصي وفريد. خلال نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، ثار جدل في ألمانيا حول الطريقة المثلى في تنظيم مكتبة. الأطراف المعارضة دعت، من جانب، إلى ترتيب هرمي للموضوعات يقود القارئ من حقل معرفة إلى آخر، ودعت من جانب آخر، إلى ترتيب مبني على حجم الكتاب وتاريخ اكتسابه.(الترتيب الأخير كان، بالمصادفة، نظاما استخدم بنجاح في عدد من المكتبات في القرون الوسطى). بالنسبة لفاربورغ، كانت الطريقتان غير مرضيتين. لقد أراد لمجموعته طريقة مرنة وحيوية، لا تسمح التقيد بالموضوع ولا بقيود التسلسل الزمني. كتب فريتز ساكسل في ١٩٤٣، عن الكيفية التي ابتكر بها فاربورغ فكرة الفهرسة الميكانيكية، التي حلت، في عصر تنامي إنتاج الكتب، محل((الألفة الأكثر ثقافة التي يكتسبها المرء بتصفح كتب في مكتبة)). وفقاً لساكسل،((لقد أدرك فاربورغ الخطر)وتحدث عن ((قانون الجيرة الطيبة)). فالكتب المألوفة

للمرء لم تكن، في أكثر الحالات، هي الكتب التي يحتاجها. إنه الجار غير المعروف على الرف هو الذي يتضمن معلومات لا غنى عنها، حتى لو لم يُستدَل على هذا من عنوانه مباشرة.((كانت الفكرة الطاغية أن كل الكتب سوية ــ كل كتاب يشتمل على مساهمته الكبيرة أو الصغيرة في المعلومات، والتي يكملها جاره الكتاب الآخرــ يجب أن تقود الطالب من خلال عناوينها إلى إدراك القوى الأساسية لتطور العقل البشري وتاريخه. كانت الكتب بالنسبة لفاربورغ أكثر من مجرد وسائل للبحث. فهي مجمعة ومرتبة، تعبرعن الفكر الإنساني في ثباته وجوانبه المتغيرة)).

ليست فقط الكتب. كان لفاربورغ ذاكرة استثنائية للصور، وكان بمقدوره أن يحوك أنسجة معقدة مزدانة بالصور من الروابط الأيقونية التي حاول بعد ذلك أن يتناولها في مقالات غير كاملة. بينما كان مستغرقا في قراءة الفهارس الأثرية، دوّن باختصار، على بطاقات صغيرة، العناوين التي لفتت انتباهه، وأرفقها بتعليقات مكثفة، بأسلوب دعاه "أسلوب عصيدة الانقليس"، وحفظها في صناديق منفصلة طبقاً لنظام معقد(ومتنوع). هؤلاء الذين يعرفونه تحدثوا عن "الغريزة" التي قادته إلى تأليف ببليوغرافيا مهة حول أي موضوع أثار إهتمامه في ذلك الوقت، غريزة أرشدته إلى تنظيم(والاستمرار بإعادة تنظيم)الكتب على الرفوف، تبعاً لنماذج الأفكار التي كان يسعى إليها في لحظة معينة. المكتبة، كما تخيلها فاربورغ، هي قبل كل شيء تكديس لترابطات، كل ترابط يفضي إلى ترابط آخر مع صورة أو نص جديد، حتى تعود الترابطات بالقارئ إلى الصفحة الأولى. بالنسبة لفاربورغ، كل مكتبة هي دائرية. أهدى فاربورغ مكتبته،(التي دعاها die kulturwissenschaftliche Bibliothek Warburg، مكتبة فاربورغ للعلم الثقافي)لآلهة الذاكرة الإغريقية منيموسين، أم ربات الفن.

حسب فاربورغ، تاريخ الجنس البشري هو عبارة عن تغير متطور باستمرار حاول أن يمنح لغة وشكلاً لتجارب قديمة، عامة أكثر منها فردية، انطمرت في الذاكرة الجمعية. مثل أكثر علماء جيله، تأثر فاربورغ بنظريات طبيب الأمراض العصبية الألماني ريتشارد سيمون، الذي دعا إلى نظرية نفسية للعواطف. وفقاً لسيمون، الذاكرة هي الخاصية التي تميز المادة الحية عن المادة الميتة. أي حدث يؤثر في المادة الحية يخلف أثراً، أطلق عليه سيمون "الأثر المخلف"(في الدماغ نتيجة تجربة ما)، ويمكن أن يكون حياً عندما نتذكره. برأي فاربورغ، هذه الآثار المخلفة كانت في الواقع رموزاً نقية وحية في قلب كل ثقافة، والسؤال الذي شغله هو الأسباب التي تجعل من فترة معينة(عصر النهضة،على سبيل المثال، أو عصر التنوير)أكثر تأثراً ببعض هذه الرموز، أو ببعض جوانبها، التي شكلت تعبير وأسلوب أدب هذه العصور وفنونها. بسبب قوتها التسلطية، وصف فاربورغ، بشكل مدهش، هذه الذاكرة الفعالة بـ((قصة أشباح موجهة للكبار)).

ماذا عن المكتبة نفسها؟ ماذا كانت تشبه وهي شاخصة وسْط ما قارنه كاسيرر بمعقل بروسبيرو؟ أغلب المكتبات تعطي انطباعا بترتيب نظامي، بتنظيم يتبدا في سلسلة موضوعات أو أرقام أو حروف أبجدية. مثل هذا النظام لا يظهر في مكتبة فاربورغ. حين زرت قاعة القراءة التي أعيد بناؤها في هامبورغ(تضم اليوم جزءاً صغيرا فقط من كتبه)،وتقصّيت الرفوف المدوّرة في القاعة المركزية البيضاوية، انتابني شعور بالاندهال، إذ بدا الأمر وكأنه يشبه الوقوف وسط مدينة أجنبية علامات الطريق فيها ترمز بلا شك إلى شيء، لكني أعجز عن سبر غور معناها. أوحت الرفوف للعين بترابط دائم من العناوين، لا بترتيب خطي ببداية ونهاية. فكرياً كان من الممكن لي إيجاد

أسباب للتقارب بين أي عنوانين، لكن هذه الأسباب قد تكون متنوعة جداً أو قد تبدو بعيدة الاحتمال جداً، بحيث لا أستطيع أن أربط ذهنيا بينها وبين التسلسل التقليدي ـ مثل M تلي L أو ٢٩٩ يسبق ٣٠٠. نظام فاربورغ كان أقرب إلى مقطع شعري. قراءة المقطع((متألق هو خاتم الكلمات))على صفحة ما توحي بفهم فوري وتام لصورة شعرية. القارئ لا يحتاج إلى تفسير، فالسطر يستدعي تصوراً لحظياً وكاملاً عن فعل القراءة، من خلال الكلمات والموسيقى المستنبطة. لكن إذا ما طرح الشاعر أمامنا بشكل واضح كل الروابط بين الطرق الفرعية والتعرّجات الناشئة من صلته غير القابلة للوصف والبديهية مع جوهر الشعر ـ إذا ما حاول أن يجعل كل التلميحات والروابط مرئية لنا ـ فإن مثل هذا الفهم سيفوتنا. وهكذا هو الأمر مع مكتبة فاربورغ.

لكن فاربورغ لم يسمح لهذه الروابط أن تبقى غير مرئية، ولم يعتبرها إلا كتغير دائم، لذا فقد بنى مكتبته في مكان غيرمقاطع بزوايا حادة قد تعيق قابلية التنقل اللانهائية. بمعنى ما، مكتبته كانت محاولة للكشف عن الأعصاب المجردة لفكره، بكل عريها، ومحاولة لخلق مجال لأفكاره كي ترتحل، وتتغير، وتتوالد. إذا كانت معظم المكتبات في زمنه تبدو مثل واجهة عرض لعالم حشرات فيها عينات مشّبكة بدبابيس وملصوق عليها رقع من ورق، فإن مكتبة فاربورغ تظهر لزوارها مثل علبة طفل زجاجية لمستعمرة نمل.

في ربيع ١٩١٤، قرر فاربورغ خضوعا لرغبة زملائه، أن يفتح مكتبته للعلماء والباحثين،وأنشأ إضافة إلى ذلك نظام مُنح يساعد الطلاب على المجيء إلى هامبورغ للعمل. قبل ذلك بأربعة عشر عاماً، كان قد أشار للفكرة باحتراس إلى أخيه ماكس، لكنه الآن قرر العودة إلى مشروعه الضخم،

وناقش إمكانياته مع فريتز ساكسل. لقد فكر بالأمر وهو لا يشعر برغبة حقيقية به، لأنه، كما اعترف، كان يكره فكرة التخلي عن مملكته الفكرية الخاصة التي أنشأها بجهد عظيم. مع هذا فقد أدرك بأن افتتاح المكتبة كانت خطوة ضرورية في محاولته لوضع الإرث الرمزي المعقد للجنس البشري على الخارطة،((الحياة الآخرة للعالم القديم)).

لكن الحرب العالمية الأولى وضعت حداً، مؤقتاً، لهذه الخطط. في وسط جو الخوف والفوضى الذي ساد في ذلك الوقت، بدأ فاربورغ، الذي عانى على نحو متقطع من الحَصَر النفسي والكآبة منذ طفولته، يعرف بالحدس الانسجام الكئيب بين حالته العقلية وحالة العالم.((مثل مرسمة زلازل، بدأت أعصابه الحساسة تسجل رجفات الأرض، التي بقي الآخرون إزاءها صمّا تماما)). كما كتب واحد من معاصريه. عندئذ اعتبر فاربورغ بحثه عن الروابط بين التمثيلات الرمزية المغرقة في القدم لدوافعنا ومخاوفنا اللامنطقية وبين التجليات الفنية لهذه الرموز التي ظهرت لاحقاً، كتوتر انعكس في صراعه العقلي الخاص. كان يحاول أن يؤمن بأن العلم، بتسجيله تاريخ تحولات ردود أفعالنا الرهابية، سيجد في النهاية على نحو معقول تفسيرات لخبراتنا العاطفية البدائية التي من الممكن فهمها. بدلاً من ذلك، رأى أن العلم كتجسّد حديث بنى آلة حربية، حتى أكثر تقدماً، مع غاز الخردل والخنادق المميتة.

في واحدة من قطعه(التي أضاف إليها هذه التميمة: "عش حياتك ولا تؤذيني")كتب التالي:((نحن نعيش في عصر فاوست، عصر سعى فيه العلماء الحديثون ـ بين التطبيق السحري والرياضيات ـ إلى فتح مملكة العقل التأملي من خلال وعيٍ متزايد بالمسافة بين الذات والعالم الخارجي)).

نهاية الحرب في ١٩١٨، جلبت له شيئاً من الفرج. بعد سنتين بدت المسافة في نظره أنها تلاشت بشكل كلي تقريباً.

حين أدرك فاربورغ، عام ١٩٢٠، بأنه لا مفر من فتح مكتبته أمام الجمهور الواسع من الدارسين، ولعجزه عن تحمل الألم النفسي المبرّح طويلاً، دخل المصح المشهور للطبيبين السويسريين أوتو ولودفيغ بنسوانغر في كروزلنغن، الذي تعالج فيه فريدريش دورنمات قبل ذلك بثلاثين عاماً. بقي هناك حتى العام ١٩٢٤.((لماذا))، تساءل حينئذ،((ينفي القدر بشراً مبدعين إلى مملكة القلق الخالد، ولماذا عليه هو نفسه أن يختار لهم أين سيقع تكوينهم الفكري: في الجحيم أو المطهر أو الفردوس؟)).

أثناء إقامته في المصح، حيث قضى وقتا من الشفاء البطيء، حاول تجميع نفسه ثانية ولملمة ذهنه المبعثر الذي تجزأ إلى آلاف الصور والمدونات المتفرقة. ((الله يكمن في التفاصيل))، عبارة غالبا ما كان يرددها. مع ذلك فقد أحسّ ـ مثل روسو، الذي قال،((في التفاصيل موتي))بأنه لم يعد بمستطاعه جمع الخيوط الكثيرة للصور والأفكار، التي سعى إليها يوما، مع بعضها البعض. لكن بفضل عناية الطبيبان بنسوانغر بدأ يشعر انه تعافى من جديد، وفي عام ١٩٢٣، سأل مسؤولي المصح عن إمكانية إطلاق سراحه من المصح، في حال أثبت استقراره العقلي. اقترح عليهم أن يخاطب مرضى المصح، فقدم في ٢٣ نيسان محاضرة عن طقوس الشيطان لسكان أمريكا الأصليين التي شهدها في أمريكا الشمالية حين كان شاباً. في ذلك الوقت كتب في دفتر ملاحظاته، بأنه بدأ يرى نفسه مثل بيرسوس، قاتل ميدوسا ذات الرأس الشيطانية، الذي، أثناء صراعه معها، تفادى التحديق مباشرة في العينين الخطرتين للمرأة الوحش، حيث كان ينظر إلى صورتها المنعكسة على درعه. كما كتب أيضاً،

أنه في العصور الوسطى، أنزلت مرتبة بيرسوس من بطل إلى مجرد عرّاف، حتى استرد مكانته في ما بعد، في عصر النهضة، كرمز للإنسان البطل.

بعد أن غادر فاربورغ المصح عام ١٩٢٤، اكتشف أن ساكسل، بالاتفاق مع عائلته، حوّل أخيراً المكتبة إلى مركز أبحاث كما كان مخططاً لها. هذا التغير، رغم أنه كان متوقعاً، كدره جداً وجعله يشعر أنه تضاءل.((فاربورغ العائد إلى الحياة))، هكذا وقع واحدة من رسائله في ذلك الوقت. بالرغم من ذلك أمدّه هذا التحوّل بـ((طاقة هائلة))، فبدأ ثانية العمل بنشاط، في ظل هذه الظروف الجديدة، متوسطاً كتبه الحبيبة.

يمكن لأي زائر يتجول في مكتبة فاربورغ، أن يلاحظ أن إبداعه، بمفهومه الحقيقي، كان مرئياً بشكل واضح. شكل الرفوف، والعناوين المترابطة التي وضعت فيها، والرسومات والصور الفوتوغرافية التي كست القاعات، كلها تنطق باهتمامه بالتمثيل المادي للأفكار والرموز. مصادر أسئلته كانت صوراً، وكتبا تتيح له أن يعكس هذه الصور، وتزوده بكلمات تقيم جسراً من الصمت بينهما. الذاكرة، وهي كلمة السر في مفردات فاربورغ، كانت تعني قبل كل شيء ذاكرة الصور.

مشرع فاربورغ غير المنتهي وغير القابل للانتهاء، كان سلسلة أيقونية عظيمة دعاها " منيموسين "، وهي مجموعة ضخمة من الصور تحدد، عبر نسيج مزدان بالصور المترابطة، الآثارالعديدة التي يتعقبها طالب العلم. لكن كيف يتم عرض هذه الصور؟ كيف يضعها أمامه ليتم دراستها بالتسلسل، وهو تسلسل يمكن أن يكون متنوعا طبقا لأفكار جديدة وروابط مكتسبة حديثاً؟ حل هذه المشكلة تم على يد ساكسل. بعيد عودة فاربورغ إلى هامبورغ، التقاه ساكسل وعرض أمامه ألواحاً خشبية كبيرة، مثل السبوارت القائمة،

نشر فوقها قطعة من قماش الخيش الأسود، يمكن تثبيت صور فاربورغ بدبابيس عليها، ويمكن أيضاً إزالتها بسهولة متى ما أراد أن يغير من وضعياتها. هذه اللوحات العملاقة، وهي "صفحات" كتاب لا نهائي من سلسلة متنوعة، صارت محور نشاط فاربورغ في السنوات الأخيرة من حياته. وحيث كان بوسعه أن يغير كل الألواح والصور التي عليها كما يحلو له، فقد تحولت إلى رسوم توضيحية مادية لعالم أفكاره ولمكتبته، وقد أضاف عليها دفقات من الملاحظات والتعليقات.((هذه الصور والكلمات قصد منها أن تكون عوناً لهؤلاء الذين سيأتون من بعدي، في مسعاهم لبلوغ الوضوح))، كتب فاربورغ،((وبالتالي لقهر التوتر التراجيدي بين السحر الغريزي والمنطق غير المتماسك. إنها عبارة عن اعترافات شخص مصاب بفصام(مزمن)، مودعة في أرشيف معالج عقلي)). في الواقع، ألواح ساكسل ـ كتاب من صفحات متحوّلة عملاقة ـ أعادت إلى فاربورغ، إلى حد ما، فضاءه الشخصي المفقود، فقد كانت ميدانا شخصيا ساعده على استرداد جزءاً من صحته العقلية.

توفي آبي فاربورغ في عام ١٩٢٩، عن عمر الثالثة والستين. بعد ثلاث سنوات من وفاته، نشر مجلدان من أعماله في ألمانيا، وكانا آخر ما نشر له في وطنه حتى زمن طويل. كتاباته، المؤلفة من قطع حول مواضيع مختلفة، هي أيضاً نسخة أخرى من مكتبته، تمثيل آخر لتعقيدات فكره، خارطة أخرى لعقله الاستثنائي. لقد أراد لحدسه أن ينتهي في قوانين علمية، إذ كان يريد أن يؤمن بأن الإثارة والدهشة في الفن والأدب كانتا خطوتين أساسيتين نحو فهم السبب والوظيفة. مع ذلك، فإنه عاد إلى فكرة الذاكرة كرغبة، والرغبة نفسها كمعرفة. في واحدة من قطعه كتب،((إن العمل الفني هو شيء عدائي يتحرك باتجاه المتلقي)). مع مكتبته حاول أن يبدع فضاءً لا يكون فيه ذلك

العداء مروّضاً(شيء أدرك أنه لا يمكن أن يحدث دو، تدمير)، لكنه ينعكس مرتداً بمحبة، مع فضول واحترام وخشية، كمرآة لعقله الفريد الذكي.



واحدة من ألواح "منيموسين" لفاربورغ.

في عام ١٩٣٣، إثر تولي هتلر منصب مستشارية الرايخ، هاجرت مكتبة فاربورغ وطاقمها إلى إنكلترا. ستمئة صندوق من الكتب، إضافة إلى أثاث ومعدات شحنت عبر البحر إلى لندن. أود أن أتخيل المراكب العديدة، التي تمخر عباب البحر محملة بالمجلدات التي جُمعت على مدى السنين، على شكل بورتريه مجزء لصاحبها، القارئ الذي هو الآن ميت، لكنه موجود

في التمثيل المفكك لمكتبته الراحلة كي يعاد تشكيلها في بلد غريب. خُزنت الكتب أولاً في مبنى تشغله مكاتب حكومية في ميلبانك، ثم بعد ثلاث سنوات وافقت جامعة لندن على إيواء المجموعة، لكن لم يعاد بناء الرفوف البيضاوية. في ٢٨ تشرين الثاني ١٩٤٤ اندمجت في النهاية مؤسسة فاربورغ مع الجامعة، حيث ما زالت إلى اليوم تؤدي عملها. بعد واحد وخمسين سنة، تم بناء نسخة عن منزل فاربورغ في هامبورغ على موقع بيته القديم في هايلفيغرشتراسه، وتمت محاولات، بناءً على صور أصلية، لإعادة بناء الرفوف وعرض جزء من مجموعته، بحيث يمكن لزائر البيت أن يقف لحظات في قاعة القراءة ويشعر بأن عقل فاربورغ ما زال يعمل وسط رفوفه المتغيرة، التي لا يطالها النسيان.

المكتبة جزيرة

رجل عجوز، هو دائماً كروسو.

فرانسوا مورياك، مذكرات باطنية جديدة

قبل أكثر من ثلاثمئة عام من عبور مكتبة فاربورغ البحر، مكتبة أخرى أكثر تواضعا تحطمت بها سفينة على ساحل جزيرة مقفرة في مكان ما جنوب الباسفيك. في يوم من بداية أيام تشرين الأول من العام ١٦٥٩، عاد روبنسون كروسو إلى البقايا التالفة لمركبه الغريق في البحر، وتدبر أن يجلب معه إلى الشاطئ عدداً من الأدوات وأنواعاً مختلفة من الطعام، بالإضافة إلى ((بضعة أشياء غير ذات قيمة كبيرة))مثل أقلام ودواة حبر ومجموعة صغيرة من الكتب. عدد من هذه الكتب كان باللغة البرتغالية، واثنان كانا((كتب صلوات كاثوليكية))، وثلاث((نسخ جيدة من الكتاب المقدس)). بعد((حريته المروّعة))كان كروسو فزعاً من الموت جوعاً، لكن حين لبت حاجاته المادية الأدوات والأغذية التي عثر عليها في الحطام، اتجه إلى تسلية نفسه من خزين السفينة الهزيل من الكتب. كان كروسو مؤسساً ـ رغماً عنه ـ لمجتمع جديد. ودانيال ديفو، مؤلفه، اعتقد أن من الضروري في بدء مجتمع جديد أن يكون هناك كتب.

ربما ينتابنا الفضول لمعرفة ماهي هذه((بضعة الكتب في البرتغالية)). من المحتمل أن تكون بينها نسخة من "لوسيداس" لكامويس، وكتاب آخر من المناسب أن يكون ضمن كتب مجموعة سفينة، ربما مواعظ الكاتب الشهير أنتونيو فييرا، بما فيها الموعظة المدهشة "موعظة سان أنتوني ضد الأسماك"، التي ربما قرأها كروسو لتحميه من أخوة فرايدي المتوحشين، وقد يكون بين الكتب أيضاً "الطواف" لفيرانيو منديز بنتو، وهو قصة رحلة غريبة عبر الشرق الغامض في ذلك الحين، الكتاب الذي يعرفه القارئ النهم ديفو جيداً. لا

نستطيع أن نجزم بدقة ما هي هذه الكتب، لأنه بالرغم من احتفاظ كروسو بيوميات سجل فيها، بدافع الواجب، تغيرات الجو والمزاج، فهو لم يذكر فيها الكتب أبداً. أو ربما لأنه كان لا يجيد البرتغالية، إخلاصا منه للإعتقاد الإنكليزي بأن الإنكليزية هي اللغة الوحيدة التي يحتاجها جنتلمان. مهما كانت الأسباب، يبدو انه بعد وقت قصير نسى هذه الكتب تماماً، وحين غادر الجزيرة بعد حوالي ثلاثين عاما، في ١١ حزيران ١٦٨٧، أعّد قائمة مفصلة بممتلكاته، لكنه لم يشر بحرف إلى الكتب المجهولة.

لقد أخبرنا، على أي حال، عن استخدامه الكتاب المقدس، الذي أثر في كل فعل من أفعاله، وأسبغ معنى على معاناته، وهو الوسيلة الوحيدة التي سيحاول من خلالها، مثل برسبيرو، أن يجعل من فرايدي خادماً مطيعاً. يكتب كروسو،((لقد شرحت لـ [فرايدي] على قدر ما أستطيع، لماذا اتخذ مخلصنا المبارك طبيعة نسل إبراهيم لا طبيعة الملائكة، وكيف لم يكن للملائكة الهابطة، لهذا السبب، نصيبا في الخلاص، لأنه أتى فقط إلى الحملان الضالة من بني إسرائيل، وما شاكلهم)). ثم يستطرد بصراحة ملطفة،((كان لدي، والله يشهد، إخلاصاً أكثر من المعرفة في كل السبل التي انتهجتها في تعليم هذا المخلوق المسكين)).

بالنسبة لكروسو، لم يكن الكتاب وسيلة للتعليم فحسب، بل للتنبؤ أيضاً. بعد وقت وجيز، حين أعياه اليأس وهو يحاول أن يفهم حالته المحزنة، فتح الكتاب المقدس وعثر على هذه الجملة:((سوف لن أتركك أبداً، ولا أتخلى عنك))، بغتة راوده الإحساس بأن هذه الكلمات كانت موجهة إليه بشكل خاص. على هذه الشاطئ النائي، بدأ مع أشياء صغيرة من بقايا مجتمع ـ بذور، بنادق، و"كلمة الله" ـ ببناء عالم جديد محوره الكتاب المقدس، الذي أشرق عليه بنوره الساطع القديم.



روبنسون كروسو وفرايدي.

يمكننا العيش في مجتمع مبني على الكتاب دون أن نقرأ أبداً كلمة واحدة، أو بوسعنا العيش في مجتمع لا يُعَد الكتاب فيه سوى شيء كمالي، ونكون، في أعمق معاني الكلمة، قرّاءً. مجتمع كالمجتمع الإغريقي، على سبيل المثال، لم يهتم كثيرا بالكتب، مع ذلك كانوا على نحو فردي قرّاء مواظبين. أرسطو، الذي كانت كتبه على الأرجح ملاحظات من محاضرات دونت من قبل تلامذته، كان يقرأ بشراهة، ومكتبته الخاصة كانت الأولى في اليونان القديمة، والتي لا نملك معلومات محققة عنها. سقراط ــ الذي

ازدرى الكتاب لأنه اعتقد أنه تهديد لموهبتنا في التذكر، ولم يتنازل أبداً عن ترك كلمة مكتوبة ـ اختار أن يقرأ كلمات الخطيب ليسياس، كي لا يسمعها بتلاوة الصوت الحماسي لفيدروس. كروسو ربما، لوكان لديه الخيار لفضّل أن يكون النص متلوا. حتى لوكان هذا الذي يمثل مجتمعا يهوديا مسيحياً قائماً على الكتاب((يقرأ يوميا "كلمة الله"))، كما يخبرنا هو نفسه، إلا أن كروسو لم يكن قارئاً نهما للكتاب المقدس، كتابه "كتاب القوة"(بإقتباس عبارة لوثر). إنه يراجع الكتاب يومياً ـ كما لو أنه يراجع الإنترنت لوكان موجودا اليوم ـ يدع نفسه تقاد من قبل كلماته. لكنه لم يجعل من الكلمة "ملكه"، كما يدعو سانت أوغستين بوجوب ذلك،((بتجسّد))النص المكتوب. إنه بالكاد قبلَ بقراءة المجتمع له. لو كانت سفينة كروسو غرقت في نهاية ألفيتنا الثانية، فمن السهل تخيله ينقذ من الحطام "قوة الكتاب" وليس "كتاب القوة".

ما الذي يميّز كروسو عن ديفو، القارئ الشره، بما انهما عضوان في مجتمع الكتاب؟ ما هو الفرق بين شخص يُعَد الكتاب بالنسبة له ذا قوة واعتبار، لكنه يمكن أن يكون راضياً دون كتب أو مع كتاب واحد فقط ذي قيمة رمزية، وبين قارئ يختار كتبه بشكل شخصي ولها معنى خاص عنده؟ هناك هوة واسعة بين الكتاب الذي وسمته التقاليد بالكلاسيكي والكتاب(نفس الكتاب)الذي جعلناه ملكنا عبر الغريزة، والعاطفة والفهم، لأننا عانينا معه وتمتعنا به، وترجمناه إلى تجربتنا الخاصة، والذي أصبحنا بشكل أساسي أول مكتشفيه(بالرغم من القراءات الكثيرة التي يصل عبرها هذا الكتاب إلى أيدينا). إنها تجربة مربكة وغير متوقعة، مثل البحث عن آثار قدمي فرايدي على الرمل.((أغاني هوميروس))، يكتب غوته،((لها قدرة على تحريرنا، حتى ولو للحظات وجيزة، من عبء مخيف أثقلتنا به التقاليد لآلاف عديدة من السنين)). أمنية كل قارئ، أن يكون أول الداخلين إلى كهف سيريس،

أول من يسمع أوليسيس يدعو نفسه((لا أحد))، امنية تحققت المرة تلو المرة، جيلاً بعد جيل، إلى هؤلاء الذين فتحوا "الأوديسا" للمرة الأولى. هذه العبارة المتواضعة " jus primae noctis "("حقوق الليلة الأولى")، تكفل للكتب التي ندعوها كلاسيكية الشكل الوحيد النافع للخلود.

ثمة طريقتان لقراءة الآية الأكليركية، المستشهد بها بوفرة،((ما من نهاية في خلق كتب كثيرة)). يمكننا أن نقرأها كصدى للكلمات التي تتبع ـ((وكثرة القراءة إرهاق للجسد))فيمكننا عندئذ أن لا نبالي بالمهمة المستحيلة بقراءة مكتبتنا حتى آخر كتاب. أو بوسعنا أن نقرأها كهتاف فرح، صلاة شكر للنعمة الإلهية، وذلك بأن نستبدل أداة الربط " و " بـ " لكن ":((لكن كثرة القراءة إرهاق للجسد)). كروسو، اختار القراءة الأولى، بينما اختار أرسطو(وأسلافه نزولاً حتى نورثروب فراي)القراءة الثانية. في ميزوبوتاميا، عدد لا يحصى من القرّاء ثابروا على اختيار طريقهم عبر((كتب كثيرة))، بالرغم من((إرهاق الجسد)). كل قارئ اكتشف طلاسماً، كان بواسطتها يجعل من الصفحة ملكه، وتغدو، بالسحر، وكأنها لم تقرأ من قبل، طرية ونقية. المكتبات هي أقبية الكنز المليئة بمثل هذه الطلاسم.

هذان النوعان من القرّاء، بالطبع، ليسا الوحيدين. في الطرف المقابل من كروسو ـ الرجل الذي تتألف مكتبته من "كتاب" واحد مبجل وبضعة كتب أخرى لم يقرأها ـ يوجد القارئ الذي يعتبر كل كتاب في مكتبته مفتوح للنقد، القارئ الذي يؤمن بأن أي قراءة تفسيرية لا بد من أن تكون خاطئة. الضبط، لا المتعة هو الحافز لهذا النوع من القرّاء، وغالباً ما يفلحون في العمل في الحقل الأكاديمي، أو في مكاتب الجمارك.

ذات مساء من عام ١٩٣٩ في بوينس آيرس، قرر بورخس واثنان من أصدقائه، الكاتبين أدولفو بيوي كاسارس وسلفينا أوكامبو، أن يخلدوا هذا

الرقيب المفرط في الاجتهاد. كان الثلاثة قرّاء انتقائيين بشكل غير عادي. في مكتبة بيوي وسلفينا(ردهة كبيرة آيلة للسقوط في شقة من القرن التاسع عشر، تشرف على واحدة من أجمل الحدائق العامة في المدينة)كانوا يتحدثون عن الكتب، وجمعوا سوية منتخبات أدبية، وحاولوا الترجمة إلى الإسبانية، ودافعوا بحماس عن اختياراتهم الشخصية وسخروا بنفس الحماس من المؤلفين الذين يكرهونهم. كان واحدهم يكمل الآخر: فضّل بورخس النوع الملحمي والقصص الفلسفية الخياليّة، وبيوي، الروايات النفسية والروايات الهجائية الاجتماعية، وسلفينا، الشعر الغنائي وأدب اللامعقول. قراءاتهم مجتمعة شملت كل نوع و كل أسلوب.

كانوا أحياناً يختلقون قصصاً على سبيل اللهو. واحدة من هذه الابتكارات(غير المنتهية أبدا)تدور حول أديب شاب متحمس، يستغرق في دراسة أعمال كاتب كبير، اكتسب، قبل موته، سمعة بسبب دقته غير الفائقة وكماله الأسلوبي. بعد البحث، لا يعثر هذا الشاب المتحمس إلا على بضعة نصوص غير مهمة، فيقرر السفر إلى بيت الكاتب، ويكتشف، بين أوراق الراحل، لائحة غريبة بـ((الأشياء التي يجب تفاديها في الأدب)):

ـ الغرابة النفسية والتناقضات الظاهرية: القتل بدافع المحبة، الانتحار عن قناعة.

ـ تأويلات مفاجئة لكتب وشخصيات معينة: كره دون خوان للنساء، إلى آخره.

ـ بطلان توأمان مختلفان تماما: دون كيخوته وسانشز، شرلوك هولمز وواتسون.

ـ روايات تتضمن شخصيتين متطابقتين، مثل بوفار وبيكوشيه، واذا ما ابتكر المؤلف ميزة لواحد منهما، فإنه يضطر إلى ابتكار ميزة مماثلة للآخر.

ـ شخصيات توصف من خلال تفردها، كما في ديكنز.

ـ كل شيء جديد أو مدهش. القرّاء المتحضرون لا يرغبون بفظاظة أشياء مفاجئة.

ـ لعب لا جدوى منه مع الزمان والمكان: فولكنر، بورخس، إلى آخره.

ـ الاكتشاف أن البطل في رواية ما هو المرج، الغابة، البحر، المطر، سوق البورصة.

ـ قصائد، حالات، شخصيات قد يتماثل القارئ معها ـ لاسمح الله.

ـ عبارات تغدو أمثالاً سائرة أو اقتباسات، لأنها تتعارض مع كتاب مترابط منطقيا.

ـ شخصيات محتمل تحولها إلى أساطير.

ـ لائحة مشوشة.

ـ مفردات صعبة. ترادفات. Le mot juste (الكلمة المضبوطة). أي محاولة للدقة.

ـ أوصاف حية، عالم غني بالتفاصيل المادية، كما في فوكنر.

ـ خلفية، محيط، جو. حرارة مدارية، الثمالة، صوت الراديو، عبارات تتكرر مثل اللازمة.

ـ بدايات ونهايات مناخية. مغالطات مثيرة للشفقة.

ـ استعارات. استعارات صورية على الأخص. وعلى الأخص أيضاً، استعارات مستلة من الزراعة، الملاحة، المصارف. كما في بروست. ـ أنسنة الأشياء.

ـ كتب توازي كتباً أخرى. أوليسيس والأوديسا.

ـ كتب تدّعي أنها قوائم طعام، ألبوم صور، خرائط طرق، برنامج موسيقي.

ـ أي شيء يمكن أن يلهم الرسوم التوضيحية. أي شيء يمكن أن يلهم فلماً.

ـ الدخيل. مشاهد عائلية في رواية بوليسية، مشاهد درامية في حوارات فلسفية.

ـ المتوقع. مشاهد محزنة وإيروتيكية في قصص الحب. ألغاز وجرائم في قصص بوليسية. أشباح في قصص فوطبيعية.

ـ غرور، تواضع، لواطة، عدم لواطة، انتحار.

في نهاية قائمة طلبات القارئ هذه لا يبقى، بالطبع، أي شكل من أشكال الأدب.

لحسن الحظ، أغلب القرّاء يقعون بين هذين التطرّفين. معظمنا لا يرتاب من الكتب التي يمجدها الأدب، ولا يرتاب من الأدب الذي تمجده الكتب. نحن نشق طريقنا بين الرفوف اللانهائية لمكتبة، نختار هذا الكتاب أو ذاك لسبب غير قابل للإدراك: بسبب غلاف، عنوان، اسم، بسبب شيء قاله أحد ما أو لم يقله، بسبب شعور باطني، نزوة، خطأ، أن نظن بأننا سنعثر في هذا الكتاب على أمور مميزة مثل حكاية أو شخصية أو تفصيل، ولأننا نؤمن بأنه كُتِب لنا، أو لأننا نعتقد بأنه كتب لأي شخص عدانا نحن ونريد أن نكتشف لماذا كنا مبعدين، لأننا نرغب بالتعلم، أو الضحك، أو لنلقي بأنفسنا في النسيان.

لم تُستخدَم المكتبات، ولن تستخدَم أبداً، من قبل جميع الناس. في ميزوبوتاميا كما في اليونان، وفي بوينس آيرس كما في تورنتو، كان الذين يقرؤون والذين لا يقرؤون موجودين جنبا إلى جنب، ودائما الذين لا يقرؤون هم الأكثرية. سواء في مجتمع النسّاخين المحدود في سومر واوربا القرون الوسطى، ولندن القرن الثامن عشر الشهيرة أو في باريس القرن الواحد

والعشرين الأكثر شهرة، فإن عدد هؤلاء الذين يقرؤون الكتب هو في الجوهر قليل جداً. ما يختلف ليس هو التناسب بين هاتين المجموعتين من البشر، بل الطريقة التي تحترم بها المجتمعات المختلفة الكتاب وفن القراءة. وهنا يبرز إلى السطح مرة ثانية الاختلاف بين الكتاب الممجد والكتاب المقروء.

إذا ما حدث وجاء اليوم إلى مدننا المتحضرة زائرٌ من الماضي، فإن واحداً من المظاهر التي قد تفاجئ غوليفر القديم هذا ستكون بالتأكيد عاداتنا في القراءة. ماذا سيرى؟ سيرى معابد تجارية عملاقة يباع فيها الكتاب بالآلاف، ومبان هائلة فيها الكلمة المنشورة مقسّمة ومرتبة في فئات ملائمة للاستهلاك الموجه لجموع المؤمنين. سيرى مكتبات فيها قرّاء يتحركون على غير هدى بين رفوف متراصة، كما كانوا يفعلون منذ قرون. سيراهم كيف يراجعون مجموعات وهمية تحولت فيها الكتب إلى أشباح إلكترونية سريعة الزوال. في الخارج أيضاً، سيجد مسافر الزمن جمهرة من القرّاء: على مقاعد الحدائق العامة، في أنفاق المترو، في الباصات والترامات والقطارات، في الشقق والمنازل، في كل مكان. يجب أن لا نؤاخذ زائرنا لو افترضَ بأننا مجتمع مثقف.

على العكس. مجتمعنا ارتضى بالكتاب كمعلومة، لكن فعل القراءة ـ اعتبرَ نافعاً ومهماً، لكن أيضاً خطر محتمل ونشاط مخرب ـ أصبح الآن يُصنَف بوضاعة كتسلية، تسلية لتمضية الوقت، تعوزها الفعالية ولا تساهم بشئ في الصالح العام. وكما سيدرك زائرنا أخيراً، أن القراءة في مجتمعنا ليست سوى فعل ثانوي، وأن المستودع العظيم لذاكرتنا وخبراتنا، المكتبة، ما هي إلا حجرة خزن خرقاء أكثر منها كيانا حيا.

أثناء الثورات الطلابية التي هزت العالم في نهاية الستينيات، واحد من الشعارات الذي كان يصرخ به الطلبة بوجوه المحاضرين في جامعة

هايدلبرغ Hier wird nicht zitiert((ممنوع هنا الاقتباسات)). كان الطلبة ينادون بأفكار أصيلة، لكنهم نسوا أن العبارة المقتبسة هي مواصلة الحوار مع الماضي لإضفاء معنى على الحاضر. الاقتباس يعني أن نفيد من مكتبة بابل، وهو يعني أن نتأمل بما قيل قديماً، وإن لم نفعل ذلك، فإننا سنتكلم في فراغ حيث لا صوت بشري يمكن أن يترجع.((كتابة التاريخ هي الاستشهاد بالتاريخ))، قال والتر بنجامين. كتابة الماضي، الحوار مع التاريخ، هي الغاية الإنسانية التي كان يرددها بنجامين، غاية كان أول من قدمها نيكولاس دي كوسا في وقت مبكر من العام ١٤٤٠، في كتابه "حول الجهل العلمي" الذي أشار فيه إلى أن الأرض، ربما، لم تكن مركز الكون، والفضاء الخارجي قد يكون لامتناهياً أكثر منه محكوماً بقضاء إلهي، واقترح بناء مجتمع شبه يوتوبي يضم، مثل المكتبة الكونية، كل الجنس البشري، مجتمع يتوقف فيه السياسيون والدينيون عن أن يكونوا قوى هدّامة. إنه أمر جدير بالاهتمام أن يلاحظ المفكرين الإنسانيين وجود علاقة بين الشك بفضاء غير محدود لا ينتمي إلى أحد، والمعرفة الغنية للماضي التي تنتمي للجميع.

هذا هو، بالطبع، النقيض التام لتعريف Web Wide WorId(الشبكة العالمية الواسعة). تعرّف ' الشبكة ' نفسها كفضاء ينتمي للجميع، وهي لا تدع مجالا لأي إحساس بالماضي. ليس هناك من قوميات في الشبكة(عدا، بالطبع، ان لغته المحكية هي نسخة محوّرة من الإنكليزية)، وليس هناك رقابة(عدا تلك الوسائل التي وجدتها الحكومات لتحريم الدخول إلى مواقع معينة). الكتاب الأصغر في العالم(العهد الجديد منقوشا على لوحة مربعة حجمه خمسة ملليمترات)أو المخطوطة متعددة الصفحات الأقدم في العالم(ستة ألواح مربوطة، من الذهب عيار أربعة وعشرين، مكتوبة باللغة الأتروسكانية، ومؤرّخة في القرن الخامس قبل الميلاد)، كل هذه تنطوي على سمات لا يمكن

أن تدرك من خلال الكلمات فقط بل لا بد أن تقدَر بوجودها المادي الكامل والواضح المعالم. على شبكة الإنترنت، حيث كل النصوص متساوية ومتشابهة في الشكل، لا تعدو هذه الكتب سوى أطياف نصوص وصور فوتوغرافية.

الماضي(التقليد الذي يقود إلى حاضرنا الإلكتروني)عند مستخدم الشبكة غير مهم، بما أن ما يعتد به هو ما يظهر أمامنا على الشاشة في الوقت الحاضر. بالمقارنة مع الكتاب، الذي يفصح عن عمره من خلال صفاته المادية، فإن النص المستحضر على الشاشة ليس له تاريخ. الفضاء الالكتروني لا يعرف حدوداً. مواقع الإنترنت هذا يعني بدقة مناطق محددة ـ مبنية على فضاء الشبكة لكنها لا تحده ولا تملكه، مثل ماء على الماء. الشبكة شبه فورية، بمعنى انها لا تحتل زمنا عدا كابوس الحاضر المستمر. كل شيء سطحي ولا من كتاب، كل شيء حاضر ولا من ماضي، الشبكة تتوق إلى أن تصبح(أو تعلن عن نفسها)وطن كل مستخدم، الاتصال فيه متاح مع كل المستخدمين الآخرين، وبسرعة. هذه هي ميزتها الرئيسية: السرعة. بيدا المجد(سانت بيدا)، وهو يرثي حياتنا على الأرض التي طغت عليها السرعة والإيجاز، يقرنها بمرور طائر عبر قاعة طعام شديدة الإضاءة، داخلا طرف القاعة من الظلمة وخارجاً إلى ظلمة الطرف الآخر. مجتمعنا قد ينعت مرثاة بيدا بالتبجح.

حيث ان التكنولوجيا إلالكترونية صارت حاضرة في كل مجالات حياتنا، وفي أوقات الفراغ وأوقات العمل، أخذنا نعتقد أنها بعيدة المدى، ونتحدث عنها كما لو أنها حلت محل كل تكنولوجيا أخرى، بما في ذلك تكنولوجيا الكتب. مجتمعنا المقبل الخالي من الورق، كما عرّفه بيل غيتس في كتاب ورقي، هو مجتمع بلا تاريخ، بما أن كل شيء على الشبكة هو معاصر وفوري. بالنسبة للكاتب، على سبيل المثال، بفضل معالج النص(word processors)

في برامج الكومبيوتر، لا يعود هناك أرشيف لملاحظاتنا، ترددنا، مسوّداتنا. كتب والتر بنجامين، قبل زمن قصير من صعود النازية،((البشرية التي كانت في زمن هوميروس موضوعا للتأمل الفكري للآلهات الأولمبية، هي الآن موضوع لتأمل نفسها. انسلاخها الذاتي وصل مرحلة يمكنها فيها أن تجرب تدميرها هي نفسها كمتعة جمالية من الطراز الأول)). لهذا الانسلاخ الذاتي أضفنا الآن انسلاخاً لأفكارنا الخاصة، إذ نراقب بسرور تدمير ماضينا الخاص. لم نعد نسجل تطور إبداعاتنا الفكرية. للمراقب المستقبلي، سيبدو الأمر وكأن أفكارنا ولدت وهي متطورة تماماً، مثل ولادة أثينا من جبين أبيها ــ لكن بما أن مفرداتنا ستكون منسية، فإن الكلام المكرر سوف لايعني شيئا.

في ١٨ كانون الثاني ١٩٤٩، أودع رجل أمريكي يدعى جيمس تي مانغان عقداً عند مسجل العقود في كوك كاونتي، وطالب تحت سلطة مدعي عام ولاية الينوي بملكية الفضاء. وبعد أن أعطى لملكيته الشاسعة اسم "سيليستيان"، أحاط مستر مانغان علما كل أقطار الأرض بدعواه، منذرا إياهم بعدم محاولة القيام بأي رحلة إلى القمر، كما تقدم بطلب العضوية إلى الأمم المتحدة. مشروع مانغان الطموح اضطلعت به، بوسائل براغماتية عديدة، الشركات متعددة الجنسية. طرقها كانت فعالة بشكل فريد. بعرضها للمستخدمين الالكترونيين عالماً مسيطَراً عليه من لوحة مفاتيح أجهزتهم، عالم كل شيء فيه يمكن((الوصول))إليه وتملكه، بنقرة إصبع، كما في حكايات الجن، فإن الشركات متعددة الجنسية ضمنت، من جانب، بأن المستخدمين سوف لا يعترضون على تحولهم إلى مستهلكين، بما أنهم كما يزُعم((مسيطرين))على الفضاء الإلكتروني cyberspace، وهذا، من جانب آخر، سيحول دون تعلم أشياء معقولة وعميقة، سواء عن أنفسهم وعن محيطهم المباشر أو عن بقية العالم. بتعليقه في عام ٢٠٠٤ على فائدة الشبكة كأداة مبدعة، قال فنان

القصص الفكاهية المصورة الشهير ويل آيسنر إنه إعتقد، حين اكتشف لأول مرة هذا الوسيط إلالكتروني، بأنه سيكون مصدرا سحريا تقريباً للإبداعات الفنية الجديدة، لكنه أضحى في الأيام الأخيرة((مجرد سوبرماركت يأتي إليه المستهلكين للبحث عن أرخص سلعة ممكنة)).

هذه الحيلة تحدث، في كل مرة يدخل فيها القارئ شبكة الإنترنت، من خلال سرعة ورود المعلومة أكثر من التأمل والتعمق، ومن خلال الإيجاز أكثر من التحليل، وتفضيل نتف من الأخبار والوقائع على المناقشات المطولة والملفات الموسعة وبتخفيف الأفكار المبلّغة بقدر كبير من الثرثرة الفارغة والنصيحة العقيمة، والأحداث غير الدقيقة والمعلومات التافهة، التي تقدَم بشكل جذاب، بأسماء علامات تجارية وإحصاءات متلاعب بها.

لكن الشبكة عبارة عن أداة. لايجب أن يقع اللوم عليها بسبب اهتمامنا السطحي بالعالم الذي نعيش فيه. ميزتها تكمن في الإيجاز والتعدد في معلوماتها، التي لا يمكن تزويدنا بها بتركيز وعمق. الواسطة الإلكترونية بوسعها أن تساعدنا(في الوقع إنها فعلت ذلك)بعدد لا يحصى من الوسائل الخاصة، لكن ليس بالجملة، ولا يمكنها تحمل المسؤولية عن الوسائل القاصرة عن مساعدتنا. سوف لن تكون الشبكة حاوية لماضينا الكوني، مثل الكتاب، لأنها ليست كتاباً ولن تصبح أبداً، بالرغم من الوسائل والمظاهر اللانهائية التي اخترعت لإجبارها على لعب هذه الدور. ولا يمكنها أن تغدو بأي معنى مفيد مكتبة كونية، بالرغم من البرامج الطموحة مثل مشروع غوغل ومشروع غوتنبرغ(PG)الأقدم منه،الذي وضع، منذ العام ١٩٧١، نحو عشرة آلاف نص على الشبكة ــ عدد منها نسخ طبق الأصل، وأكثرها غير موثوق، تم نقلها بعجلة ودققت أخطاؤها المطبعية بشكل سيء. في عام ٢٠٠٤ لاحظ الناقد الإنكليزي بول دوغايد،((ببحث نقدي قصير يمكن أن نرى... بأنه

مهما شابهت PG، بطرق عديدة ـ وأحياناً أفضل ـ المكتبة التقليدية، سيبقى فيها أيضاً شيئاً من محلات الإحسان التي تبيع الكتب في الكنيسة، حيث فيها الغث والسمين مبارك على حد سواء من الكاهن لأنه كله عبارة عن هبات)).

طالما أن الشبكة لن تمنحنا أكلاً ومبيتاً أثناء إقامتنا في هذا العالم، لأنها ليست ملاذاً أو منزلاً، ليست كهف سيرس ولا إيثاكا، فنحن وحدنا، لا تكنولوجيتنا، المسؤولون عن خسائرنا، ونحن وحدنا الملامون حين نختار عن عمد النسيان لا التذكر. نحن، على أي حال، بارعون بإنتحال الأعذار وأيجاد الأسباب لخياراتنا الفقيرة.

يؤمن شعب الأبانكي في أمريكا الشمالية بأن مجموعة خاصة من الآلهة، أوناغاميسوك، أشرفت على صنع النقوش على الصخور، وفسّر الناس هناك سبب الاختفاء التدريجي لهذه النقوش بأنه يعود إلى غضب الآلهة، لأن الاهتمام الموجه إليهم صار أقل منذ وصول الرجال البيض. النقوش على الصخر لماضينا المشترك تلاشت لا بسبب وصول تكنولوجيا جديدة، بل لأننا توقفنا عن قراءتها. نحن خسرنا مفرداتنا المشتركة التي قامت منذ آلاف وآلاف السنين لتساعدنا وتبهجنا وتقوّمنا، في سبيل ما سميناه فضائل التكنولوجيا الجديدة. العالم كما اكتشف كروسو، كان دائماً كبيراً بما يكفي لاستيعاب معجزة إضافية أخرى. أن نكون كونيين اليوم قد يعني أن نكون انتقائيين، رافضين أن نستبعد تكنولوجيا ما في سبيل أخرى. نزعتنا لإقامة جدران، هي نافعة فقط لتزويدنا بنقطة بداية لمعرفة ذواتنا، جدران تضم السرير الذي ولدنا فيه، وفيه نحلم ونتناسل ونموت. لكن خارج هذه الجدران يقع إدراك سيدهارتا بأن كل البشر ولدوا عجائزاً، كلهم عرضة للكوابيس والعلل، وبأن الكل لا بدّ من أن يصل أخيراً إلى النهاية المحتومة. في الكتب، هذه القصة تتكرر على نحو لانهائي.

من بين التجسّدات الجديدة للمكتبات هناك بعض منها يستغني عن(أو لا يمكن تحمل)تكنولوجيات جديدة. في عام ١٩٩٠ أنشأت وزارة الثقافة الكولومبية منظومة من مكتبات متنقلة، توصل الكتب إلى أبعد ركن في البلاد. وبالرغم من ان مكتبة الحافلات كانت في الخدمة منذ عام ١٩٨٢ في الأقاليم المحيطة ببوغوتا، رأت الحكومة أن من المهم الوصول أيضاً إلى سكان المناطق القروية البعيدة. لهذا الهدف، تم صنع أوعية كبيرة للحمل مع جرابات واسعة يمكن أن تطوى بسهولة في طرود ملائمة لنقل الكتب على ظهور الحمير، والذهاب بها إلى الغابات والجبال المثلمة القمم. وهناك تترك الكتب لعدة أسابيع بين يدي المعلم أو شيخ القرية الذي يصبح، دي فاكتو، أمين المكتبة المسؤول. تنشر محتويات الأكياس وتعلق على عمود أو شجرة، ليتاح للسكان المحليين أن يتصفحوا الكتب ويختاروا منها ما يرغبون. أحياناً يقوم أمين المكتبة بالقراءة بصوت عال لهؤلاء الذين لم يتعلموا القراءة بأنفسهم، وأحيانا يقرأ للآخرين فرد من العائلة كان دخل المدرسة. ((بهذه الطريقة))يقول واحد من القرويين في مقابلة معه،((بوسعنا أن نعرف ما كنا لا نعرفه وننقله إلى الآخرين)). بعد فترة معينة، ترسل دفعة جديدة لتحل محل المجموعة السابقة. أكثر مواضيع الكتب عن الأعمال التقنية، كتيبات زراعية، وكراسات عن تصفية المياه، ومجموعة عن نماذج ماكنات الخياطة ودليل الأطباء البيطريين. لكن قلة منها هي روايات وكتب أدبية. حسب واحدة من أمناء المكتبات، كان عدد الكتب دائماً محسوبا.((أنا أعرف حالة واحدة فقط لا يعاد فيها الكتاب))، روت لي،((كان لدينا برفقة عناوين عملية مألوفة، ترجمة اسبانية للإلياذة. عندما يحين وقت استبدالها، يرفض القرويون إعادتها، فنقرر أن نعتبرها هدية لهم، لكننا نسألهم عن سبب احتفاظهم بهذا الكتاب بوجه خاص، فيجيبون بأن قصة هوميروس

تعكس بالضبط قصة حياتهم: فهي تحكي عن بلاد مزقتها الحروب، وفيها تقرر الآلهة الغاضبة مصير البشر الذين لا يعرفون أبداً السبب الذي دعاهم للتقاتل، أو متى سيقتلون)).

كما يعرف هؤلاء القرّاء الكولومبيون البعيدون، أن وجودنا يتدفق، مثل نهر لا وجود له، في اتجاهين: من الكتلة اللامتناهية من أسماء وأماكن، ومخلوقات، ونجوم، وكتب، وطقوس، وذاكرات، وأنوار وصخور ندعوها العالم، إلى الوجه الذي يحدق فينا كل صباح من عمق المرآة، ومن ذلك الوجه، من ذلك الجسد الذي يحيط بمركز لا يمكننا أن نراه، نهر يتدفق من الذي نعنيه حين نقول " أنا "، إلى كل شيء هو آخر، بعيد، خارجنا. شعورنا بكوننا أفراد، المرتبط مع شعورنا بكوننا مواطنين، على نحو جمعي، في عالم غير محسوس يضفي نوعا من المعنى على حياتنا ـ معنى يتجسد في كلمات عبر كتب في مكتباتنا.

من المحتمل أن تلك المكتبات ستتواصل وتبقى حية، طالما ثابرنا على إعارة كلمات للعالم الذي يحيط بنا، وحفظها للقرّاء المستقبليين. هناك مسميات كثيرة للكلمة المكتوبة، وستكون هناك مسميات أكثر، وبالرغم من حماقاتنا فإننا لن نتخلى عن هذه المعجزة الصغيرة التي تتيح لنا ذرة من الفهم. قد لا تغير الكتب من معاناتنا، ولا تحمينا من الشر، وقد لا تدلنا على ماهو حسن أو ماهو جميل، وهي بالتأكيد لن تقينا من مصير القبر المحتوم. لكن الكتب تمنحنا آلاف الإمكانيات: إمكانية التغيير، إمكانية التنوّر. ربما لا توجد كتب، مهما كتبت بشكل جميل، بوسعها أن تزيل مثقالاً من الألم من مأساة العراق أو راوندا، لكن يمكن أيضاً أن لا توجد كتب، مهما كتبت بشكل بشع، لا تمنح قارئها المقدّر كشفاً. يشرح روبنسون كروسو: ((قد لا يكون من الخطأ لكل من يقرأ قصتي أن يصل إلى هذه الاستنتاج منها، وهو

كيف أن في مرّات عديدة خلال مسيرة حياتنا، يكون الشر، الذي نحاول جهدنا أن نتفاداه والذي يرعبنا حين نقع فيه، هو الوسيلة لخلاصنا، الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن نُبعث بها من جديد)). من يتحدث هنا، بالطبع، ليس كروسو بل ديفو ـ القارئ الغزير للكتب.



واحدة من " مكتبات الحمير " في المناطق القروية الكولومبية.

تواريخ، وعصور، وتقاويم تعرض لنا مظهراً خادعاً للتطور، حتى لو توفرت بين أيدينا، المرة تلو المرة، براهين تثبت أنه لا وجود لشيء مثل هذا. هناك تغير وهناك تقدم، لكن سواء للأفضل أو للأسوأ فإنه يعتمد على المحتوى وعلى المراقب. كقرّاء، تطورنا من تعلم براعة غالية، سرّها لا تملكه سوى نخبة يقظة، إلى الإيمان بديهيا بمهارة صارت خاضعة لمبادئ الربح المادي أو الفعالية التقنية، مهارة لا تأبه بها الحكومات. لقد تحولنا من مقياس للقيم إلى آخر مرّات كثيرة، وسنفعل ذلك ثانية بلا ريب. لا يمكن أن نكون بعيدين عن هذا الطريق المتعرّج، الذي يبدو أنه جزء جوهري من

طبيعتنا البشرية، لكن يمكننا على الأقل أن نتمايل معه مع وعينا بتمايلنا هذا ومع قناعتنا، بطريقة ما، بأن مهارتنا ستصبح مدركة مرّة ثانية كشئ لا غنى عنه. مكتبة روبنسون كروسو مؤلفة فقط من " كتاب الكتب " ـ لم تكن وهما أو وسيلة فحسب، بل أداة جوهرية لمجتمعه الجديد، طريقة لإضفاء النظام على الكون.

بولس الرسول(الحواري الوحيد الذي لم يعرف يسوع المسيح وجها لوجه) قال بلا تحفظ لهؤلاء الذين التقاهم، وكانوا رجالاً ونساءً بحثوا عن الكتاب المقدس، ((هل تبحثون عن بيّنة عن حقيقة أن المسيح يتحدث من خلالي؟)) مؤمنا أنه منذ أن قرأ " الكلمة "، صارت " الكلمة " تسكن داخله، حتى لو لم يلتق المؤلف، فقد أصبح هو "الكتاب"، وأن الكلمة تحولت إلى جسد، عبر ذلك الجزء الصغير من الإلهي الذي تمنحه موهبة القراءة لكل أولئك الذي يسعون لمعرفة السر الذي تحويه الصفحة. هذه هي حكمة طائفة الإسنس، الناس الورعون الذين منحونا، قبل قرون عديدة، لفافات البحر الميت: ((نحن نعرف أن الجسد هالك والمادة التي خلق منها زائلة. لكننا نعرف أيضاً أن الروح [وسأضيف هنا، أنا القارئ المستقبلي للفافات، كلمة "الكتاب"] خالدة لا تفنى)).

المكتبة وسيلة بقاء

((لقد عشت في الفن، وعشت في الحب،
لم أؤذ أبداً مخلوقا حياً...
لمَ ياربي، إذاً،
لمَ تجازيني بهذا؟))

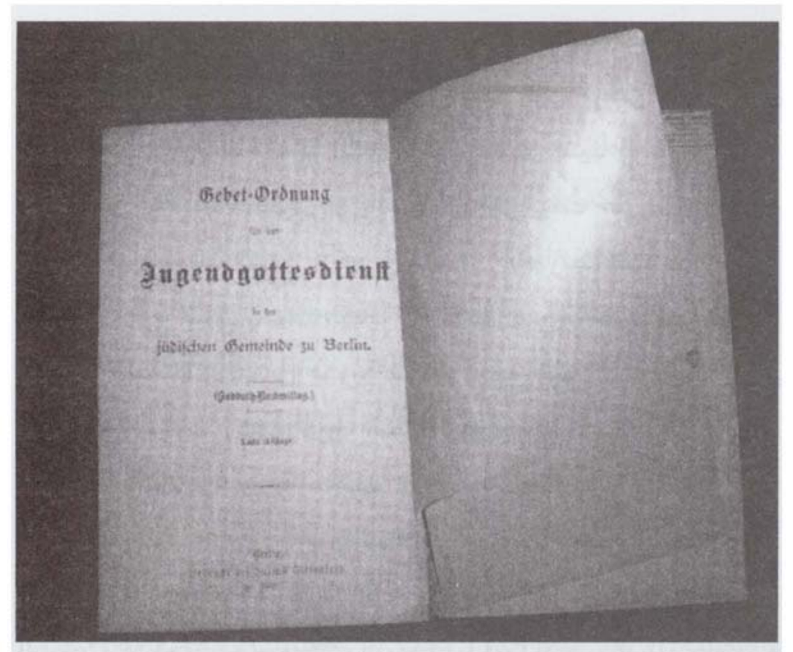
بوتشيني، توسكا، المشهد الثالث

مثل لفائف البحر الميت، ومثل الكتب التي تحدّرت إلينا من يدي قارئ بعيد، يحمل كل كتاب من كتبي قصة نجاته، من نار، ماء، مضيّ الزمن، قرّاء مهملين ومن يدي رقيب، وكل كتاب أفلت ليروي لي قصته. قبل بضع سنوات، عثرت في كشك لبيع الكتب في سوق البراغيث في برلين، على كتاب صغير أسود اللون غلافه من القماش الخشن لا يحمل عنواناً. في صفحة العنوان الداخلية كُتب بحروف قوطية جميلة Gebet-Ordnung [طقس صلوات البلوغ للفتيان في المجتمع اليهودي في برلين (مساء السبت)]. بين الصلوات ثمة واحدة موجهة إلى ((مليكنا فيلهلم الثاني، قيصر جرمانيا))والى ((القيصرة والملكة أوغست ـ فكتوريا)). هذه النسخة هي الطبعة الثامنة، طبعت من قبل يوليوس غيتنفيلد في برلين عام ١٩٠٨، وبيعت في متجر لبيع الكتب اسمه سي بوس ناشف في شارع فريدريششتراسه رقم ٦٩. ((في ركن شارع كلوسترشتراسه))، ركن لم يعد له وجود الآن. لم تكن هناك أي إشارة إلى مالك الكتاب.

قبل عام من طبع هذه الكتاب، رفضت المانيا الالتزام بتقييد خطط التسلح الذي أقرّه مؤتمر دنهاخ للسلام. بعد بضعة أشهر صدر قانون مصادرة الملكية

من قبل رئيس الوزراء برنهارد فون بويلو، الذي أجاز إقامة عدد أكبر من المستوطنات الألمانية على الأراضي البولندية. رغم ان هذا القانون لم يطبَق بشكل عملي على ملاكي الأرض البولنديين، لكنه منح المانيا مبكراً حقوقاً إقليمية، أتاحت لها في ما بعد، في حزيران ١٩٤٠، إقامة معسكرات الاعتقال في أوشفيتز. إن المالك الأصلي لكتاب Gebet-Ordnung اشترى على الأرجح هذه الكتاب أو مُنح له حين كان في الثالثة عشرة من عمره، العمر الذي وصل فيه حد البلوغ ويقام له احتفال الميتزفا، الذي يُسمح له بعده بالانضمام إلى المصلين في الكنيس. إذا كان هذا الفتى بقي على قيد الحياة في الحرب العالمية الأولى، فإنه كان سيبلغ الثامنة والثلاثين وقت نشوء الرايخ الثالث عام ١٩٣٣، وإذا بقي في برلين، فإنه على الأرجح رُحّل بالقوة، مثل الكثيرين من يهود برلين، إلى بولندا. ربما أُتيح له الوقت قبل رحيله أن يعطي كتاب الصلاة إلى أحد ما، أو ربما أخفاه، أو تركه وراءه مع كتبه الأخرى.

بعد أن بدأ النازيون نهبهم وتدميرهم للمكتبات اليهودية، قرر أمين مكتبة شولم الإيخم في بيالا بودلاسكا إنقاذ الكتب بنقلها في عربات، على مدى أيام، بالقدر الذي كان يمكنه هو وزملاءه من جمعه، رغم خشيته أنه في زمن قريب جدا ((سوف لن يكون هناك قرّاء)). بعد أسبوعين، نقلت المجموعات إلى سرداب سري، وهو المكان الذي تم اكتشافها فيه من قبل المؤرخ توفيا بورزيكوفسكي بعد زمن طويل من انتهاء الحرب. حين كان يكتب عن مأثرة أمين المكتبة، لاحظ بورزيكوفسكي أن عملية الإنقاذ نفذت ((دون التفكير فيما إذا كان أحد ما سيحتاج يوماً هذه الكتب المنقذة)). لقد كان في جوهره عملاً لإنقاذ الذاكرة. الكون، كما يؤمن القبلانيون، ليس متوقفا على قراءتنا له، بل على احتمالية قراءتنا له.



كتاب الصلاة الالماني، طبع في برلين عام ١٩٠٨.

مع عملية حرق الكتب الرمزية التي أقيمت في ليلة ١٠ آيار ١٩٣٣ في ساحة أونتر دن ليندن، مقابل جامعة برلين، أضحت الكتب هدفاً محدداً للنازيين. في أقل من خمسة شهور بعد تقلد هتلر منصب المستشارية، أعلن وزير الدعاية الجديد لحكومة الرايخ الدكتور جوزيف غوبلز، أن حرق الكتب العلني لمؤلفين مثل هاينريش مان، ستيفان زفايغ، فرويد، زولا، بروست، أندريه جيد، هيلين كيلر وأتش جي ولز، يتيح ((لروح الشعب الالماني ان تعبر عن نفسها من جديد. هذا اللهب لن يضيء نهاية عصر قديم فحسب، بل بداية عصر جديد أيضا)). العصر الجديد حرّم بيع أو تداول آلاف الكتب، سواء في المتاجر أو في المكتبات، بالإضافة إلى منع نشر كتب جديدة. المجلدات التي احتفظ بها عادة في رفوف غرف الإستقبال، لأنها قيّمة أو لأنها مسلية، أمست فجأة خطرة. الملكية الخاصة للكتب المنوعة كانت

محظورة، والكثير منها كان يصَادر أو يدمَر. أحرقت مئات المكتبات اليهودية في أرجاء أوربا، مجموعات خاصة كانت أم عامة. كتب مراسل صحفي نازي تقريرا يصف فيه بغبطة تدمير المكتبة الشهيرة لوبلن يشيفا في عام ١٩٣٩ :

"تدمير أكاديمية التلمود هو بالنسبة لنا أمر يبعث على الفخر بوجه خاص، فهي عرفت بكونها الأكبر في بولندا... لقد رمينا بالمكتبة التلمودية الضخمة خارج المبنى وحملنا الكتب إلى ساحة السوق، حيث أضرمنا فيها النيران. ظلت النار تشتعل عشرين ساعة. تجمع يهود لوبلن حول المكان وهم يبكون بمرارة، وكتموا تقريباً أصواتنا بعويلهم. استدعينا فرقة موسيقية عسكرية وبأنغامهم البهيجة حجبت صرخات اليهود".

في نفس الوقت، قرر النازيون البقاء على عدد من الكتب لأغراض تجارية وأرشيفية. في عام ١٩٣٨ اقترح ألفرد روزنبرغ، واحد من المنظرين النازيين البارزين، أن تحفظ مجاميع كتب اليهود، بما فيها الآداب الدينية والدنيوية معا، في معهد يقام لغرض دراسة "المسألة اليهودية". بعد مضي سنتين، افتتح معهد "زير ايرفورشنغ دير يودنفراغ " في فرانكفورت آم ماين. ولتأمين المواد الضرورية، قام هتلر بتفويض روزنبرغ نفسه بقيادة حملة تضم أمناء المكتبات الألمان ذوي الخبرة، وهي الحملة سيئة الصيت التي سميت ERR (آينسازشتاب رايشسليتر روزنبرغ). من المجموعات المصادرة التي استولى عليها المعهد كانت المجموعات التي تعود إلى المعاهد اللاهوتية الحبرية في برسلاو وفيينا، والأقسام العبريّة واليهوديّة في المكتبة البلديّة في فرانكفورت، ومدرسة كولجيو رابينيكو في روما، ومؤسسة سوسيتاس سبينوزيانا في دنهاخ وسبينوزا هاوز في راينسبرغ، ودور النشر الهولندية كيريدو وبيخازوس وفيشر-بيرمان، والمعهد الدولي للتاريخ الاجتماعي في أمستردام، وبيث ميدراش إتزهايم، والمعهد الديني الإسرائيلي في أمستردام، والمعهد الديني البرتغالي

للإسرائيليات، وروزنتاليان، ورابا ي موشيه بيساح في فولوس، ومكتبة ستراشن في فيلنا (انتحر حفيد مؤسسها بعد أن أُمر بالمساعدة في فهرسة الكتب)، ومكتبات في هنغاريا (معهد مواز عن "المسألة اليهودية" أقيم في بودابست)، ومكتبات في الدانمارك والنرويج وعشرات المكتبات في بولندا (على وجه الخصوص المكتبة الكبيرة لكنيس وارشو ومكتبة معهد الدراسات اليهودية). من هذه الذخائر الضخمة انتقى موظفو روزنبرغ الموثوقون الكتب التي أرسلت إلى معهده، وتم تدمير الكتب الأخرى كلها. في شباط ١٩٤٣ صدرت عن المعهد التوجيهات التالية لاختيار مواد المكتبة: ((كل الكتب التي تتعلق بالتاريخ، والثقافة، وطبيعة الديانة اليهودية، بالإضافة إلى الكتب التي كتبها مؤلفون يهود في لغات غير العبرية واليديشية، كل هذه يجب أن تشحن إلى فرانكفورت)). لكن ((الكتب التي كتبت حديثا (بالعبرية واليديشية)، بعد عام ١٨٠٠، يجب أن تحوّل إلى عجينة ورقية، ويشمل هذا كتب الصلوات، Memorbücher، والأعمال الدينية الأخرى في اللغة الالمانية)). وفيما يخص لفافات التوراة، اقترح أن ((يتم استخدام جلدها في تجليد الكتب)). كتابي، كتاب الصلاة نجا من ذلك بأعجوبة.

بعد سبعة أشهر من صدور هذه التعليمات، أقام النازيون، في أيلول ١٩٤٣، "معسكر العائلة " كتوسيع للمنطقة التي تحيط بأوشفيتز، في غابة البتولا في بيركناو، وضم مبنى مستقلا "رقم ٣١ " مخصص للأطفال. لقد أقيم هذا المكان ليكون برهاناً للعالم أن اليهود المرحلين إلى الشرق لم يقتلوا. في الواقع، لقد سُمح لهم أن يبقوا أحياء لمدة ستة أشهر فقط قبل أن يُرسلوا إلى نفس مصير الضحايا المرحلين الآخرين. في النهاية، وبعد أن أدّى غرضه من الدعاية، أُغلق "معسكر العائلة " بشكل نهائي.

أثناء وجوده، ضم المبنى "رقم ٣١" خمسمئة طفل مع عدة سجناء عينوا

"مستشارين"، وبالرغم من المراقبة الصارمة، احتوى المبنى، بعيدا عن كل التوقعات، مكتبة سريّة للأطفال. كانت مكتبة مصغرة، إذ تتألف من ثمانية كتب، من بينها كتاب أتش جي ولز "موجز تاريخ العالم"، وكتاب مدرسي روسي، وآخر عن التحليل الهندسي. مرة أو مرتين استطاع نزيل من معسكر آخر تهريب كتاب جديد، حيث زادت ملكية المكتبة إلى تسعة أو عشرة كتب. في نهاية كل يوم، كان يعهد بالكتب، مع الأشياء الثمينة الأخرى مثل الأدوية وفتات الطعام، إلى أكبر البنات عمراً، التي تكون مسؤولة عن إخفاء الكتب في أمكنة مختلفة كل ليلة. من المفارقة، أن الكتب التي حظرت في أرجاء الرايخ (كتب أتش جي ولز، مثلاً)كانت موجودة أحياناً في مكتبات معسكرات الاعتقال.



تحرير من تبقى على قيد الحياة في معسكر الإعتقال في بركناو.

بالرغم من أن ثمانية أوعشرة كتب كانت خزين المجموعة المادية لمكتبة بيركناو للأطفال، كانت هناك مكتبة أخرى يتداولونها من خلال الكلمة الشفاهية فقط. كان المستشارون، في أي وقت يتاح لهم الإفلات من المراقبة، يتلون على الأطفال كتباً تعلموا هم أنفسهم أن يحفظوها عن ظهر قلب في صغرهم، وكان الأطفال يتبادلون الأدوار بينهم، حيث " يقرأ " المستشار في كل مرة لأطفال مختلفين. هذه المناوبة عرفت بـ "تبادل الكتب في المكتبة".

من المستحيل تقريباً التخيل أنه في ظل هذه الظروف الكابوسية التي فرضها النازيون، كانت الحياة الفكرية قادرة على التواصل. سئل مرة المؤرخ يتزاك سكيبر، الذي ألف كتابا عن الكازار (اقوام تركية)حين كان نزيلاً في غيتو وارشو، كيف أتيح له أن يؤلف كتابا دون أن يتمكن من الجلوس والبحث في مكتبات ملائمة. أجاب، ((لكتابة تاريخ أنت لا تحتاج إلى مؤخرة، بل إلى رأس)).

كان هناك أيضاً تواصل للروتين العادي للقراءة. هذه المثابرة ترسخ الحالة الإعجازية وحالة الرعب معاً: في مثل هذا الوضع الذي لا يطاق يواصل الرجال والنساء القراءة عن جان فالجان هيغو وناتاشا تولستوي، ويملؤون بطاقة طلب كتاب ويدفعون غرامة تأخير عن استرداد الكتب، ويناقشون مزايا مؤلف معاصر أو يتبعون مرة ثانية إيقاع قصائد هاينه. غدت القراءة وطقوسها فعلا من أفعال المقاومة، كما كتب الطبيب النفسي الإيطالي أندريا ريفوتو، ((كل شيء يمكن أن يعامل كفعل مقاومة لأن كل شيء كان محظورا)).

في معسكرات الاعتقال في بيرغن ـ بيلسن، دارت بين السجناء نسخة من رواية "الجبل السحري" لتوماس مان. واحد من الأولاد يذكر اليوم الذي كان مخصصاً له لحيازة الكتاب وقراءته ويصفه بأنه ((واحد من أكثر الأوقات بهجة في ذلك اليوم، حين مرر أحدهم الكتاب الي اختليت في ركن سعيا

للعزلة وكان أمامي ساعة واحدة فقط لقراءته)). واحد آخر من الضحايا البولنديين، يذكر أيام الخوف والإحباط، فيقول: ((كان الكتاب صديقي المقرّب، لم يخني أبداً، وانتشلني من وهدة اليأس، وأخبرني بأني لست وحيداً)).

((كل ضحية بحاجة إلى التضامن))، كتب غراهام غرين الذي كان يؤمن بأن مهمة الكاتب هي أن يدافع عن الضحايا، ويجعلهم مرئيين، ويسجل إشارات تحذير، بواسطة براعة حرفية ملهمة، تكون وسيلة اختبار لشيء قابل للفهم. الكتّاب الذين تحتل كتبهم رفوف مكتبتي لن يقدّر لهم معرفة من سيقرأهم، لكن القصص التي يروونها تتنبأ أو تلمح أو تشهد على تجارب ربما لم تحدث بعد.

لأن صوت الضحية له أهمية كبيرة، فإن الظالمين يحاولون غالباً أن يخرسوا ضحاياهم: بقطع ألسنتهم حرفياً، كما في حالة فيلوميلا المغتصبة في كتاب أوفيد، ولافينيا في " تيتوس اندرونيكوس"، أو بإخفائهم بعيداً، كما فعل الملك مع سيغيسموندو في "الحياة هي حلم " لكالديرون، أو كما فعل مستر روتشستر لزوجته المجنونة في "جين أير"، أو بإنكار قصصهم ببساطة، كما في الملحق المحترف في رواية مارغريت آتوود "حكاية وصيفة ". في الحياة الواقعية، الضحايا "مختفون"، محجوزون في غيتو، مرسلون إلى سجن أو معسكر تعذيب، محرومون من المصداقية. الأدب الذي على رفوفي يروي كل مرة قصة الضحية، من أيوب حتى دزدمونة، ومن "غرتشن" غوته حتى " فرانشيسكا " دانتي، ليست كمرآة (الطبيب الجرّاح يوهان بول كريمر حذر في يوميات أوشفيتز "من المقارنة، إذ إن جحيم دانتي يبدو تقريباً كوميديا")، بل كإستعارة. معظم هذه القصص كانت موجودة في مكتبة أي مثقف الماني في سنوات الثلاثينيات. الدروس التي استنبطت من هذه الكتب شأن آخر.

في الثقافة الغربية، النموذج البدئي للضحية هي الأميرة الطروادية

بوليكسينا، ابنة بريام وهيكوبا، التي كان يفترض أن تتزوج من أخيل، لكن أخاها هكتور وقف ضد الزواج. في يوم، انسلّ أخيل إلى معبد أبولو كي يلقي نظرة على محبوبته لكنه أمره كشف واغتيل. حسب أوفيد، بعد خراب طروادة ظهرت روح أخيل للاغريق الظافرين وهم يهمون بركوب سفنهم، وطلب أن تقدم الأميرة قربانا له. وعلى ذلك، أخذت الأميرة إلى قبر أخيل وقتلت بيد نيوبتوليموس ابن أخيل. بوليكسينا هي مثال ملائم لدور الضحية: بريئة من العلة، بريئة من اللوم، بريئة من مصلحة الآخرين في موتها، صفحة بيضاء تلح على القارئ بأسئلة لا جواب لها. حجج، مهما كانت معقولة ظاهرا، ساقها الإغريق لإيجاد أعذار لمطالب شبح، لتسويغ إذعان الضحية، للتغاضي عن السيف الذي سيغرزه ابن أخيل في صدرها العاري. لكن لا يمكن لأي حجج أن تقنعنا بأن بوليكسينا كانت تستحق الموت. إن جوهر تضحيتها ـ كما في كل التضحيات ـ هو الظلم.

مكتبتي تشهد على الظلم الذي عانته بوليكسينا، وكل الأشباح الروائية التي أعارت صوتها لأرواح لا تحصى كانت في يوم ما جسداً حياً. انها ليست مطالبة غاضبة بالانتقام ـ الثيمة الأخرى المعادة مراراً في أدبنا. مكتبتي تفترض أن القيود التي تحددنا كفئة اجتماعية لا بد من أن تكون بناءة أو تحذيرية، وليست هدامة عن تعمد، إذا كان لها على الأقل معنى جمعي معقول، واذا ما تم النظر إلى ظلم ضحية ما بأنه ظلم لكل المجتمع، كاعتراف بإنسانيتنا المشتركة. العدالة كما تنص المقولة الإنكليزية، لا يجب أن تتحقق فقط، بل يجب أن تكون ظاهرة في تحقيقها. لا يجب على العدالة أن تكون وسيلة للإنصاف الشخصي فقط، بل يجب أن تؤدي عموما إلى تعزيز الشعور بتطهير النفس والرغبة في التعلم في المجتمع، حين تتحقق العدالة يكون هناك أمل، حتى في مواجهة ما يبدو إلها متقلب المزاج.

تتحدث أسطور حاسيدية جمعها مارتن بوبر عن رجل أقام الدعوى على

الرب أمام المحكمة، بعد أن صدر مرسوم في فيينا يجعل من الحياة الصعبة ليهود غالِيشيا البولندية أصعب مما هي عليه. رأى الرجل بأنه لا يجب على الله أن يحوّل شعبه إلى ضحايا، بل يجب أن يسمح لهم السعي في سبيله بحرية. وافقت محكمة الأحبار على التفكير مليا في ادعاءات الرجل، وقررت كما ينبغي، بأن ينسحب المدعي والمدعى عليه من المحكمة أثناء المداولة. ((سينتظر المدعي في الخارج، أما أنتم، يا إله الكون، فنحن لا نستطيع أن نسألكم أن تنسحبوا، لأن مجدكم كلي الوجود. لكننا سوف لا نقبل أن تأثروا على حكمنا)). تشاور الأحبار بصمت وعيونهم مغلقة. في ما بعد، وقد حل المساء، نادوا على الرجل وأخبروه بحكمهم: لقد ظهر لهم أن حججه مقنعة. وفي تلك الساعة نفسها ألغي المرسوم.

في عالم بوليكسينا، كانت النتيجة أقل بهجة. الإله، الآلهة، الشيطان، الطبيعة، النظام الاجتماعي، العالم، الـ primum mobile (المصدر الأكثر أهمية للفكرة أو للفعل)، رفضوا أن يعترفوا بالذنب أو المسؤولية. مكتبتي تعيد المرة تلو الأخرى نفس السؤال: ما الذي جعل أيوب يصبر على كل هذا الألم وهذه الخسارة؟ من الملام على غرق ويني في " أيام سعيدة " لصامويل بيكت؟ من الذي دمّر بقسوة حياة جرفيز ماكار في L assommoir لزولا؟ من الذي ضحى بأبطال روهنتون مستري في "ميزان دقيق"؟

عبر التاريخ، أولئك الذين واجهوا حساباً لايطاق عن أعمال الرعب التي ارتكبوها ــ جلادون، قتلة، أصحاب سلطة عديموا الرحمة، بيروقراطيون، مطيعون بلا حياء ــ نادراً ما أجابوا على السؤال ((لماذا؟))وجوههم القاسية تأبى الاعتراف بالإثم، ولا تعكس سوى رفض مواجهة نتائج أفعالهم الماضية. بالرغم من هذا فإن الكتب التي على رفوفي يمكنها أن تساعدني على تخيل مستقبلهم. حسب فكتور هيغو، يتخذ الجحيم أشكالا مختلفة لساكنيه المختلفين: لقابيل

يتخذ وجه هابيل، لنيرو وجه أغربينا، لماكبث يحمل الجحيم وجه بانكو، لميديا وجوه أطفالها. كان رومان غاري يحلم بضابط نازي معين حُكم عليه بأن يواجه ظهورشبح لمهرج يهودي مقتول.

إذا جرى الوقت بلانهاية، كما توحي بذلك الروابط الغامضة بين كتبي، معيداً ثيماته وكشوفه عبر القرون، إذاً كل خطيئة، كل خيانة، كل عمل شر سيواجه في النهاية نتائجه الحقيقية. بعد أن تنتهي القصة، تماما عند عتبة مكتبتي، ستنهض قرطاجة من جديد من الملح الروماني المنثور، وسيواجه دون خوان رعب دونيا آلفيرا، سينظر بروتوس ثانية إلى شبح قيصر، وكل جلاد سيتضرّع إلى ضحيته طلبا للمغفرة كي تكتمل دورة الزمن المحتومة.

مكتبتي تمنحني هذا الأمل بالمستقبل. لكن بالنسبة للضحايا، بالطبع، ما من أسباب، أدبية أو غيرها، بوسعها أن تعذر أو تكفر عن أفعال جلاديها. كتب نيك كيسترو، في تقديمه للطبعة الانكليزية لكتابه nunca más، وهو تقرير عن " المختفين " أثناء عهد الدكتاتورية العسكرية الأرجنتينية، يذكّرنا بأن القصص التي وصلتنا أخيرا هي قصص أولئك الذين بقوا على قيد الحياة. ((بوسع المرء أن يتأمل فقط))، يقول كيسترو، ((في الروايات عن الوحشية التي أخذها معهم آلاف القتلى إلى قبورهم غير المعلمة)).

من المتعذر فهم كيف أن الناس يواصلون القيام بأعمالهم البشرية في الحياة اليومية بينما الحياة هي غير بشرية، وكيف يثابر الرجال والنساء، وسط المجاعة والمرض، والتقتيل والذبح، على التشبث بالطرق المتحضرة والسلوك الطيب، ويخترعون حيلا للبقاء من أجل مقدار ضئيل من الحب، من أجل كتاب واحد أُنقذ من بين آلاف، من أجل قارئ واحد من عشرات الآلاف، من أجل صوت سيترجع حتى نهاية زمن كلمات خادم أيوب: ((وأنا وحدي من أفلت كي أروي لك)). خلال التاريخ، تقف مكتبة المنتصر كرمز للقوة،

مركزاً للرواية الرسمية للأحداث، لكن الرواية التي تطاردنا هي الرواية الأخرى التي توجد في مكتبة الرماد. مكتبة الضحايا، المهجورة أو المدمَرة، لاتني تسأل، ((كيف كانت هذه الأعمال ممكنة؟)). كتابي، كتاب الصلاة، ينتمي إلى تلك المكتبة المتسائلة.

بعد أن استولى الصليبيون الأوربيون على مدينة القدس، بعد حصار دام أربعين يوما، في ١٥ تموز ١٠٩٩، قاموا بذبح المسلمين رجالاً ونساءً وأطفالاً وأحرقوا اليهود أحياء بعد أن أقفلوا عليهم في كنيسهم، حينها تمكن حفنة من الهروب، ووصلوا إلى دمشق، حاملين معهم قرآن عثمان، واحد من أقدم النسخ الموجودة للكتاب المقدس. لقد آمنوا أن مصيرهم متنبأ به في صفحاته (لأن كلمة الله لا بد أن تحمل بالضرورة في داخلها كل أحداث الماضي والحاضر والمستقبل)، وبذلك فلو أنهم استطاعوا قراءة النص بوضوح، لعرفوا حصيلة قصتهم هم أنفسهم. لم يكن التاريخ، بالنسبة لهؤلاء القرّاء، سوى ((كشف لإرادة الله عن العالم)). كما تعلمنا مكتباتنا أن بوسع الكتب مساعدتنا أحياناً على التعبير بكلمات عن أسئلتنا، لكنها لا تمكننا بالضرورة من إستظهار الأجوبة. من خلال الأصوات المروية والقصص المتخيلة، تتيح لنا الكتب بالكاد تذكر ما لم نعانه أبداً ولم نعرفه من قبل. المعاناة نفسها تنتمي فقط إلى الضحايا. بهذا المعنى، كل قارئ هو لامنتمي، منبثق من الجحيم، ومبحر ضد تيار نهر النسيان (ليث)نحو الذاكرة، يحمل دانتي معه أصوات الأرواح المعذبة، لكنه يعرف أيضاً أن تلك الأرواح كانت معاقبة لخطاياها التي اعترفت بها هي نفسها. الأرواح التي يدوّي صوتها في حاضرنا هي، بخلاف مدانين دانتي، بريئة من الإدانة، فقد عذبت وقتلت لا لسبب سوى وجودها، وربما ليس لهذا السبب حتى. الشر ليس بحاجة إلى سبب. كيف يمكننا أن نحوي، بين غلافي كتاب، تقديم

مفيد لشيء يرفض، في جوهره، أن يكون محتوياً، سر في " الجبل السحري " لمان أو في كتاب صلاة عادي؟ كيف نجرؤ، كقرّاء، على الأمل بأن نمسك بين أيدينا دورة العالم والزمن، في حين أن العالم سيتخطى دائماً حافات الصفحة، وكل ما يمكننا أن نشهده هو اللحظة المحددة بمقطع أو قصيدة، ((اختيار))، كما قال فرانز هوسلر يؤدي غرضه المستحيل. ربما.

في يوم من أيام شهر حزيران ١٩٤٤، كان ياكوب ادلستاين، الزعيم السابق لغيتو تريسينشتاد، والذي سجن في بيركناو، في ثكنته متلفعا بالشال الطقوسي الديني، يتلو صلوات الصباح التي تعلمها بلا شك من كتاب يشبه كتابي Gebet-Ordnung. كان قد بدأ لتوه بالصلاة حين دخل إلى الثكنة ضابط الأس أس فرانز هوسلر ليأخذه بعيداً. واحد من رفاق إدلستاين المساجين، يوسل روسنسافت، يتذكر المشهد بعد مضي عام:



بورتريه لياكوب ادلستاين.

فتح الباب بقوة فجأة ودخل هوسلر مختالا، برفقة ثلاثة من رجال الأس أس. نادى باسم ياكوب. لكن ياكوب لم يتحرك. صرخ هوسلر: ((لا تدعني أنتظر، أسرع !))إلتفت ياكوب ببطء شديد، وواجه هوسلر وقال: ((في لحظاتي الأخيرة التي منحها لي القدير الأعلى على هذه الأرض، انا السيد، لا أنت.))وإذ ذاك إستدار مواجهاً الجدار لينهي صلاته. بعد ذلك طوى شال الصلاة بغير عجلة، وناوله إلى واحد من المساجين وقال لهوسلر: ((أنا الآن جاهز)).

المكتبة والنسيان

ما هو مفقود لا يمكن أن يدمَر أو يتلف."

بتراركا، عن جهله الخاص

إذا كان الليل إبن كاووس، إذن " ليث " أو النسيان هو حفيده، الذي ولد من الإتحاد الرهيب بين "الليل" و"التنافر". في الكتاب السادس من "الإنيادة"، يتخيل فرجيل ليث كنهر، مياهه تجعل الأرواح تنسى ذواتها السابقة في طريقها إلى العالم السفلي، كي يتاح لها أن تولد من جديد. ليث لا يدعنا ننسى تجاربنا وسعادتنا فحسب، بل أيضاً أحكامنا المسبقة وشقاءنا.

مكتبتي تتألف من كتب نصفها أتذكره ونصفها الآخر نسيته. لم تعد ذاكرتي الآن حادة كما كانت، صارت الصفحات تتلاشى حين أحاول أن أستعيدها. بعضها اختفت من خبرتي تماماً، أمست منسية وغير مرئية. أخرى سكنتني على نحو مغو بعنوان أو بصورة، أو ببضع كلماتٍ من نص. أي رواية تبدأ بهذه الكلمات ((في أمسية ربيعية من عام ١٨٩٠))؟ أين قرأت عن الملك سليمان حين استخدم مرآة ليكتشف ان كان للملكة شيباً سيقان مشعرة؟ من كتب ذاك الكتاب الملفت "الطيران في الظلام"، الذي أذكر منه وصفا لرواق مسدود مليء بطيور تخفق بأجنحتها؟ في أي قصة قرأت هذه العبارة ((غرفة مكتبته المليئة بسقط المتاع))؟ أي مجلد على غلافه شمعة مضاءة، مرسومة بقلم شحمي كثيف على ورقة بلون القشدة؟ في مكان ما من مكتبتي ثمة أجوبة لهذه الأسئلة، لكني نسيت مكانها.

غالبا ما يسألني ضيوفي إن كنت قرأت كل كتبي، وغالباً ما أجيب بأني بالتأكيد فتحت كل كتاب منها. في الواقع إن مكتبة ما، مهما كان حجمها

لا تحتاج، كي تكون نافعة، أن تُقرأ بمجموعها، إذ إن كل قارئ ينتفع من التوازن المناسب بين المعرفة والجهل، التذكر والنسيان. في ١٩٣٠، تخيل روبرت موسيل شخصية أمين مكتبة متفان يعمل في المكتبة الإمبراطورية في فيينا، ويعرف كل عنوان في مكتبته الضخمة ((هل تود أن تعرف كيف قدّر لي أن أجعل كل كتاب من هذه الكتب مألوفاً لي؟))، سأل واحد من زواره المندهشين. ((لا شيء يمنعني من إخبارك بذلك: ذلك لأني لم أقرأ أي منها!))، ثم أضاف، ((إن سر أي مكتبي جيد هو أن لا يقرأ أيا من الأدب الذي عهد به اليه، ما عدا العناوين وكشوف مضامين الكتب. إن الذي يدس أنفه داخل الكتاب نفسه خسارة للمكتبة! سوف لن تكون له أبداً أي نظرة عامة عن الكل!))حين سمع الزائر هذه الكلمات، يحكي لنا موسيل، راودته رغبة بعمل واحد من أمرين ــ إما أن ينفجر بالبكاء أو يشعل سيجارة ــ لكنه يعرف أنّ كلا الأمرين ممنوعان في مكتبة.

ليس لدي أي شعور بالذنب بشأن الكتب التي لم أقرأها وربما لن أقرأها أبدا، فأنا أعرف بأن كتبي لديها صبر لا حدود له. سوف تظل تنتظرني حتى نهاية العمر. وهي لا تطلب من أن أتظاهر بأني أعرفها كلها، ولا تطالبني أن أغدو واحدا من ((معالجي الكتب المحترفين))الذي تخيله فلان اوبريان، وهو الشخص الذي يجمع الكتب بشراهة لكنه لا يقرأها، والذي يمكنه (كما يقول اوبريان)أن يكسب مورد عيشه من ((معالجة))الكتب لقاء أجر زهيد، حيث يجعلها في الظاهر تبدو مقروءة، اذ يملأ بالحواشي هوامش الكتاب بتعليقات وكتابات مزيفة، وحتى يُدخِل في الكتاب برامج لعروض مسرحية أو أشياء سريعة الزوال كمؤشر بين الصفحات العذراوات.

كتب إدوارد غيبون معلقا بإطراء على المكتبة الضخمة وحشد الحريم للإمبراطور الروماني غورديان الأصغر في القرن الثالث بعد الميلاد، ((اثنان

وعشرون محظية معترف بها، ومكتبة من اثنين وستين ألف مجلد تشهد على تنوّع رغباته، واتضح من الآثار التي خلفها وراءه أن كلا الملكيتين كانتا معدتين للاستخدام أكثر مما للتفاخر)). لا أحد يتوقع من عبقري مجنون أن يفكر بقراءة مكتبة من اثنين وستين ألف مجلد، صفحة بعد صفحة، من الألف إلى الياء، حافظاً كل كتاب في ذاكرته، حتى لو كان هذا العمل الخارق ممكناً. لا بد ان غورديان كان يطبق نفس تقنية القراءة التي دعاها ساموبل جونسون، بعد ستة عشر قرنا، بالطريقة السطحية. جونسون نفسه كان يقرأ دون منهج أو التزام، فهو يترك أحياناً صفحات كاملة من الكتاب ملصقة ببعض لا يفتحها، ويقرأ فقط النص الذي تفتح صفحاته أمامه. ((أنا لا أفترض))، قال، ((إن ما في الصفحات المغلقة هو أسوأ مما في الصفحات المفتوحة)). لم يشعر جونسون أنه ملزم بقراءة كتاب إلى النهاية أو بالشروع بالقراءة من الصفحة الأولى. ((إذا ما بدأ المرء بالقراءة من منتصف الكتاب، وشعر برغبة بالاستمرار، لا تدعه يقف ويعود إلى البداية، إذ ربما تخبو رغبته بالقراءة)). لقد رأى انها ((نصيحة غريبة))أن تحث شخصا علي الانتهاء من كتاب كان قد بدأ به ((فالأمر يشبه أن تتخذ شخصاً صديقاً مدى الحياة لمجرد أنك التقيته مصادفة)). لم يجد من الضروري أن نبحث عن عناوين محددة، بل نفتح ببساطة أول كتاب يصادفنا. إن الحظ، كما اعتقد هو، مستشار جيد بقدر ما هي المعرفة الواسعة.

الكاتب الموسوس لسيرة حياة جونسون، جيمس بوزويل، يذكر أنه حين كان جونسون صبياً، ((توهم أن أخاه قد أخفى بعض التفاحات خلف كتاب كبير الحجم في الرفوف العليا في متجر والده، فتسلق الرفوف بحثا عنها. لكنه لم يجد التفاحات، بل وجد كتاباً كبيراً تبين أنه كتابا لبتراركا، الذي كان قد أشير إليه في أحد الدروس بوصفه واحداً من مجددي التعليم. فتعاظم

فضوله، وجلس يقرأ بنهم الجزء الأعظم من الكتاب)). لقد مرّت بي لقاءات سعيدة مثل هذه.

الكتب المنسية في مكتبتي تحيا حياة صامتةً لا تلفت النظر. مع هذا فإن ميزتها كونها منسية تتيح لي، أحياناً، إعادة اكتشاف قصة معينة، قصيدة معينة، كما لو انها جديدة تماما بالنسبة لي. أفتح كتاباً، كنت أظن أني لم أفتحه من قبل أبداً، فألتقي مصادفة بمقطع رائع، فأعزم على حفظه، ومن ثم أغلق الكتاب وأكتشف، على الورقة الأخيرة، أن ذاتي الأصغر والأحكم كانت وضعت إشارة على المقطع الخاص حين اكتشفته أول مرة في عمر الثانية عشر أو الثالثة عشر. نهر ليث لا يعيد لي براءتي، لكنه يجعلني أعود ثانية ذاك الفتى الذي لم يكن يعرف من الذي قتل روجر آكرويد، أو من الذي تفجع على مصير آنا كارانينا. أبدأ من جديد بالكلمات الأولى، وأدرك أني لا أستطيع حقاً أن أبدأ ثانية، إذ أشعر بنفسي مجرداً من خبرة أعرف اني امتلكتها سابقاً، ولا بد أن أكتسبها مرة أخرى، مثل جلد جديد. في اليونان القديمة، كانت الأفعى رمزاً لنهر ليث.

لكن هناك مكتبات يكون النسيان (أو محاولة النسيان)فيها مطلوباً تماماً من أجل منع إعادة الاكتشاف. المكتبات المراقبة الآنفة الذكر، المكتبات البيروقراطية المتصلبة، المكتبات العلمية التي تركز على التوثيق فقط والذي يعتبره الأكاديميون هو الحقيقة، كل هذه تنتمي إلى نوع مظلم ومتواري. في كتاب فكه عن قيم النسيان، لاحظ العالم الألماني هارالد واينريش أن هناك حالة نفسية علمية معينة تعمل وفقاً لمبادئ الإقصاء المتعمد. فعلى سبيل المثال، مكتبة المطبوعات العلمية، التي تختار منها لجنة جائزة نوبل أسماء مرشحيها، محددة بالقواعد الأربع التالية للنسيان المفروض:

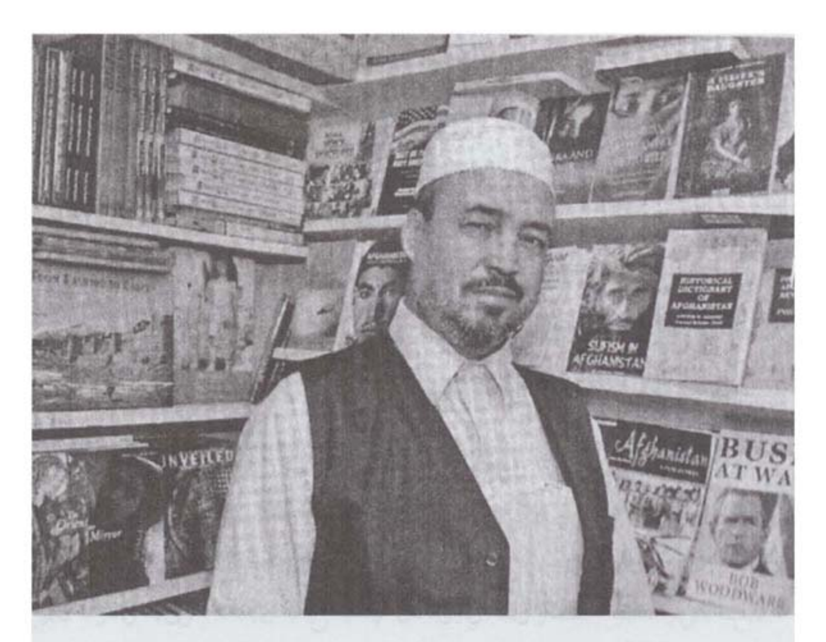
١. أن تكون منشورة بلغة غير الإنكليزية... انس ذلك.

٢. أن تكون منشورة بأسلوب يختلف عن أسلوب المادة الحاصلة على الجائزة... انس ذلك.

٣. أن لا تكون منشورة في واحدة من المجلات المرموقة أ،ب، أو ج... انس ذلك.

٤. بأن تكون قد نشرت قبل خمسين سنة... انس ذلك.

كانت القراءة عبارة عن مهارة تتيح لنا تذكر التجربة المشتركة للجنس البشري، من هنا ستحاول الحكومات الشمولية أن تخمد الذاكرة التي تحتويها الصفحة. في ظل ظروف مثل هذه، فإن صراع القارئ سيكون موجهاً ضد النسيان. بعد قصف كابول بالقنابل عام٢٠٠٤، روى شاه محمد، وهو أمين مكتبة بالإضافة إلى بائع كتب،عاش في ظل أنظمة متعصبة مختلفة، تجربته إلى أحد الصحفيين. لقد فتح متجره قبل ثلاثين عاماً وتمكن بطريقة وبأخرى أن يراوغ جلاديه. إلهامه بالمقاومة من أجل كتبه، كما يروي، جاء من قصيدة للفردوسي، الشاعر الفارسي الشهير في القرن التاسع، في " كتاب الملوك ": ((حين تواجه خطراً عظيماً، تصرّف مرّة مثل الذئب وأخرى مثل الحمل)). غلّف شاه محمد، صاغراً، كتبه باللون الأحمر في فترة النظام العقائدي الشيوعي. وغطى بقطع من الورق صور الأشياء الحية في مطبوعاته أثناء حكم محطمي التماثيل، طالبان. ((لكن الشيوعيين أحرقوا كتبي، كما أحرقوها طالبان)). في النهاية، وبعد الغارة الأخيرة على محله، حين كانت الشرطة تكدس كتبه للحرق، تخلى شاه محمد عن خنوعه وذهب ليقابل وزير الثقافة، ((لقد دمرت كتبي))، قال للوزير، ((وربما ستدمر حياتي أيضا، لكن هناك شيئاً لا يمكنك تدميره أبدا)). سأله الوزير: ماهو؟ ((تاريخ أفغانستان))، أجاب شاه محمد. بمعجزة، لم يتعرض شاه محمد للأذى.



بائع الكتب الأفغاني شاه محد ريس من كابول.

في الولايات المتحدة، المحاولات الأولى لجعل تعلم القراءة مستحيلة على السكان السود تعود إلى الأيام المبكرة للعبودية، ففي سبيل منع العبيد من التمرّد، كان من المهم أن يبقوا جهلة. إذا ما تعلم العبيد القراءة، فإنهم سيجادلون، ويصبحون على اطلاع على الحجج السياسية والفلسفية والدينية التي تدعو إلى إلغاء العبودية، وسيثورون ضد أسيادهم. لذلك، كان العبد الذي يتعلم القراءة، وإن كان الكتاب المقدس، يعاقب بالموت، إذ يفترض، حتى لو كانت هداية العبيد ((مواتية))، أن تكتسب المعرفة التي في الكتاب المقدس، فقط من خلال أعين أسيادهم البيض. كتب المعلم الأسود بوكر تي واشنطن أنه في طفولته ((كان حلم الناس المتقدمين في العمر أن يتعلموا قراءة الكتاب المقدس قبل موتهم. ومن أجل هذا الهدف المنشود، كان المرء يعثر على رجال ونساء في الخمسين من العمر أو حتى في الخامسة والسبعين في المدارس المسائية)).

ليس البيض كلهم كانوا يؤمنون بأن تعلم العبيد القراءة سيفضي إلى ثورة، إذ كان منهم من يعتقد أن العبيد إذا تعلموا قراءة الكتاب المقدس، سيصبحون، بالعكس، خدما صاغرين ومطيعين. حتى بعد أن بدأت الجمعية الأمريكية بتوزيع الكتب المقدسة على السود بعد تحرير العبيد في نهاية ستينيات القرن التاسع عشر، كان بين المربّين البيض المتفتحين من يؤمن بأن التعليم يجب أن لا يكون وسيلة للتحرر الفكري فقط، بل ((أداة رئيسية لإبعاد شبح التهديد بالثورة من قبل الجموع "الوضيعة" والخطرة ضد الجمهورية)).



بورتريه لبوكر تي واشنطون.

في الجنوب الأمريكي، كانت المكتبات موصدة بوجه السكان السود حتى بداية القرن العشرين. المكتبة الأولى التي كسرت الطوق هي مكتبة كوسيت في ممفيس، ولاية تينيسي، التي وافقت على تجهيز معهد ليموين، وهي مدرسة للأطفال السود، بأمين مكتبة ومجموعة من الكتب. في الولايات الشمالية فتحت المكتبات العامة أبوابها للقرّاء السود قبل ذلك ببضع سنوات، لكن الخوف من ارتياد الأماكن التي كانت محظورة عليهم ظل سائداً حتى نهاية الخمسينيات من القرن الماضي. يتذكر جيمس بالدون نفسه وهو فتى، واقف عند زاوية جادة فيفث افنيو وشارع فورتي سكند ستريت، يتطلع بإعجاب ((الأسود الحجرية التي تحرس المبنى الرئيسي الضخم للمكتبة العامة)). كان المبنى يبدو له فسيحا ومهولا فلم يجرؤ على الدخول إليه، إذ كان يخشى أن يضل طريقه في متاهة الأروقة والسلالم الحجرية، ولا يجد أبداً الكتاب الذي يبحث عنه. ((حينئذ سيدرك الجميع))، كتب بعد سنوات طويلة، كما لو كان يراقب نفسه، ((كل الناس البيض في الداخل، أن هذا الفتى غير معتاد على المباني الكبيرة، أو على الكتب الكثيرة، وسينظرون إليه بشفقة)).

يمكن أن يكون النسيان مفروضا على مكتبات بطرق عدة ـ بمصادفة الحرب أو الترحيل. في عام ١٩٤٥، قبل وقت قصير من نهاية الحرب العالمية الثانية، اكتشف ضابط روسي في قطار ألماني مهجور عددا من من الصناديق المفتوحة تطفح بكتب روسية وأوراق كان النازيون غنموها. تلك، طبقا للكاتب ايليا اهرنبورغ، كانت كل ما تبقى من مكتبة تورجنيف، التي أسسها مؤلف "الآباء والبنون" في باريس عام ١٨٧٥ لصالح الطلاب المهاجرين، والتي دعتها الروائية نينا بيربيروفا ((أعظم مكتبة روسية في المهجر)). وحتى هذه الكتب اختفت اليوم.

الشاعرة باللغة اليديشية راشيل كورن، التي قضت معظم حياتها، كما

تصفها هي، ((مثل حطام سفينة على شاطئ في كندا))، قالت انها، بعد نفيها من قريتها في غاليشيا الشرقية، شعرت نفسها مثل شخص ((كان مجبراً على ترك متاعه على سفينة على وشك الغرق)). لكنها قاومت ما كان يبدو لها "النسيان المفروض". ((حين تكون مرغما على ترك بلدك))، تقول، ((كل المكتبات تضيع، عدا تلك التي تتذكرها، وحتى هذه، لا بد لك أن تعيد قراءتها في ذهنك، مرة تلو المرة، حتى لا تستمر الصفحات بالضياع)). تروي ابنتها كيف كانت كورن تجبرها كل ليلة، بعد وقت قصير من وصولهما إلى مونتريال، على قراءة قصائد بوشكين واخماتوفا وماندلستام، التي تحفظها عن ظهر قلب، كما لوكانت صلاة قبل النوم. ((أحيانا تصحح لي مقطعاً، وأحياناً أصحح أنا)). هذه النصوص المتذكرة، كانت المكتبة الوحيدة الحقيقية في المهجر.

أحيانا يحدث أن تختفي مكتبة بقصد. في نيسان ٢٠٠٣، وتحت أبصار الجيش الأنجلو-أمريكي، الذي كان واقفا مكتوف الأيدي بينما كان الأرشيف الوطني ومتحف الآثار والمكتبة الوطنية في بغداد تتعرض للنهب والتدمير. في ساعات قليلة اختفى للأبد الجزء الأعظم من تاريخ البشرية القديم المسجل، النماذج المبكرة الباقية من الكتابات الإنسانية التي يبلغ عمرها ستة آلاف سنة، والكتابات التاريخية في القرون الوسطى، التي نجت من مخالب أتباع صدام حسين، وعدد لا يحصى من المجلدات منها المجموعة النادرة من نسخ القرآن التي حفظت في وزارة الأوقاف، كلها اختفت، وربما إلى الأبد. من بين المفقودات مخطوطات دبجت على نحو مفعم بالحب بأيدي الخطاطين العرب المشاهير، التي يفصح فيها جمال الخط عن جمال المحتوى. كما اختفت مجموعات من قصص، مثل قصص " ألف ليلة وليلة "، التي دعاها الكتبي العراقي ابن النديم في القرن التاسع، بقصص المساء، لأن على المرء

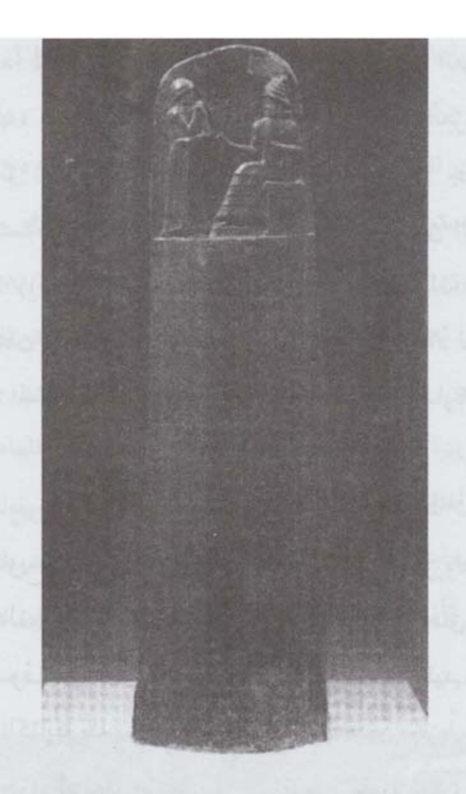
أن لا يضيع ساعات النهار بقراءة تسليات عادية. والوثائق الرسمية التي سجلت تاريخ حكام بغداد العثمانيين، انضمت كلها إلى رماد أسيادها. في النهاية، ضاعت الكتب التي نجت من الغزو المغولي في ١٢٥٨، حيث رمى جيش الغزاة محتويات مكتبات بغداد في نهر دجلة لبناء جسر من ورق، وحوّل الحبر لون المياه إلى الأسود. لن يعود بإمكان أحد بعد الآن مراجعة المراسلات التي تصف في تفاصيل دقيقة مخاطر الرحلات إلى مدن مدهشة توقف بها الزمن وظلت سجينة الماضي. ولن يتاح لأحد بعد الآن قراءة هذه النسخ الفريدة، في أعمال مرجعية مثل "فجر ليلة ظلماء"، الذي كتبه العالم المصري القلقشندي في القرن الرابع عشر، والذي شرح مفصلا في أحد المجلدات الأربعةعشرة، كيف يجب أن ينظم كل حرف من حروف نص عربي مكتوب، لأنه اعتقد بأن ما كان كُتب سوف لن يكون منسيا أبداً.



آثار التخريب في المكتبة الوطنية في بغداد.

مع ان عددا لا بأس به من المقتنيات قد أعيدت إلى العراق في الشهور التي تلت النهب، عند نهاية العام ٢٠٠٤، فإن الممتلكات العراقية من الكتب المسروقة والوثائق والآثار لم تسترجع كلها، بالرغم من جهود الإنتربول واليونسكو ومؤسسات ثقافية حول العالم. وقد دُمّر كثير من النصوص والمواد التي لا تعوض. ((كل ما استرجعناه لا يشكل خمسين بالمئة من مجموع ما نهب))، كما أعلن الدكتور دوني جورج، مدير متحف بغداد للآثار، ((وأكثر من نصف المواد المسروقة ما زالت مفقودة، وهو ما يعدّ خسارة عظيمة للعراق وللبشرية)).

لوتشيانو كانفورا أكد على أهمية توثيق، ليس فقط تاريخ المكتبات والكتب، بل تاريخ الوعي باختفائها. لقد أشار إلى ديدوروس سيكولوس، على سبيل المثال، في القرن الأول قبل الميلاد، الذي علق على الكتاب التاريخي للفيلسوف الإغريقي ثيوبومبوس عن حملات فيليب المقدوني، إذ كتب بأن هذا الكتاب كان مؤلفا من ثمانية وخمسين جزءاً، منها ((لسوء الحظ، خمسة أجزاء لم يعثر عليها أبداً)). يفسر كانفورا ذلك، بأن ديدوروس عاش معظم حياته في صقلية، وحين يأسف على ضياع مجلدات ثيوبومبوس الخمسة فقد كان يعني أنها اختفت من المجموعة المحلية في المكان الذي كانت فيه (صقلية)، ربما من المكتبة التاريخية في تاورمينا. على أي حال، بعد ثمانية قرون من ديدوروس، لاحظ النبيل الروماني فوتيوس، مؤلف كتاب ببليوغرافي موسوعي تحت عنوان Bibliotheka، أو " مكتبة "، أن ((ما بقي من من السجل التاريخي لثيوبومبوس ثلاثة وخمسين مجلداً فقط)). الخسارة التي أشار إليها ديدوروس ما زالت حقيقة بالنسبة لفوتيوس، فهذا يعني، أن الوعي بالغياب أصبح جزءاً من تاريخ العمل نفسه، معوضاً، بناء على مقياس معين، عن النسيان الذي حكم به على الأجزاء المفقودة.



مسلة حمورابي.

الإيمان ببقاء الكلمة حية، كما النزعة إلى نسيان ما تحاول الكلمات أن تسجله، قديم قدم الألواح الطينية الأثرية التي سرقت من متحف بغداد. الحفاظ على الذاكرة ونقلها، التعلم من تجارب الآخرين، تقاسم معرفة العالم ومعرفتنا، كلها نوع من الامتيازات (والأخطار)التي تقدمها لنا الكتب، وهي الأسباب التي تجعلنا نحبها ونخافها معاً. قبل أربعة آلاف سنة، عرف أجدادنا في ميزوبوتاميا هذا من قبل. مسلة حمورابي ـ وهي مجموعة من القوانين نقشت على عمود حجري أسود طويل شرّعها الملك البابلي حمورابي في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وهي محفوظة اليوم في متحف اللوفر ـ

تقدم لنا، في خاتمتها، مثلاً مشرقاً لما يمكن أن تعنيه الكلمة المكتوبة للإنسان العادي:

في سبيل الحد من ظلم القوي للضعيف، في سبيل تحقيق العدل للأيتام والأرامل... نقشت على مسلتي كلماتي الأثيرة... إذا كان ثمة إنسان يملك قدراً وافياً من الحكمة لصون النظام في البلاد، فإنه سيلتفت إلى الكلمات المكتوبة على هذه المسلة... اقرأوا هذه الكتابات بصوت عال للمواطن المظلوم... ستضيء المسلة له قضيته. وحين يفهم ماسيجنيه[من كلمات القانون]، فإن السكينة ستحل في قلبه.

المكتبة خيالا

((مثلما من السهل تخيل كتاب، من الصعب وضعه على الورق)).

بلزاك، حجرة الأنتيكات

في حديقتي شجرتا سوفوراً، خارج نوافذ غرفة مكتبي تماماً. عندما يزورني أصدقائي، أثناء الصيف، نجلس ونتحدث تحتهما، أحياناً في النهار وعادة في الليل. داخل حجرة المكتبة، تلهينا الكتب عن المحادثة فنميل إلى الصمت، لكن في الخارج، تحت النجوم، يغدو الحديث أقل كبتا، أوسع مدى، وبغرابة، أكثر إثارة. ثمة شيء ما، في الجلوس خارجاً في الظلام، يبدو إنه يشجع على حديث غير مقيد. الظلمة حافز للكلام، بينما الضوء دافع للصمت ـ أو، كما قال هنري فيلدنغ في "أميليا"، ((Tace، مدام، كلمة تعني في اللاتينية شمعة)).

علمتنا النواميس، أن الكلمات، لا الضوء، هي التي بزغت أولا من الظلام البدئي. وفقاً للأسطورة التلمودية، حين شرع الرب بخلق العالم، هبطت من تاجه الرهيب والجليل الاثنان وعشرون حرفا من الأبجدية وتضرعت إليه أن ينجز خلقه من خلالها هي. وافق الرب، وأباح للأبجدية أن تمنح الوجود للسماوات والأرض في الظلام، وأن تولّد أول شعاع من النور من قلب الأرض، كي يخترق البلاد المقدسة وينير الكون بأجمعه. النور، ما تعودنا أن يكون نورا، يقول السير توماس براون، هو ظل الله فقط، والذي في إشعاعه الأعمى لا تعود الكلمات ممكنة. عجيزة الرب كانت كافية لتبهر بصر موسى، الذي احتاج أن ينتظر حتى عاد إلى ظلام صحراء سيناء كي يقرأ لشعبه وصايا السيد الأعلى. لخص القديس يوحنا، باقتصاد جدير بالثناء، العلاقة بين الحروف، والضوء والظلام في جملة واحدة شهيرة: ((في البدء كانت الكلمة)).

جملة القديس يوحنا تصف تجربة القارئ. أي قارئ يجلس في مكتبة يعرف، أن الكلمات التي على الصفحة تستنجد بالضوء. الظلام والكلمات والضوء يؤلفون دائرة طاهرة. الكلمات تأتي بالضوء إلى الوجود، ومن ثم تندب موته. في الضوء نحن نقرأ، في الظلام نتكلم. وهو يناشد أباه أن لا يسلم نفسه للموت، أصرّ توماس ديلان، بكلمات هي الآن شهيرة، على الرجل العجوز: ((غضب، غضب ضد موت النور)). وعطيل أيضاً، في عذابه، تشوش بين نور الشمعة ونور الحياة، وحسبهما شيئاً واحداً: ((إطفئ النور))، يقول، ((ثم اطفئ النور)). الكلمات تستلزم الضوء كي تكون مقروءة، لكن يظهر أن الضوء يعارض الكلمة المنطوقة. حين عرض توماس جيفرسون مصباح آرغاند أمام ضيوفه، في نيو انكلند في منتصف القرن الثامن عشر، لاحظ أن المحادثة التي كانت تجري بينهم على مائدة العشاء التي كانت مضاءة بالشموع، فقدت بريقها وهؤلاء الذين تفوقوا في الكلام ذهبوا الآن إلى غرف نومهم للقراءة. ((لديَّ فيض كثير من النور))، يقول بوذا، رافضا أن ينبس بكلمات أخرى.

في معنى أخر من المعاني العملية للكلمة، الكلمات تخلق الضوء. شعب بيزوبوتاميا الذي كان يتمنى أن يواصل القراءة بعد حلول الظلام، والروماني الذي كان ينوي مراجعة وثائقه بعد العشاء، والراهب في صومعته والعالم في مكتبه بعد صلوات المساء، ورجل البلاط منسحبا إلى غرفة نومه والسيدة إلى مخدعها، والطفل مختبئاً تحت ملاءته ليقرأ بعد ناقوس الغروب ـ كل هؤلاء تعهدوا بمصدر للضوء لإنارة فروض قراءاتهم. في المتحف الآثاري في مدريد، يوجد مصباح زيتي من بومبي، على ضوئه ربما قرأ بلنتي الشيخ آخر كتبه، قبل أن يبدأ رحلة الموت في ثوران بركان فيزوف عام ٧٩ بعد الميلاد. في مكان ما في مدينة ستراتفورد، مقاطعة أونتاريو، يوجد شمعدان ذا شمعة واحدة يعود تاريخه (كما يتفاخر صاحبه)الى عصر شكسبير، ربما حمل ذات يوم شمعة

رأى ماكبث في حياتها القصيرة مرآة لحياته هو. المصابيح التي أضاءت قراءات دانتي في مهجره في رافينا وقراءات راسين في ديره المعزول في بودرويال، وقراءات ستاندال في روما ودي كوينسي في لندن، كلها ولدت من كلمات مستحضرة من بين الصفحات، كلها كانت نوراً ساعد على ولادة النور.

في الضوء، نحن نقرأ اختراعات الآخرين، أما في الظلمة، فنحن نخترع قصصنا الخاصة بنا. مرات كثيرة، جلست، تحت شجرتيّ، مع أصدقاء نتحدث حول كتب لم تكتب أبداً. أتخمنا مكتبات بحكايات لم نر حاجة إلى تدوينها على ورق. ((اختلاق حبكة لرواية هي مهمة تبعث على السرور))، قال بورخس يوما، ((في الواقع، الكتابة ما هي إلا مبالغة)). كان يمتعه أن يملأ في مكتبة لا يمكنه أن يراها ثغرات بقصص لم يكلف نفسه عناء كتابتها، لكنه يتنازل أحياناً بكتابة مقدمة أو ملخص أو نقد لها. حتى في شبابه، كما يقول، حفزه وعيه بعماه الوشيك بالتعود على تخيل مجلدات معقدة لن تأخذ شكل المطبوع أبداً. ورث بورخس عن أبيه المرض الذي يضعف بصره تدريجيا وبشكل منتظم، وكان الطبيب منعه من القراءة في ضوء خافت. ذات يوم، في رحلة بالقطار، انهمك كثيرا بقراءة رواية بوليسية، وواصل القراءة على ضوء الغسق الخابي. قبل أن يصل القطار وجهته بقليل، دخل في نفق، حينئذ أحسّ بورخس أنه لم يعد يرى أي شيء، عدا سديم من الألوان، ((الظلام المرئي))الذي ظنه ملتون أنه الجحيم. في هذا الظلام عاش بورخس بقية حياته، متذكراً أو متخيلاً قصصاً، معيداً في ذهنه بناء المكتبة الوطنية في بوينس آيرس، أو مكتبته الصغيرة في بيته. في نور النصف الأول من حياته، كتب وقرأ بصمت، أما في ظلمة النصف الثاني، فإنه أملى على الآخرين كتاباته كما قرأوا له.

في عام ١٩٥٥، بعد وقت قصير من الانقلاب العسكري الذي أطاح بدكتاتورية الجنرال بيرون، عُرض على بورخس منصب مدير المكتبة الوطنية. كانت صاحبة الفكرة فكتوريا اوكامبو، رئيسة التحرير الرائعة لمجلة Sur، وصديقة بورخس لسنوات طويلة. إعتبر بورخس أنه ((مشروع طائش)) أن يتم تعيين رجل أعمى كأمين مكتبة، لكنه تذكر عندئذ إن إثنين من المدراء السابقين كانا عميانا: خوزيه مامول وبول غروساك. حين تم ترشيحه للمنصب، اقترحت والدة بورخس عليه أن يذهبا إلى المكتبة ويلقيا نظرة على المبنى، لكن بورخس أحسّ بالتطيّر فرفض الذهاب، ((ليس قبل أن أحصل على الوظيفة))، قال لأمه. بعد بضعة أيام، عُين في منصبه. للاحتفال في المناسبة، كتب قصيدة عن ((سخرية الله الرائعة))التي وهبته في وقت واحد ((الكتب والليل)).

عمل بورخس في المكتبة الوطنية ثمانية عشر عاماً، حتى تقاعد، وقد شغف بمنصبه كثيراً، حتى إنه كان يحتفل تقريباً كل عام بعيد ميلاده هناك. في مكتبه المغطاة جدرانه بألواح خشبية، تحت سقف عالي مرصع برسومات زهور زنبق فرنسية ونجمات ذهبية، يجلس عدة ساعات، موليا ظهره لوسط الغرفة، على مكتب مدوّر ضخم ورائع، نسخة من ذلك المكتب الذي كان يجلس عليه رئيس وزراء فرنسا جورج كليمانسو، وقد وجده بورخس تفاخري بإفراط. هنا أملى قصائده ورواياته، وقرئت له الكتب من قبل مساعدين متحمسين، واستقبل أصدقاء وطلاب وصحفيين، وقاد مجموعات دراسية من الانجلو- ساكسون. أما الأعمال الإدارية فتركها إلى مساعد المدير المثقف إدموند كليمنته.



خورخه لويس بورخس في مكتبه في المكتبة الوطنية في بوينس آيرس.

كثير من القصص والمقالات المنشورة لبورخس تنوّه بكتب ابتدعها ولم يكلف نفسه عناء كتابتها. من بينها القصص الشعرية الكثيرة بقلم الكاتب الوهمي هربرت كوين (موضوع لقصة شبيهة بالمقالة)، الذي يوسع من حبكة وحيدة في متوالية هندسية حتى تصبح عدداً من حبكات لانهائية، والرواية البوليسية المدهشة "الاقتراب من المعتصم" بقلم ((محامي بومباي مير بهادور علي))، عُرضت نقديا على نحو مفترض من قبل كتاب حقيقيين مثل فيليب غوديلا وسيسيل روبرتز، وطبعت من قبل الحقيقي على حد سواء فكتور غولانز في لندن، مع مقدمة بقلم دوروثي أل ساير، تحت عنوان معدّل هو " محادثات مع رجل يدعى المعتصم: لعبة مع المرايا المتغيرة "، والمجلد الحادي عشر من " First Encyclopaedia of Tlön "، الذي تسلمه هربرت ايش، قبل وفاته بقليل، في رزمة مختومة ومسجلة من البرازيل، ومسرحية "الأعداء"، التي تركها جارومير هادك غير منتهية، لكنها نضجت

في ذهنه خلال لحظة طويلة ملهمة قبل إعدامه، وأخيراً المجلد من قطع الثمن ذي الصفحات اللانهائية، ويحمل على غلافه كلمات "الكتاب المقدس و"بومباي"، والذي حمله بورخس بين يديه (كما يقول)قليلا قبل تقاعده من منصبه كمدير للمكتبة الوطنية.

جمع الكتب المتخيَلة هي مهنة قديمة. في عام ١٥٣٢ ظهر في فرنسا كتاباً موقعا باسم عالم ابوكريفاوي يدعى الكوفريباس ناسير (جناس تصحيفي لاسم فرانسوا رابليه)معنون بـ " الأعمال والإنجازات الرهيبة والمرعبة للشهير جدا بانتاغرول ملك ديبسودس، وابن العملاق غارغانتوا ". في الفصل السابع من الكتاب الثاني، ينوي الفتى بانتاغرول، الذي درس دراسة ((جيدة جدا)) زيارة باريس وجامعتها. على أي حال، لم يلفت المعهد العلمي انتباهه، بل دير سان فكتور للرهبان، حيث وجد هناك مكتبة ((فخمة جدا ومهيبة))، مليئة بأكثر الكتب روعة. الفهرست الذي نسخه لنا رابليه طوله خمس صفحات، ويتضمن عجائب مثل:

- جيوب القانون
- رمانة الرذيلة
- قدر خردل الكفارة
- الكرش السمين للتفكير الحسن
- فتات طعام رعاة الأبرشية
- عوينات الحجاج القاصدين روما
- القطة المتفرية للسوليستوريين والآتورنيين
- دحض المؤلفين لمزاعم هؤلاء الذين يقولون إن بغل البابوات يأكل فعلا في أوقات معينة
- العجيزة الجرداء أو الكفل المسلوخ للأرامل

ـ تقسيم إرث المنافقين

ـ أنابيب هواء الصيادلة

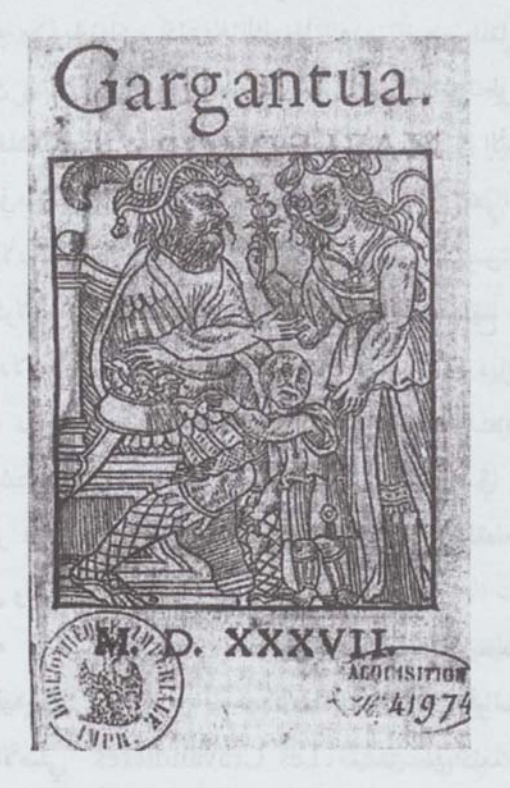
ـ عصيدة إخوة الصلاة بقلم رادنيكو والدينس

ـ البطون المنتفخة للرؤساء

في رسالة تتضمن نصيحة بعثها إلى ابنه من يوتوبيا، يحث غارغانتوا ولده بانتاغرول على الإفادة من مهاراته ((التي بها، في ميدان الموت، قد تبلغ نوعا من الخلود)). ((العالم مليء بالحكماء من البشر وذوي المعرفة))، كتب، ((وبالمكتبات الواسعة. ويظهر لي كحقيقة، بأنه لا في عصر بلاتو ولا تشيشيرو ولا بابنيان، كان هناك مثل هذه الفرص المتاحة للدراسة كما هي الآن [...] أرى اليوم لصوصا وجلادين وقاطعي طرق ونسّاجين وفندقيين، وماشاكل ذلك من نفاية الناس، هم أكثر علما من الأطباء والوعّاظ الذين كانوا في زمني)). المكتبة التي اخترعها رابليه ربما هي أول "مكتبة متخيلة" في الأدب. إنها تهزأ (حسب تقاليد أثيريه ايراسموس وتوماس مور)بالعالم السكولائي والرهباني، لكن الأهم من هذا، انها تتيح للقارئ متعة تخيل المجادلات والحبكات خلف العناوين الفكهة. في دير من أديرته الغارغانتوية، دير ثيليم، نقش رابليه هذا الشعار، Lays ce que voudra (افعل ما شئت). من المحتمل انه كتب على مكتبته في سان فكتور الشعار الآخر Lys ce que voudra (اقرأ ما شئت). لقد وضعت هذه الكلمات على واحد من أبواب مكتبتي.

ولد رابليه في عام ١٤٨٤، قرب مدينة شينون، ليست بعيدة عن المكان الذي أعيش فيه الآن. منزله كان يدعى La Devinière ، أو منزل المتنبئ، وكان اسمه الأصلي Les Cravandières، مشتق من كلمة cravant، وتعني " الأوز البري" في لهجة مدينة تور. بما أن الأوز كانت تستخدم للتنبؤ

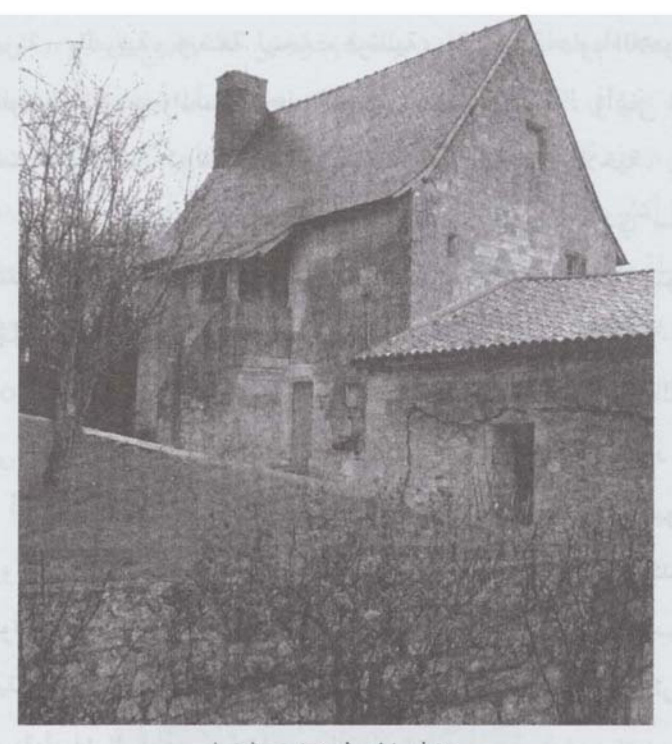
بالمستقبل، فإن اسم البيت تغير تكريما لقدرة هذا الطائر السحرية. البيت، والطبيعة المحيطة به، والمدن والنصب وحتى ذلك البرج الرفيع، مارماند، الذي بني في القرن الحادي عشر، والذي يمكنني أن أراه من نهاية حديقة بيتي، هذه كلها غدت مواقع لملحمته العملاقة. نجاح " بانتاغرول" (بيعت منها أكثر من أربعة آلاف نسخة في الشهور القليلة الأولى)جعلت رابليه يقرر مواصلة مغامرات عمالقته. بعد سنتين نشر "الحياة المروّعة لغارغانتوا العظيم، والد بانتاغرول"، وبضعة كتب أخرى من الملحمة. في عام ١٥٣٤ حظرت الكنيسة كتب رابليه، وأصدرت مرسوماً كنسياً يشجب أعماله.



العملاق غارغانتوا من إبداع فرانسوا رابليه.

كان بوسع رابليه قراءة اللغات اللاتينية، واليونانية، والايطالية، والعبرية، والعربية، وبضعة لهجات فرنسية، وقد درس علوم اللاهوت، والقانون، والطب، والمعمار، وعلم النبات، والآثار، والفلك، وأغنى اللغة الفرنسية بأكثر من ثمانمئة كلمة وعشرات العبارات الاصطلاحية، كثير منها ما زال يستخدم في اللغة الفرنسية في نوفا سكونيا (أكادي سابقا) في كندا. مكتبته المتخيلة نشأت من ذهن نشط جداً إلى حد أنه لا يتوقف ييسجل أفكاره، وأسطورته الغارغانتوية هي خليط من ايبيزودات (ep - sodes)تتيح تقريباً للقارئ إختياراً حراً للتسلسل، والمعنى، والنغمة وحتى الصراعات. انها كما لو كانت، بالنسبة لرابليه، ابتكارا لسرد غير ملزم أن ينطوي على تماسك، أو منطق أو حل للنص. هذه (كما سيوضح ديدرو ذلك في ما بعد)هي مهمة القارئ، ودلالة على حريته. المكتبات السكولائية القديمة تأخذ التعليقات التقليدية على الأدب الكلاسيكي كحقيقة مسلم بها؛ رابليه مثل أترابه الإنسانيين، ارتاب بالافتراض الذي يقول إن السلطة دائماً تضاهي الذكاء. ((معرفة بدون ضمير))، يقول غارغانتوا لإبنه، ((لا شيء سوى خراب للروح)).

حاول المؤرخ لوسيان فيبفر، في دراسة له عن المعتقدات الدينية في عصر رابليه، أن يصف الكاتب حسب مصطلحات القرن السادس عشر. ((ماذا يشبه رابليه ذهنياً؟ هل هو شيء من مهرّج مضحك... مسرف في الشراب حد الإفراط وفي الليل يكتب أشياء فاحشة؟ أو ربما فيزيائي مثقف، أو عالم إنساني حشا ذاكرته



منزل رابليه في شينون، فرنسا.

الاستثنائية بمقاطع جميلة من العصور القديمة...؟ أو، أفضل من هذا، فيلسوف عظيم، لاقى ترحيبا من شخصيات أمثال ثيودور بيزا ولوي لو كارون؟)). فيببفر يسأل ويستنتج أن، ((أسلافنا كانوا محظوظين أكثر منا. لم يكن عليهم الاختيار بين ذهنيتين. لقد قبلوا كلتاهما في نفس الوقت، الذهنية المحترمة مع الأخرى)).

كان رابليه قادراً على الحفاظ، في وقت واحد، على روح الشك، والإيمان في ما كان يراه حقيقة راسخة. كان بحاجة إلى أن يتحقق من مزاعم الحمقى، ويحكم بنفسه على أهمية الحقائق البدهية. الكتب التي قرأها كطالب علم،

والمليئة بحكمة القدماء، لا بد من أنها كانت متوازنة في ذهنه بالأسئلة التي ظلت دون إجابة والبحوث التي لم تكتب أبداً. مكتبته الخاصة من البرشامة والورق كانت قائمة على مكتبته المتخيلة التي تضم مواضيع منسية أو مهملة من الدراسة والتأمل. نحن نعرف أي نوع من الكتب (كتب حقيقية)كانت تضمها ((مكتبته المحمولة))، في صندوق رافقه دائماً خلال عشرين سنة من تجواله في أوربا. كانت القائمة تحوي ــ بسببها كان معرّضا دائماً لملاحقات محكمة التفتيش ــ أبقراطس، و"الحِكَم"، وأعمال بلاتو، وسينيكا ولوسيان، و"في مديح الحماقة" لإيراسموس و"يوتوبيا" لتوماس مور، وحتى كتاب بولندي خطر منشور حديثا De revolutionibus لكوبرنيكوس. الكتب التي اخترعها لبانتاغرول كانت بمثابة تعليق وإعادة صياغة نص لهذه الكتب.

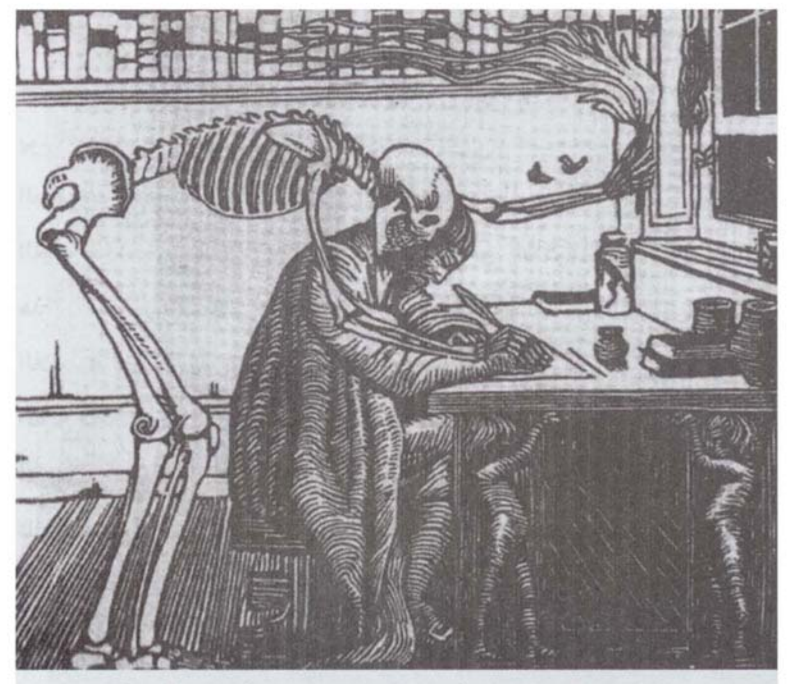
أشار الناقد ميخائيل باختين إلى أن كتب رابليه المتخيلة كانت وريثة للطقوس الدينية البارودية والإنجيليات الهزلية في القرون المبكرة. ((قصدَتْ البارودیا القروسطية))، يقول باختين، ((أن تصف فقط الجوانب السلبية أو الغامضة للدين، والمؤسسة الإكليركية أو العلم. بالنسبة لواضعي البارودیا أولئك، كان كل شيء، بلا استثناء، هو هزلي، فالضحك كوني بقدر ماهي الجدية، ويشمل الكون كله، التاريخ، المجتمع وخلق العالم. رؤيتهم هي رؤية شاملة للعالم)).

قُلدت غارغانتوا رابليه في القرون التالية بعدد من الأعمال. الأكثر شهرة بينها كانت سلسلة من الفهارس المنشورة لمكتبات متخيلة (القسم الأكبر منها إهجوات سياسية)في إنكلترا أثناء الحرب الأهلية مثل Parliamenti Bibliotheca عام ١٦٥٣، المنسوبة إلى السير جون بيركنهيد، التي تضمنت عناوين عديمة الاحترام مثل " Theopeia، محادثات تظهر لنا مخلوقات

بشرية، ربما حسبها كرومويل من الآلهة، لأنها تجنبت الإنسانية كلها ".

في نفس تلك السنة نشر السير توماس آركهارد أول ترجمة إنكليزية لكتاب "غارغانتوا وبانتاغرول"، وألّف السير توماس براون، في محاكاة رابليه، كراسة دعاها " Musaeum Clausum "، أو " Bibliotheca abscondita : تضمنت بعض الكتب المتميزة، وأثريات، وصور وأشياء نادرة لمختلف الأنواع، قلما شاهدها أو لم يشاهدها إنسان حي من قبل ". في هذه الكراسة " المتحف الموصد أو المكتبة المخفية " هناك كثير من الكتب الغريبة والمواضيع الشاذة: بينها قصائد غير معروفة كتبها أوفيد في الإغريقية أثناء سنوات نفيه في توميس، رسالة من تشيشرو تصف جزيرة بيتاني، وقائع مسيرة هانيبال من إسبانيا إلى إيطاليا، بحث عن الأحلام بقلم الملك ميثريداتس، مجموعة كتابات عجيبة لطفلة عمرها ثماني سنوات في العبرية، ترجمات إغريقية ولاتينية وإسبانية لأعمال كونفوشيوس. من بين صور "الأشياء النادرة" وضع السير توماس ((مثل جميل عن التشوه في وجه قاس بارز))و ((فيل يرقص على حبل وهو يحمل قزما أسود على ظهره)). القصد الواضح هو الهزء بالمعتقدات الشائعة لذلك العصر، لكن النتيجة كانت نوعا ما متكلفة أكثر مما ينبغي وأقل هزلية من الأصل بكثير. حتى المكتبة المتخيلة يمكن أن تعاني من الفخامة والبهرجة الأكاديمية.

في حالة واحدة كان فضاء المكتبة وعناوين الكتب كلاهما مرئيان، مع أن الكتب المقدمة كانت متخيلة. تشارلز ديكنز جمع في غادس هيل (البيت الذي حلم به وهو طفل، وتدبر أمر شراءه قبل اثنتي عشرة سنة من وفاته عام ١٨٧٠)، مكتبة وافرة. الباب التي في الجدار أُخفيت بلوح عليه أغلفة كتب مزيفة. على هذه الأغلفة كتب ديكنز الهازل عناوينا لأعمال وهمية من كل الأنواع:



حفر على الخشب لغوين رافرات يصور السير توماس ملهما من قبل الموت.

المجلدات من ١ إلى ٢١ لهانسارد " الدليل في إنعاش النوم "، كتاب لشيللي " أويستر"، " الحرب الحديثة " للجنرال توم ثامب (قزم سيرك شهير في العصر الفكتوري)، كتب للشهير بخضوعه لزوجته سقراط عن موضوع الحياة الزوجية، وعشرة أجزاء من " فهرست تماثيل الدوق ولنغتون".

تروي كوليت، في واحد من كتب المذكرات التي صدمت بها قرّاءها بمتعة في الثلاثينيات والأربعينيات، قصة عن فهارس متخيلة مصنفة من قبل صديقها بول ماسون ـ حاكم سابق في المستعمرات وعمل في الببليوتك ناسيونال، وشخص غريب الأطوار أنهى حياته انتحارا بوقوفه على حافة نهر الراين، حيث وضع قطعة قطن منقوعة بمخدر الأيثر على أنفه، وبعد أن فقد وعيه، سقط وغرق في الماء الذي كان بالكاد يتجاوز الشبر. وفقاً لكوليت،

كان ماسون يزورها في فيلتها الساحلية بانتظام، وكان يحمل معه سطح مكتب محمول، وقلم حبر وحزمة من بطاقات بيضاء. ((ماذا تفعل؟))سألته ذات يوم، ((أنا أعمل))، أجاب، ((أمارس وظيفتي. فقد عُينت لفهرسة قسم في البيليوتك ناسيونال. وأقوم الآن بإعداد قائمة بالعناوين))، ((أوه، هل يمكنك القيام بذلك من الذاكرة؟))تعجبت قائلة، ((من الذاكرة؟ لكن أي امتياز في هذا؟ أنا مشغول بشيء أفضل. لقد لاحظت أن الناسيونال فقيرة بالكتب اللاتينية والإيطالية من القرن الخامس عشر))، شرح قائلاً، ((طالما لم تملأ المصادفة والمعرفة الواسعة الفجوات في المكتبة، فأنا أقوم بوضع قائمة بعناوين الأعمال المثيرة للاهتمام جداً، التي كان يجب أن تكتب... على الأقل تلك العناوين التي تحفظ للفهرست هيبته...))، ((لكن إذا لم تكن الكتب موجودة...؟))((حسنا))، أجاب مانسون بإيماءة هازئة، ((ليس بإمكاني بالطبع أن أفعل كل شئ لوحدي!)).

مكتبة الكتب المتخيلة تبهجنا لأنها تتيح لنا متعة الخلق دون جهد الكتابة والبحث. لكنها أيضاً تضايقنا لسببين، أولاً لأنه لا يمكن جمعها، وثانياً لأنه لا يمكن قراءتها. هذه التحف الواعدة تظل مغلقة على القرّاء. كل واحد منها يمكن أن يدّعي العنوان الذي أعطاه كبلنغ للقصة، التي لم تكتب أبدا، والتي تدور حول موظف المصرف تشارلي ميرس، " القصة الأجمل في العالم ". مع ذلك فإن ملاحقة مثل هذه الكتب المتخيلة، رغم أنها غير مثمرة بالضرورة، لها فتنتها. مَن مِن القرّاء المتحمسين لقصص الرعب لم يحلم أن يعثر مصادفة على نسخة من " نيكرونوميكون"، كتيب شيطاني ابتدعه أتش بي لوفكرافت في ملحمته السوداوية كثولهو؟ حسب لوفكرافت، كتاب Al Azif (العنوان الأصلي للكتاب)كتبه عبد الحزارد، ٧٣٠ في دمشق. ترجم عام ٩٥٠ إلى الإغريقية تحت عنوان " نيكرونوميكون " من قبل ثيودوروس



بورتريه لبول ماسون.

فيليتاس، لكن النسخة الوحيدة أحرقت بأمر من البطريرك مايكل في ١٠٥٠. في عام ١٢٢٨ ترجم أولاوس النسخة الأصلية (هي الآن مفقودة) إلى اللاتينية. يُفترض أن نسخة العمل اللاتينية محفوظة في مكتبة جامعة ميسكاتونيك في أركام، ((وهي مكتبة معروفة جيداً بسبب ما تراكم فيها من مجموعة كتب ومخطوطات ممنوعة منذ العصر الاستعماري))، عدا "نيكرونوميكون". هذه الأعمال المحظورة تتضمن ((كتاب Unaussprechlichen Kulten لفون يونزت، Cultes des Goules للكونت ديرليت، De Vermiis Mysteriis للودفيغ برين، كتاب R lyeh Text، " كتب هانز السبعة الخفية"، كتاب

Dhol Chants، كتاب Liber Ivoris، كتاب Celaeno Fragments، وكتب أخرى كثيرة، ونصوص مشابهة، بعضها موجود فقط على شكل أجزاء، مبعثرة في أنحاء الكرة الأرضية)).

ليست كل المكتبات الخيالية تحوي كتبا خيالية. المكتبة التي حكم عليها الحلاق والقس بالحرق في الجزء الأول من " دون كيخوته "، والمكتبة العلمية لمستر كاساوبون في Middlemarch لجورج إليوت، والمكتبة الشهوانية لدى ايسينت في A rebours لهايسمان، والمكتبة الرهبانية المهلكة في "اسم الوردة" لأمبرتو ايكو... كل هذه هي مجرد أماني. مع توفر الوقت والمال الكافي، مثل هذه المكتبات المرتجاة يمكن أن تغدوا واقعاً حياً. المكتبة التي عرضها الكابتن نيمو للبرفيسور اروناكس في "عشرون ألف فرسخ تحت البحر" (باستثناء كتابين بقلم أروناكس نفسه، وواحد منهما منح عنوانا، Les grand fonds sous-marins)هي واحدة يسعى أي سيد فرنسي ثري إلى إمتلاكها. ((هنا تجد))، يقول كابتن نيمو، ((أكثر أعمال الفنانين القدماء والمعاصرين، هذا يعني، كل الإبداعات الجميلة للبشرية في ممالك التاريخ والشعر والرواية والعلم، من هوميروس إلى فكتور هيغو، ومن كسينوفون إلى ميشيليه، ومن رابليه إلى مدام ساند)). كل هذه الكتب التي يذكرها هي حقيقية.

مثل قريناتها التي من خشب وورق، ليست كل المكتبات المتخيلة مؤلفة فقط من كتب. غرفة ذخائر الكابتن نيمو تتضمن مجموعتين إضافيتين، واحدة تتألف من لوحات وأخرى من "تحف"، كعادة المثقفين الأوربيين في عصره. مكتبة الدوق في البرية في "كما تهواه" تتألف من ((ألسنة على أشجار، وكتب في غدران جارية، ومواعظ في صخور، والجيّد في كل شيء))وهي لا تستلزم كتبا من ورق وحبر. في الفصل التاسع عشر من رواية

كولودي "بينوكيو"، يحاول البطل الذي تحمل الرواية اسمه أن يتخيل ما الذي يمكن أن يفعل لو كان رجلاً ثرياً ولديه مئة ألف قطعة نقدية، فيتمنى قصراً جميلاً مع مكتبة ((ملأى بفواكه محلاة، وكعك، وخبز بانيتوني، وبسكويت باللوز، ورقاقات محشوة بالقشدة)).

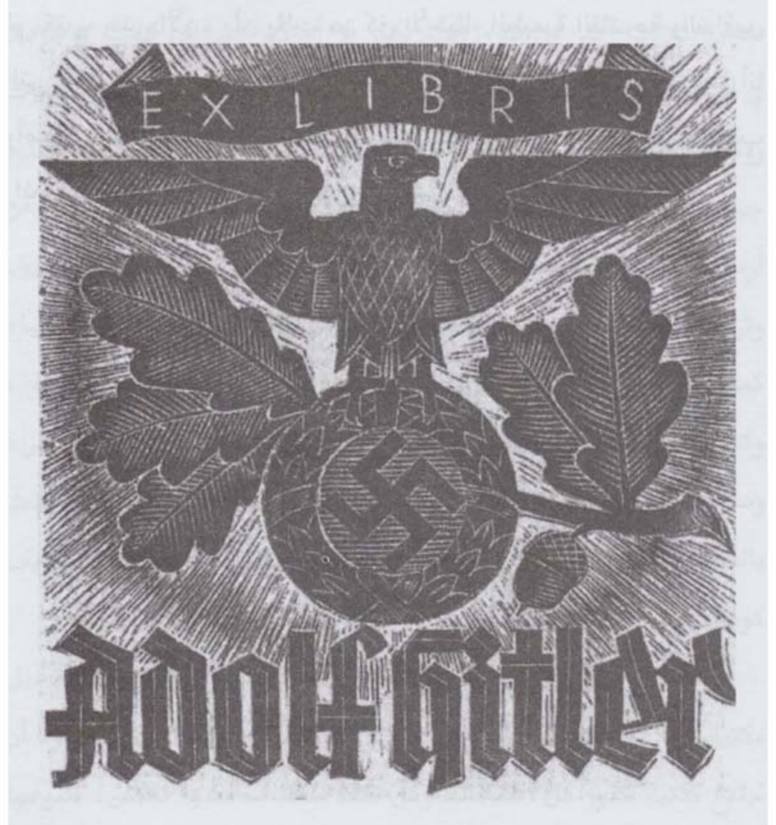
الفرق بين المكتبات التي ليس لها وجود مادي، وتلك التي تضم كتبا وورقا بوسعنا مسكها بأيدينا، هو شيء ما غير واضح وعجيب. ثمة مكتبات حقيقية بكتب مجسّمة غير أنها تبدو خيالية، لأنها ولدت من ما دعاه كوليردج بشكل شهير التعطيل الطوعي للإنكار. من هذه المكتبات، مكتبة بابا نوئيل في دار الوثائق الإقليمية لمدينة أولو، في شمال فنلندا، والتي يعود تاريخ مجموعتها القديمة والتقليدية إلى القرن السادس عشر. منذ عام ١٩٥٠، تولى قسم " الخدمات البريدية لسانتا كلوز"، التابع للبريد الفنلندي، مسؤولية الرد على حوالي ستمئة ألف رسالة تستلم سنويا من أكثر من مئة وثمانين بلدا. حتى العام ١٩٩٦ كانت الرسائل تتلف بعد أن يتم الرد عليها، لكن بعد عام ١٩٩٨ أُبرم اتفاق بين دائرة البريد الفنلندية والسلطات الإقليمية يسمح لدائرة الوثائق في مدينة أولو باختيار عدد من الرسائل التي تستلم في شهر كانون الأول من كل عام، وبشكل رئيسي، لكن لا بشكل حصري، من الأطفال. السبب وراء اختيار مدينة أولو، لأن بابا نوئيل، طبقا للتقاليد الفنلندية، يعيش في كورفانتنتوري، أو جبال أير، الواقعة في المقاطعة.

المكتبات الأخرى، تستحق أن تكون متخيلة لأكثر من سبب غريب — مثل مكتبة دولوس إيفانغليكال، التي تقع في أقدم باخرات النقل العابرة للمحيطات، والتي تتراوح حمولتها نصف مليون كتاب، وطاقم من ثلاثمئة

شخص، والمكتبة المصغرة لمدينة جينيتوس، جنوب غرب فرنسا، ولعلها أصغر مكتبة في العالم، مقامة في كوخ من تسعة أمتار مربعة، بلا ماء أو تدفئة أو كهرباء، أسسها إيتيان دومون سان بريست، وهو مزارع محلي مولع بالأدب والموسيقى، كان قد حلم طويلاً بتوفير مكان لسكان قريته يمكنهم فيه القراءة وتبادل الكتب.

لكن ليس كل مكتباتنا نشأت من الأحلام، فبعضها ينتمي إلى عالم الكوابيس. في ربيع ١٩٤٥، اكتشفت مجموعة من الجنود الأمريكان، التابعين للفرقة ١٠١ المجوقلة، في منجم للملح قرب بيرشتسغادن، بقايا مكتبة أدولف هتلر، مخبأة ((بشكل عشوائي في صناديق خمرة الشنابس ومكتوب عليها عنوان مستشارية الرايخ)). من المجموعة المتنافرة، تحمل ألف ومئتان فقط علامة ملكية الكتاب التي تعود إلى هتلر أو تحمل اسمه، واعتبرت هذه جديرة بالحفظ في مكتبة الكونغرس في واشنطن، في الطابق الثالث من مبنى جفرسون. وفقاً للصحفي تيموثي دبليو رايباك، إن غنائم الحرب هذه تم فحصها بشكل جدي من قبل مؤرخي الرايخ الثالث. قدرت مكتبة هتلر الأصلية بستة عشرة ألف مجلد، منها ما يقرب السبعة آلاف عن التاريخ العسكري، وأكثر من ألف كتاب ومقالات عن الفنون، وألف تقريباً كانت روايات شهيرة، وأكثر منها قليلا كتب دعايات دينية عن الأكليروس المسيحي، وقلة منها كانت قصصا إباحية. وحفنة من الروايات الكلاسيكية بينها: "رحلات غوليفر، "روبنسون كروسو، "كوخ العم توم"، "دون كيخوته "، بالإضافة إلى أكثر قصص المغامرات لمؤلف هتلر الأثير، كارل ماي. من المجلدات التي حفظت في مكتبة الكونغرس كتاب فرنسي عن الطبخ النباتي، كتب عليه بخط يد مؤلفته، مايا كاربنتييه، إهداء إلى

" Monsieur Hitler, végétarien "، وبحوث من العام ١٩٣٢ عن الحرب الكيمياوية، توضح استخدامات حامض البروسيك، الذي حمل فيما بعد الاسم التجاري زيكلون بي. إنه من الصعب، مع شيء من الدقة، وصف صورة شخصية لمالك هذه المكتبة. يمكن أن توجد مكتبات ترفضها المخيلة ببساطة بسبب سمعة قارئها.



علامة ملكية الكتاب الشخصية لهتلر.

نحن نضفي على المكتبات خصائص أحلامنا وكوابيسنا؛ نحن نعتقد بأننا نفهم مكتبات استحضرت من الضلال؛ نحن نفكر بكتب نؤمن أنها

لابد من أن تكون موجودة لإمتاعنا، ونباشر مهمة ابتداعها، ولا نبالي بأي تهمة بالحماقة أو عدم الدقة، ودون رهبة من تشنج كاتب أو عقبة كاتب، أو تقييدات الزمان والمكان. على مر العصور، تم ابتداع الكتب على أيدي الرواة، وهكذا أُلفت بلا أي حدود مكتبة واسعة أكثر من تلك المكتبات التي اخترعتها الطباعة ـ ربما لأن ملكوت الكتب الخيالية يتيح الإمكانية لكتاب واحد، لم يكتب حتى الآن، بأن يفلت من كل الأخطاء المطبعية الفاضحة والنواقص التي نعرف أننا محكومون بها. في ظلمة الليل، تحت شجرتيّ، أضفنا أنا وأصدقائي بلا حياء إلى فهرست مكتبة الإسكندرية رفوفا كاملة ملأى بكتب رائعة، اختفت دون أثر ما أن حل الصباح.

المكتبة هوية

كانت مكتبتي تكفيني مثل دوقية.

وليام شكسبير، العاصفة

أحتفظ بقائمة من كتب أشعر أن مكتبتي تفتقدها، وآمل أني سأشتريها ذات يوم، وقائمة أخرى لكتب مرتجاة أود جدا أن تضمها مكتبتي ـ لمجرد متعة امتلاكها أكثر من ضرورتها، لكني لا أعرف حتى إن كانت موجودة. في القائمة الثانية، كتاب "التاريخ الكوني للأشباح، وصف للحياة في مكتبات روما واليونان"، والرواية البوليسية الثالثة لدوروثي أل ساير، التي أكملها جيل باتون والش، وكتاب تشسترتون عن شكسبير، و" موجز ابن سينا عن أرسطو"، وكتاب أدبي عن الطبخ، وصفاته من وجبات روائية خيالية، وترجمة "الحياة هي حلم" لكالديرون بقلم آن مايكلز (التي يلائم أسلوبها، كما أعتقد، على نحو مثير للإعجاب أسلوب كالديرون)، و"تاريخ النميمة"، وكتاب "المذكرات الحقيقية وغير المراقبة لحياة منشورة" للويس دينيس، وسيرة حياة بورخس الموثقة والمكتوبة بشكل جيد، وكتاب يصف ما حدث بالضبط أثناء أسر سرفانتس في الجزائر، ورواية لم تنشر بعد بقلم جوزيف كونراد، ويوميات ميلينا كافكا.

بوسعنا تخيل كتبا نود قراءتها، وإن لم تكتب بعد، وبوسعنا تخيل مكتبات ملآى بكتب نود امتلاكها، حتى لو كانت بعيدة المنال، لأننا نود أن نبتدع مكتبة تظهر كل اهتماماتنا وكل نقاط ضعفنا ـ مكتبة تعكس، بتنوعها وتعقيدها، ما نحن عليه تماما كقرّاء. لذا ليس من المعقول الافتراض، بطريقة مماثلة، بأن هوية مجتمع، أو هوية وطنية، يمكن أن تُعكس بواسطة مكتبة، بواسطة تجميع لعناوين تحدد بطريق عملية وأيضا رمزية هويتنا الجمعية.

أغلب الظن ان بتراركا كان أول من اقترح أن تدعم الدولة المكتبات العامة. في عام ١٣٢٦، بعد وفاة أبيه، ترك دراسة القانون ودخل إلى الكنيسة كوسيلة لسعيه إلى احتراف الأدب، حيث بلغ في النهاية الذروة بتتويجه شاعر البلاط في الكافيدوليو في روما عام ١٣٤١. خلال السنوات التالية قضى وقته بين إيطاليا وجنوب فرنسا، يمارس الكتابة وجمع الكتب، وحقق سمعة علميّة فائقة. في عام ١٣٥٣، وقد أرهقته النزاعات في البلاط البابوي في افنيون، استقرّ بتراركا لفترة من الزمن في ميلانو، ثم في بادوا وأخيرا في فينيسيا. ولقى هناك ترحيباً من مستشار الجمهورية، الذي وهبه عام ١٣٦٢ قصرا على رينا ديلي شيافوني، لكن مقابل توريثه مكتبته، التي اكتسبت شهرة في ذلك الوقت. وافق بتراركا بشرط أن تكون كتبه ((مصانة بشكل تام... في مكان جاف محصن ضد الحريق، يكون مخصصا لهذا الغرض.)) رغم أنه كان يعلن بتواضع أن كتبه لا هي كثيرة العدد ولا كبيرة القيمة، لكنه كان يعبر عن أمله ((أن تضيف هذه المدينة العظيمة كتبا أخرى، من الأموال العامة وأموال الأفراد أيضاً... والمثال سيقتدى به... بهذه الطريقة ربما من الممكن إنشاء مكتبة كبيرة وشهيرة، تضاهي مكتبات العصور القديمة.))أمانيه تحققت أكثر من مرة. بدلا من مكتبة وطنية واحدة، تفتخر إيطاليا بإمتلاكها ثمانية مكتبات، اثنتان منها (في فلورنسا وروما)تشكلان معاً مكتبة مركزية وطنية.

في بريطانيا، مرّ وقت طويل قبل أن تتطور فكرة مكتبة وطنية. بعد إلغاء المكتبات على أثر إغلاق الأديرة الذي أمر به الملك هنري الثامن، اقترح، في عام ١٥٥٦، الرياضي والفلكي جون دي، وقد كان نفسه صاحب مجموعة فريدة من الكتب، على ابنة هنري الملكة ماري إنشاء مكتبة وطنية تجمع فيها

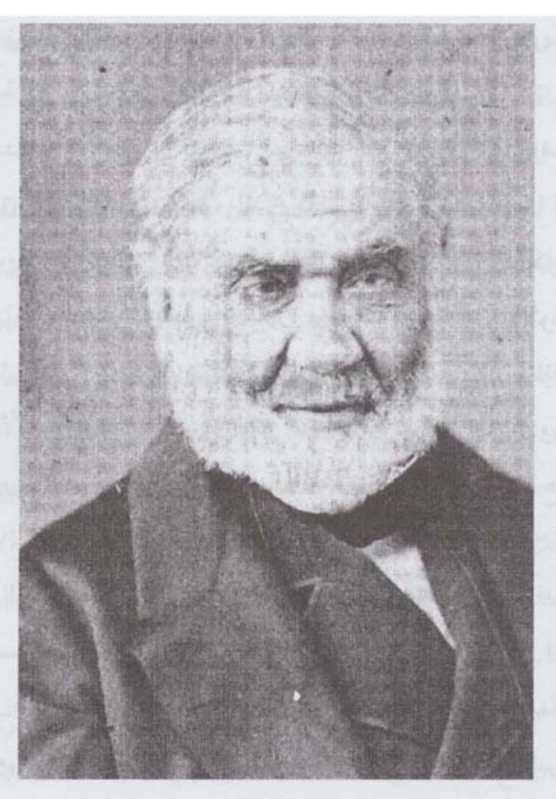
((مخطوطات وكتب العصر القديم.))لكن لم يؤخذ بمقترحه، وتم تجاهله أيضاً حين أعيد طرحه من قبل جمعية جامعي الآثار خلال فترة الحكم التالية للملكة إليزابيت الأولى. قدمت الخطة للمرة الثالثة إلى خلفها، جيمس الأول، الذي أبدى قبولا للفكرة لكنه توفي قبل أن توضع موضع التنفيذ. أما ولده تشارلز الأول فلم يول اهتماما بهذا الشأن، رغم أن المكتبيين الملكيين كانوا يعيَنون على نحو منتظم أثناء فترة حكمه للعناية بالمجموعات الملكية للكتب غير المنظمة، وغالباً ما كان الأمر يتم دون رغبة كبيرة ونجاح أقل.

في العام ١٦٩٤، في فترة حكم وليام الثالث، عُين عالم الكلاسيكيات ريتشارد بنتلي في منصب القيّم على الكتب الملكية. بعد أن صدم بالحالة المزرية للمكتبة، نشر بنتلي بعد ثلاث سنوات كتيب "اقتراح لبناء مكتبة ملكية بمرسوم برلماني"، اقترح فيه أن يتم إنشاء مبنى جديد ضخم في سانت جون بارك لغرض محدد هو إيواء الكتب، تخصص له منحة سنوية يقرّها البرلمان. على الرغم أنه لم يتلق جوابا على مقترحه، فإن إخلاصه لكتب الأمة لم يتوقف. في عام ١٧٣١، دمّر حريقا في ليلة واحدة مجموعة كوتون (كانت تضم، بالإضافة إلى أناجيل لندسفارن التي أُشير إليها سابقا، واثنتان من المخطوطات القديمة جداً للعهد الجديد، ومخطوطة سينايتيكوس من منتصف القرن الرابع ومخطوطة ألكساندرينوس من بداية القرن الخامس)، وفي تلك الليلة شوهد أمين المكتبة الملكية وهو يركض في الشارع ((بشعره المستعار مرتديا منامته، ومخطوطة الكساندرينوس تحت ذراعه)).

نتيجة لاقتراح بنتلي، حصل البرلمان في ١٧٣٩ على الكتب والمواد الرائعة التي خلفها السير هانز سلون بعد وفاته، وخزنت في ما بعد، في العام ١٧٥٣، في مونتاغيو هاوز في بلومبسبري. صُمم البيت من قبل معماري من

مرسيليا حسب الأسلوب الذي كان يدعى بالأسلوب الفرنسي، بعد أن التهمت النيران البناء الأول عام١٦٨٦ بعد بضعة سنوات من بنائه، وكان يضم غرفا عديدة ملائمة لعرض تحف سلون، بالإضافة إلى عدة هكتارات من الحدائق الجميلة التي كانت مناسبة لنزهة الزوار. بعد بضع سنوات، تبرّع جورج الثاني بمجموعة كتبه الملكية إلى المكتبة، التي كانت تدعى حينئذ بالمتحف البريطاني. في ١٥ كانون الثاني ١٧٥٩، فتحت المكتبة البريطانية في المتحف أبوابها المثيرة للإعجاب أمام الزوار. وبطلب من الملك صارت محتويات المكتبة متاحة للعامة. ((على الرغم من أنها صُممت بشكل رئيسي لاستخدام المتعلمين والناس المولعين بالدراسة، من أبناء البلد والأجانب معاً، في بحوثهم في مختلف فروع المعرفة، فإنها كانت في نفس الوقت مؤسسة وطنية... المنافع الناشئة عنها يجب أن تصبح عمومية بقدر ما يمكن)). خلال السنوات الأولى من تكوين المكتبة، لم تكن مهمة المكتبيين الرئيسية، على أية حال، تأليف الفهارس والبحث عن عناوين جديدة، بل إرشاد الزوار عبر مجموعات المتحف.

بطل ملحمة المكتبة البريطانية هو الإيطالي أنتونيو بانيزي، الذي أشرت إليه سابقا في الحديث عن شكل قاعة القراءة. في إيطاليا، بعد أن واجه التهديد بالاعتقال بسبب عضويته في منظمة الكاربوناري السرية، التي عارضت الحكم النابوليوني، فرّ الثوري البالغ من العمر خمسة وعشرين عاما، إلى إنكلترا. بعد فترة من عمله معلما للغة الإيطالية، عُين مساعدا لأمين المكتبة في المتحف البريطاني عام ١٨٣١، ثم أصبح بعدها بعام مواطناً بريطانياً، فغير اسمه إلى أنتوني.



بورتريه السير أنتوني بانيزي.

مثل مواطنه بتراركا، كان بانيزي يرى أن من مسؤولية الدولة دعم مكتبة وطنية من أجل منفعة الجميع. ((أتمنى))، قال في تقرير مؤرخ في ١٤ تموز ١٨٣٦، ((لأي طالب فقير في سعيه لإشباع فضوله العلمي ومتابعة مساعيه الفكرية، والاطلاع على المراجع، وسبر أغوار أكثر المسائل تعقيداً، أن يمتلك نفس الوسائل المتاحة، فيما يخص الكتب، لأغنى شخص في المملكة، ورأيي هو أن تكون الحكومة ملزمة من هذه الناحية بمنح مثل هؤلاء الطلاب المساعدة غير المشروطة واللامحدودة)). في عام ١٨٥٦ رُقي بانيزي إلى منصب أمين

المكتبة المسؤول، وبفضل موهبته الفكرية اللامعة ومقدرته الإدارية تحولت هذه المؤسسة إلى واحدة من أعظم المراكز الثقافية في العالم.

لبلوغ هدفه، بدأ بانيزي بتأليف فهرست للمكتبة، ووضع موضع التنفيذ قانون حقوق الطبع لعام ١٨٤٢، الذي يقضي بإيداع نسخة من كل كتاب يطبع في بريطانيا العظمى في المكتبة، كما أثر بنجاح على الحكومة لزيادة دعمها، وبإصراره على اعتبار العاملين في المكتبة موظفين حكوميين فإنه حسّن بشكل كبير من شروط عملهم التي كانت جهنمية. كان كاتب السيرة والمقالات الأدبية إدموند غوس، وهو صديق مقرب لسوينبرن وستيفنسون وهنري جيمس، موظفاً في المكتبة في نهاية ستينيات القرن التاسع عشر كـ ((مساعد ثاني في قسم الكتب المطبوعة، وواحد من أكثر البشر تواضعاً)). وصف هذا الكاتب مكان عمله، قبل وقت قصير من تحسينات بانيزي، بانه مدفأ أكثر ماينبغي، ((وقفص تحت الأرض، مرعب على نحو استثنائي، مصنوع من قضبان معدنية، تدعى دن... مكان مثل هذا لا يمكن لكائن عاقل أن يعيش فيه هذه الأيام، حيث حبس نسّاخوا المتحف البريطاني في الظلمة)).

بانيزي الذي يصفه غوس كرجل ((إيطالي عجوز وقصير وأسمر، يجلس مثل العنكبوت في شبكة من الكتب))، أراد من مكتبة المتحف البريطاني أن تكون واحدة من أجمل المكتبات، والأفضل تنظيما في العالم، لكنه أراد قبل كل شيء من "شبكة الكتب" أن تكون معقلا للهوية الثقافية والسياسية البريطانية. لقد أوجز رؤيته بأكثر العبارات وضوحا:

أولاً، يجب أن يوجَه اهتمام القيّم على المكتبة البريطانية الرائعة، بشكل خاص، إلى الأعمال البريطانية والأعمال التي لها صلة بالإمبراطورية البريطانية؛ ديانتها، تاريخها السياسي والأدبي بالإضافة إلى العلمي؛

قوانينها، معاهدها، أوصافها، تجارتها، فنونها، إلى آخره. كلما كان عمل هذه الأوصاف أكثر ندرة وأكثر تكلفة، كلما احتاج إلى جهود أكبر لإنجازه وحفظه في المكتبة.

ثانياً، لا يجب أن يكون البحث عن الطبعات القديمة الكلاسيكية، العتيقة والنادرة عبثا في هذه المجموعة، كما لا يجب أن تفتقر إلى التعليقات الجيدة، وكذلك أفضل الترجمات إلى اللغات الحديثة. ثالثا، ما يخص الآداب والفنون والعلوم الأجنبية، على المكتبة أن تقتني أفضل الطبعات النموذجية للاستخدام ولأغراض البحث النقدي. علاوة على ذلك، من حق الجمهور أن يجد في مكتبته الوطنية الأعمال الأجنبية الرصينة والقيّمة، مثل المجلات الأدبية، وتقارير الجمعيات المعروفة، والمجموعات التاريخية الكبيرة، والأعداد الكاملة من الصحف، ومجموعات عن القوانين الدولية وأفضل الشروح الموجودة عنها.

كان بانيزي يرى في المكتبة البريطانية صورة وصفية للروح الوطنية. ولا بد من جمع الآداب والثقافات الأجنبية الهامة (لقد عيّن لهذا الغرض علماء في ألمانيا والولايات المتحدة)، لكن بشكل رئيسي من أجل المقارنة أو كمراجع، أو لتكمل مجموعة ما. ما كان يهم بانيزي هو أن يُمثل كل جانب من جوانب الحياة والأفكار للمجتمع البريطاني، كي تغدو المكتبة واجهة للأمة كلها. لقد كان لديه رؤية واضحة عن الدور الذي يجب أن تجسده المكتبة الوطنية، لكنه كان أقل وضوحا حول الطريقة التي تكون بها المكتبة نافعة. بما أنه حتى المكتبة الوطنية سعتها التي تلائم القرّاء محدودة، فهل يجب أن تكون هذه المؤسسة الملاذ الأخير؟ اشتكى توماس كارلايل بان فلان أوعلان من الناس صار يستخدم المكتبة لغرض لا علاقة له تماما بالثقافة والدراسة ((أنا أعني))، كتب، ((أن هناك عدداً من الناس كما يبدو في حالة

من البلاهة، يأتون للقراءة في المتحف البريطاني. لقد نما إلى علمي أن عدداً منهم في تلك الحالة قد جاؤوا إلى المكتبة بناء على نصيحة من أصدقائهم لمجرد قتل الوقت)).

تمنى بانيزي دائماً أن تكون المكتبة متاحة لكل ((طالب فقير))يرغب بإشباع ((فضوله العلمي)). لأسباب عملية، على أي حال، هل يجب أن تكون المكتبة الوطنية متاحة فقط لأولئك القرّاء (طلاب أوغيرهم)الذين لم يفلحوا بإيجاد الكتب التي يحتاجون في المكتبات العامة الأخرى؟ هل ينبغي أن توفر للقارئ العادي خدمات اعتيادية، أو هل يجب أن تؤدي فقط وظيفة أرشيف الضرورة القصوى، لأنها بسبب ندرة أو تفرّد مجموعتها لا يمكنها أن تكون متاحة بشكل أوسع؟ حتى العام ٢٠٠٤ أعارت المكتبة كتبا فقط لأولئك الذين يستطيعون أن يثبتوا أن الكتب التي يبحثون عنها غير متوفرة في مكان آخر، وحتى في هذه الحالة، فإنها أعارت كتباً فقط للباحثين الذين يملكون دليلاً على بحثهم من خلال رسائل توصية. في تعليقه على برنامج "إمكانية الوصول" الجديد، الذي يلغي شرط أن يكون الشخص ((باحثاً))، كرر أحد القرّاء في أيلول ٢٠٠٥ شكوى كارلايل على نحو غير مقصود قائلاً: ((كل يوم تمتلئ المكتبة بأناس، بعضهم ينام، وطلاب ينجزون فروضهم الدراسية، وشباب عباقرة يكتبون سيناريوهات أفلام ــ في الواقع، إنهم يفعلون كل شيء تقريباً عدا مراجعة كتب المكتبة)).

الوظيفة الأساسية لأي مكتبة وطنية ما زالت موضع تساؤل. في الوقت الحاضر، بوسع التكنولوجيا الإلكترونية فتح مكتبة وطنية لأكثر القرّاء في منازلهم، كما يمكن ربط عدة مكتبات ببعض، حيث لم تتوسع ميادين القراءة خارج أسوار المكتبة فقط، بل الكتب نفسها اختلطت وكمّلت مجموعات من مكتبات أخرى. على سبيل المثال، قبل فترة أردت مراجعة كتابٍ عن

موضوع أسطورة حورية البحر المثير للاهتمام، هو كتاب " الحوريات" لجورج كاستنر، الذي نشر في باريس عام ١٨٥٨. اكتشفت أن المكتبة البلدية الكبيرة في بواتييه لا تملك نسخة من الكتاب. عرض المكتبي بلطف أن يبحث عنه في أقرب مكتبة يمكن أن تملك نسخة، واكتشف (بفضل نظام الفهرسة الإلكتروني)أن النسخة الوحيدة في فرنسا موجودة في الببليوتيك ناسيونال. وبسبب ندرة الكتاب، لايمكن استعارته، بل يمكن نسخه. وبإمكان مكتبة بواتييه أن تطلب نسخة كاملة ومجلدة مستنسخة لتدخل ضمن مجموعة المكتبة، عندئذ يمكنني استعارتها. وعلى الرغم من أن النظام ليس كاملا، لكنه أتاح لي الوصول إلى بعض الكتب النادرة جدا التابعة للملكية الوطنية، وحتى الوصول إلى مكتبات البلدان الأخرى، التي تلتزم بالاتفاقات المكتبية العالمية.

لأن "الحوريات" كتاب قديم ولا يشمله قانون حقوق الطبع، فمن الممكن أن يكون قد دخل في واحد من أنظمة المكتبة الإلكترونية، لذا بوسعي تحميله وطبعه بنفسي، أو طلبه من الجهة المجهزة مقابل أجر. هذا النظام الجديد كما يظهر، يكرر نظاما أُقيم قبل قرون في جامعات القرون الوسطى، حيث كان يمكن استنساخ النص، الذي يوصي به المدرسون، من قبل نسّاخين، أقاموا دكاكينهم خارج أسوار الجامعة، يقدمون فيها خدماتهم للطلاب. في سبيل ضمان أكثر دقة ممكنة للنصوص الكلاسيكية، ابتكرت إدارة الجامعة طريقة حاذقة. يتم تدقيق المخطوطات بعناية قبل إعارتها إلى "القرطاسيين"، الذين يقومون بنسخها مقابل تعريفة ثابتة، أو يحصلون عليها لأنفسهم من أجل بيعها، أو تأجيرها للطلاب الذين لا يقدرون على شرائها، كي ينسخوها بأنفسهم. النص الأصلي (exemplar)لا يظهر في السوق نسخة كاملة، بل في اجزاء (peciae)، تعاد إلى القرطاسي بعد نسخها، حينئذ يمكنه تأجيرها إليهم مرة ثانية. حين أنشئت المطابع، اعتبرتها إدارة الجامعة مجرد وسيلة مفيدة لإنتاج نسخ بسرعة ودقة أكثر قليلا.

لبنان وطن يفخر بأنه يضم على الأقل دزينة من الأديان والثقافات المختلفة. مكتبته الوطنية حديثة العهد، يعود تاريخها إلى العام ١٩٢١، حين وهب الفيكونت فيليب طرّازي مؤرخ وفيلسوف لبناني، مجموعة كتبه، مع توجيهات دقيقة بأن تكون ((جوهر ما ستصبح ذات يوم المكتبة العظيمة لبيروت)). هبة طرّازي تألفت من عشرين ألف كتاب مطبوع، وعدد من المخطوطات النفيسة والأعداد الأولى من الصحف الوطنية. بعد ثلاث سنوات، ومن أجل توسيع المجموعة، صدر مرسوم حكومي بإنشاء نظام وديعة قانوني (يقضي بإيداع نسخة من كل كتاب يطبع في البلد)، وعُين للمكتبة طاقما من ثمانية موظفين تابعين لوزارة التعليم. أثناء الحرب الأهلية التي دمرت البلد، من منتصف السبعينيات حتى منتصف التسعينيات، تعرضت المكتبة الوطنية مرات عديدة للقصف والنهب. في عام ١٩٧٩ وبعد أربع سنوات من التقاتل، أوقفت الحكومة كافة الخدمات وحفظت المخطوطات والوثائق الناجية من التدمير في أقبية الأرشيفات الوطنية. أما الكتب المطبوعة حديثا فقد خزنت في مبنى منفصل بين عامي ١٩٨٢ و١٩٨٣، لكن هذا الموقع تعرّض أيضاً للقصف الشديد، والكتب التي نجت من نيران الأسلحة تضررت بمياه الأمطار وغزو الحشرات. في النهاية، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، وبمساعدة مجموعة من خبراء فرنسيين من البيبليوتك ناسيونال، تم صياغة خطط في ١٩٩٤ لوضع المجموعة الباقية في موقع جديد.



كتب المكتبة الوطنية اللبنانية في مخازن مهملة.

زيارة الكتب اللبنانية المنقذة تجربة تبعث على الحزن. من الواضح أن لبنان ما زال بحاجة إلى الكثير من المساعدات ليطهّر ويرمم ويفهرس المجموعة ويضعها في مكانها المعتاد. تكديس هذه الأعمال في غرف حديثة في مبنى للجمارك قريب جداً إلى البحر، يجعلها عرضة للرطوبة. حفنة من العاملين والمتطوعين يعملون ببطء بين أكداس المطبوعات ويضعون الكتب في صناديق، وهناك خبير يقرر من منها يستحق الترميم ومن يجب أن يتلف. في مبنى آخر، يقوم أمين مكتبة مختص بالمخطوطات الشرقية القديمة، التي يعود بعضها إلى القرن التاسع، يحدد مدى خطورة الأضرار، مؤشرا على كل مادة ببطاقة ملونة، من اللون الأحمر (الحالة الأسوأ) إلى اللون الأبيض (بحاجة إلى ترميم طفيف). لكن من الواضح أنه لا العاملين ولا الأموال المرصودة تكفي لهذه المهمة الكبيرة.

بالرغم من هذا هناك شيء من الأمل. فقد تم تعيين مبنى هو الآن مهجور، كان سابقا مقر كلية القانون في الجامعة اللبنانية في بيروت، كمكان للمكتبة

الوطنية الجديدة، وسيفتح قريباً أمام الجمهور. في تقريرها عن المشروع، الذي قرأته في آيار ٢٠٠٤، أشارت البروفيسورة مود ستيفان هاشم، مستشارة وزير الثقافة، إلى الإمكانية التي يمكن أن تحققها المكتبة في إصلاح الواقع التعددي، وتوحيد كل التيارات الثقافية للبنان من جديد:

مشروع المكتبة الوطنية اللبنانية كان دائماً محط اهتمام وتشجيع ودعم من كل مثقفينا محبي المكتبات، لكن حتى الآن كل واحد منهم يحاول أن ينسب المشروع لنفسه، مضيفا اليه أحلامه الخاصة ورؤيته الشخصية لثقافتنا المناضلة. يمكن للمشروع أن يغدو، على أي حال، مشروعاً للمجتمع ككل، مشروع عام يجب أن تمَد له يد العون من الدولة، بسبب بعده السياسي على وجه الخصوص. لا ينبغي أن يختزل إلى مجرد مشروع لحفظ الكتب، أو لإعادة بناء مؤسسة تقتدي بالمكتبات الآخرى في العالم. إنه مشروع سياسي للمصالحة بين كل اللبنانيين، يحفظ في الذاكرة معاً إدراك الآخرين، المنجز على نحو متماسك من خلال البيانات والفهرسة، وإدراك قيمة أعمالهم.

هل بإمكان مكتبة أن تعكس تعدد الهويات؟ مكتبتي الخاصة ـ التي تقع في قرية فرنسية صغيرة، ليس لها ارتباط واضح، ومؤلفة من مكتبات مجزأة جمعت في الأرجنتين، إنكلترا، إيطاليا، فرنسا، تاهيتي، كندا، خلال مسيرة حياة متنقلة ـ تفصح عن عدد من الهويات المتغيرة. أنا، بمعنى من المعاني، مواطن المكتبة الوحيد، لذلك أشعر بنفسي متوحداً مع خزين الكتب. مع ذلك فإن كثيراً من أصدقائي أحسّوا بأن هوية هذه المكتبة الخليطة كانت، جزئياً على الأقل، هويتهم أيضاً. الأمر يعود ربما إلى أن أي مكتبة، بسبب سماتها المتنافرة، مهما كانت شخصية، تتيح لأي شخص يستكشفها تأملا عما يبحث عنه، وخيطاً رفيعاً معذباً من الحدس عما نكون عليه كقرّاء، ولمحة خاطفة في الجوانب السرية للذات.

غالبا ما ينجذب المهاجرون إلى مكتبات ليتعلموا المزيد عن وطن هجرتهم، ليس فقط تاريخه وجغرافيته وأدبه، وشعره الوطني، بل أيضاً ليلموا بالطريقة التي يفكر بها البلد وينظم بها نفسه، كيف يقسّم ويفهرس العالم ـ عالم يتضمن ماضي المهاجرين. مكتبة كوينز بوروغ ببلك لايبرري في نيويورك، هي من أكثر المكتبات ازدحاماً في الولايات المتحدة، إذ يتم فيها تداول أكثر من خمسة وعشرين مليون كتاب وأشرطة فيديو في السنة. يرتادها بشكل رئيسي السكان المهاجرون، حيث إن نصف سكان منطقة كوينز تقريباً يتكلمون لغة أخرى غير الإنكليزية في بيوتهم، وأكثر من الثلث ولدوا في بلاد أجنبية. موظفو المكتبة يتحدثون الروسية والهندية والصينية والكورية والكوجراتية والإسبانية، ولديهم استعداد على أن يشرحوا لقرّائهم الجدد كيفية الحصول على إجازة السوق أو استخدام الإنترنت وتعلم الإنكليزية. أكثر العناوين المرغوبة في المكتبة هي الاعمال الأمريكية الأفضل مبيعا في سوق النشر والمترجمة إلى لغات المهاجرين الخاصة. كوينز ربما ليست مستودعا للثقافة، الذي كان هدفا في ذهن بانيزي، لكنها أصبحت واحدة من مكتبات كثيرة تعكس الهوية التعددية والمتحدية والمتغيرة للبلد وللعصر الذي نعيش فيه.

المكتبة وطناً

الكون (الذي يدعوه الآخرون المكتبة)...

خورخه لويس بورخس، مكتبة بابل

خلف المكتبة الوطنية لأي أمة تقع مكتبة أعظم من الكل، لأنها تضم كل واحدة منها، فهي مكتبة واسعة ومثالية، على نحو لا يمكن تخيله، لجميع الكتب التي كتبت من قبل، وللأخرى التي عناوينها مجرد احتمال. هذه المجاميع الهائلة من المكتبات يلقي ظلا على أي مجموعة فردية من الكتب، لكنها في نفس الوقت تندمج في كل واحد من هذه العناوين. الطبعة التي في مكتبتي من "الأوديسا"، ((مترجمة إلى النثر الانكليزي بقلم تي إي شو))(المعروف أكثر بلورنس العرب)، تردد أصداء الإسكندرية والتعليقات الصارمة لآريستاكوس، كما تردد حاضر المكتبة الغنية بطبعات " الأوديسا" التي جمعها جورج ستاينر في جنيف، وطبعات الجيب المتنوعة لكتاب هوميروس المرسلة من قارئ مجهول من مونتيفيديو للمساعدة في إعادة بناء مكتبة سراييفو. كل واحد من هؤلاء القرّاء قرأ أوديسا مختلفة، وقراءاتهم مدّت مغامرات أوليسيس بعيدا جدا فيما وراء الجزر السعيدة، نحو الأبدية.

بالنسبة لي، من قصص أوليسيس لم تترك واحدة أثراً بي مثلما فعلت قصة العودة إلى الوطن. السيرينات، السيكلوبات، الساحرة ولعناتها، كل هذه هي أعاجيب مذهلة، لكن الشيخ الواقف على شاطئ الصبا وهو ينحب والكلب الذي يموت محطم القلب عند قدمي سيده المحبوب، تبدو أكثر حقيقة وأكثر إقناعاً من كل الأعاجيب. تسعة أعشار القصيدة تتألف من مفاجأة، أما النهاية فهي إدراك.

ما هي هذه العودة إلى الوطن؟ يمكن أن تكون جدالاً حول رؤيتنا للعالم بواحدة من طريقتين ــ كبلد أجنبي أو كوطن ــ وأن مكتباتنا تعكس هاتين

الرؤيتين المتعارضتين. حين نطوف في أرجاء كتبنا ثم نسحب كتاباً من الرفوف ونتصفحه، فإن الصفحات إما تصدمنا باختلافها عن تجاربنا الخاصة، أو تواسينا بالتشابه. طمع أغاممنون أو خنوع راهب " كيم " هما غريبان عني تماماً، بينما انذهال أو فضول سندباد يعكس مرة تلو المرة عواطفي الخاصة. كل قارئ هو إما طوّاف يستريح وإما مسافر يعود.

الوقت متأخر ليلاً. وخارجاً تمطر بغزارة. لا يمكنني النوم. أتجول في مكتبتي، وأتناول كتابا من رفه وأقرأ. في بلد بعيد وداخل قلعة أسوارها محطمة، حيث يخيم الظلام والريح الباردة تخترق صدوع النوافذ والجدران، عاش كونت هرم ذو سمعة رهيبة. كانت معرفته عن العالم مصدرها الكتب بشكل رئيسي، وكان واثقاً من مكانه في التاريخ. هذا الرجل الأرستقراطي رأى من حقه أن يكون فخوراً لأنه:

في عروقنا تجري دماء لعدة سلالات شجاعة قاتلت قتال الأسود، في سبيل السيادة. هنا، في دوامة الأقوام الأوربية، حملت معها قبيلة الأغرانيون من إيسلندا الروح المقاتلة التي منحها إياهم ثور وودن، وبمثل هذه المقاصد العنيفة ظهر البرسركيين على شواطئ أوربا، أجل وشواطئ إفريقيا أيضا، حتى ظن الناس أن الذئاب البشرية نفسها قد وصلت [...] حين حلّ العار الكبير على شعبي، عار كاسوفا [كوسوفا]، عندما هوت بيارق والاش وماغيار تحت " الهلال ". من كان غير واحد من شعبي، مثل فويفود، هو الذي عبر الدانوب وقهر الأتراك في ميدانهم! ذاك كان دراكيولا بحق.



بورتريه من القرن السابع عشر لفلاد دراكيولا أو فلاديسلاوس دراكيولا، اكتشف حديثا في مكتبة فيرتنبرغ، ألمانيا.

مقر الكونت دراكيولا في ترانسلفانيا. وهذه هي umbilcus mundi، قلب عالمه، الطبيعة التي تغذي مخيلته، إن لم تغذي جسده، وحيث إن الزمن يمضي صار من الصعب عليه أن يجد الدم الطري في جبال موطنه، ففرض عليه أن يبحث عن قوته خارج الحدود. ((أتوق إلى الذهاب عبر الشوارع الحاشدة إلى مدينتك الجبارة لندن))، يقول الكونت، ((لأكون وسط تدويم واندفاع البشر، لأشاركهم حياتهم، وموتهم، وكل ما يجعلهم ما هم عليه)). لكن أينما حل دراكيولا، لا يمكنه أن يكون بعيدا عن وطنه

تماماً. الكتب التي تحتل رفوفه المغبرّة تسجل تاريخ حياته الضاربة في القدم، كل المكتبات الأخرى بالنسبة له لا تنطوي على أسرار. قلعته مع مكتبته السلفية هما مملكته الوحيدة، وكان عليه دائماً أن يحمل صندوقا مليئا (أو تابوتا مليئا)بتربة أرضه، التي تجذر عميقا فيها. مثل، انتيوس، لا بد له أن يلمس أمه الأرض وإلاّ مات.

وضعتُ رواية برام سوكر جانباً، وحاولت الوصول إلى كتاب آخر، بضعة رفوف إلى الأعلى. يحكي هذه الكتاب قصة رحّالة آخر، هيئته الهولية يلمح إليها الكتاب لكنه لا يصفها أبداً. مثل الكونت دراكيولا، هذا الطوّاف هو أيضاً جنتلمان متوحد يقرر أن لا يكون أحد سيده، لكنه بخلاف الكونت، لا يمتلك أوهاما حول أرستقراطيته. ليس له وطن، ولا جذور، ولا أسلاف ((ليس لي مال، ولا أصدقاء، ولا أي نوع من الملكية))، يقول لنا. انه يجول عبر العالم مثل منفي بلا وطن، مواطن كوني لأنه لا ينتمي إلى وطن. ((أنا راض أن أعاني وحيداً، طالما درب معاناتي سيطول))، يقول بإذعان. لقد علم نفسه عبر الكتب، جامعا في ذاكرته مكتبة غريبة وانتقائية. كانت تجاربه الأولى في القراءة بالواسطة، فقد استمع إلى عائلة من الفلاحين تقرأ بصوت عال، على نحو غير قابل للتصديق نوعا ما، تأملاً فلسفياً عن التاريخ الكوني: "سقوط الإمبراطوريات" لسي أف فولني. ((عبر ذاك الكتاب))، يشرح قائلا، ((حصلت على معرفة سطحية بالتاريخ، ورؤية عن عدة دول عظمى موجودة حتى الوقت الحاضر، كما منحني تبصراً في عادات الشعوب، وفي الحكومات، والأديان في مختلف أمم الأرض)). إنه يتساءل كيف يمكن للكائنات البشرية أن تكون ((في الوقت ذاته قوية جدا، وفعالة جداً، وعظيمة، ومع هذا شريرة وحقيرة جداً؟)). عن هذا السؤال

ظل لايملك جواباً، لكنه بالرغم من شعوره بأنه ((ليس من نفس طبيعة الإنسان))، فهو مع ذلك يحب البشر ويتمنى أن ينتمي إلى عالمهم. حقيبة ضائعة مليئة بالكتب والملابس، عثر عليها، أمدته ببضع قراءات أخرى: "الفردوس المفقود" لملتون "، حيوات " لبلوتارك "، آلام الفتى فيرتر لغوته. من فيرتر تعلم ((القنوط والتشاؤم))، ومن بلوتارك ((الأفكار السامية)). لكن "الفردوس المفقود" هيّج فيه مكامن الإحساس بالدهشة. ((حين قرأت الكتاب))، يقول، ((رأيته يطابق الكثير من مشاعري وحالتي الشخصية. وجدت نفسي مشابها، وفي نفس الوقت مخالفا للكائنات التي أقرأ عنها، والتي كنت أصغي إلى أحاديثها. لقد تعاطفت معهم، وفهمتهم جزئياً، لكن عقلي لم يكن منظما، فقد كنت مستقلاً عن الناس، وليس لي صلة بأحد)). على الرغم من عثوره على لمحات من قصة آدم المغضوب عليه، توصل هذا القارئ اليائس إلى نتيجة مفادها أنه مهما قرأ فالمكتبات البشرية كما يبدو لن تمنحه أي نفع. على الرغم من توقه إلى أن يصبح جزءا من البشر الكونيين، فإن مواطن العالم هذا سيظل مطاردا من العالم، سيكون محتقراً كأجنبي بكل المعاني، كمخلوق خارج حدود كل المجتمعات. بائس، خائف، منبوذ، سيكون سببا في موت الرجل الذي خلقه، وفي النهاية سيضيع وحش الدكتور فرانكشتاين هذا إلى الأبد في القطب الشمالي، على صفحة بيضاء تدعى كندا، مكب نفايات أخيلة كثيرة من كل العالم.

وحش فرانكشتاين هو الأجنبي المطلق والمواطن الكامل للعالم معا، فهو غريب بكل الأحوال، شئ مرعب إذا نظرت إليه، مع هذا فهو مركّب من كل أنواع القطع البشرية. وهو إذ تعلم أول مرّة، مثل طفل، طبيعة البشر وطبيعة نفسهُ، فإنه طراز بدائي للقارئ العذري (lector virgo)،

يحتاج الفضول ليتعلم بواسطة الصفحة المفتوحة، ليرتاد مكتبة العالم بلا أحكام مسبقة ولا خبرة تؤثر على قراءته. حين يدخل الوحش الكوخ المظلم للناسك، يتلفظ بهذه الكلمات: ((عذراً للتطفل... أنا مسافر يهفو إلى قليل من الراحة)). لأن الوحش مسافر لا توجد بالنسبة إليه حدوداً، ولا قوميات، ولا قيود مكانية، لأنه ينتمي إلى كل مكان، فلا بد للوحش أن يعتذر عن نفسه حين يدخل إلى عالم لم يحل فيه بملء إرادته، منبثقاً من الظلام مع كلمات آدم ملتون. لقد رأيت عبارة ((عذرا للتطفل))مؤثرة على نحو لا يصدَق.

إن العالم وفقاً لوحش فرانكشتاين، كما تصفه الكتب، أحادي الموضوع، فكل الكتب مصدرها نفس المكتبة. على الرغم من أنه تنقل من مكان إلى آخر ــ سويسرا، جزر أوركني، المانيا، روسيا، إنكلترا، بلاد التتار الموحشة ــ فإنه لم ير خصوصيات، بل سمات مشتركة لهذه المجتمعات المختلفة. بالنسبة اليه، العالم تقريباً مسطح وبلا ملامح. إنه يتعامل مع تجريد، برغم أنه تعرّف على التفاصيل من كتب التاريخ. ((لقد قرأت عن رجال في مناصب عليا يحكمون أو يذبحون أنواعهم. لقد أحسست بأعظم حماسة للفضيلة التي تنامت فيّ، والقرف من الرذيلة، بالقدر الذي فهمت فيه مغزى هاتين الكلمتين، وكم هما نسبيتان، وكيف طبقتهما على المتعة والألم)). على الرغم من ذلك ستظهر هذه الدروس أنها غير مثمرة. المكتبات البشرية، كما سيتعلم الوحش، تشتمل بالنسبة إليه على أدب غريب فقط.



رسم توضيحي بريشة شيفالييه لطبعة عام ١٨٣١ لكتاب ماري شيللي " فرانكشتاين " أو " بروميثيوس المعاصر ".

الوطن في مكان معين والوطن في العالم هما مفهومان يمكن لكلاهما أن يُجربا كشيء سلبي. الكونت دراكيولا لم يثق إلا بمكتبته الخاصة. لقد كان فخوراً بنفسه كونه ينتمي إلى " البويار" (النبلاء الروس)، وبوسعه أن يعد على نحو مزدري قائمة بالقوميات التي لا ينتمي إليها. بينما وحش فرانكشتاين، الذي لا يمتلك مكتبة خاصة به، يبحث عن صنوه في كل كتاب يفتحه، لكنه لا يفلح أبداً بالتعرّف على قصته الخاصة في تلك الصفحات "الأجنبية".

بالرغم من ذلك، كانت توجد بالنسبة للاثنين دائماً إمكانية لتجربة أوسع وأعمق. وهو يقلد أفكار الرواقيين التي يمتد عمرها إلى أربعمئة سنة قبله، ينكر سينيكا بأن تكون كتب معاصرينا ومواطنينا فقط هي التي يجب أن تهمنا. وفقاً لسينيكا، بوسعنا أن نختار عشوائياً من أي مكتبة أي كتاب وندعوه كتابنا، فكل قارئ، كما يقول، يمكنه أن يخترع ماضيه الخاص. لقد لاحظ أن الافتراض الشائع بأن والدينا هما ليس من اختيارنا، هو في الحقيقة غير صحيح، فنحن لدينا القدرة على اختيار أسلافنا الخاصين بنا. ((هنا توجد عائلات مع مواهب نبيلة))، كما كتب، مشيرا إلى رف كتبه. ((اختر ما طاب لك منها كي تنتمي إليها. العائلة التي تتبناك سوف لن تهبك اسما فحسب، بل ستهبك بالأحرى ملكية، وهذه لا تحتاج منك أن تحميها بروح دنيئة، إذ كلما كان عدد الناس الذين تشاركهم بها أكثر، كلما أصبحت أكبر... هذه هي الوسيلة الوحيدة لإطالة موتك، بدلا من تحويله إلى خلود)). من يعي هذا، يقول سينيكا، ((فهو مستثنى من قيود الإنسانية، فكل العصور طوع أمره كما لو كانت في خدمة إله. إذا كان الزمن مضى فإنه يحفظه في الذاكرة. لو أن الزمن موجود الآن فإنه يفيد منه. وإن لم يأت الزمن بعد فإنه يهيئ له نفسه. تمازج كل الأزمان في زمن واحد، يجعل من حياته طويلة)). حسب سينيكا، لم يكن القصد من الاستعلاء هو الذي يهم (سخر بلوتارك من أولئك الذين كانوا يعتبرون قمر أثينا أعلى من قمر كورنثيا) بل ذلك القصد من المشاعية، التشارك بين كل الكائنات البشرية في سبب مشترك واحد تحت شعارات إلهية. كنتيجة، فهو وسّع من دائرة الذات لا لتشمل العائلة والأصدقاء فقط بل والأعداء والعبيد أيضاً، فضلا عن البرابرة أو الأجانب، وفي النهاية كل البشر.

بعد قرون، طبّق دانتي التعريف على نفسه : ((مثل السمكة التي لها الماء،

أنا لي العالم وطن)). أضاف أنه على الرغم من حبه لمسقط رأسه فلورنسا، إلى حد أنه كان مستعدا للنفي من أجل قضيتها، فبوسعه القول بكل صدق، بعد قراءته كثيراً من كتّاب الشعر والنثر، إن الأرض ملأى بأمكنة أخرى أكثر نبلاً وجمالاً. إيمانه القوي في مكتبة كوزموبوليتانية سمح لدانتي بإمكانية الشعور بهوية وطنية مستقلة، وبأن العالم إرثه ومنشأه. بالنسبة للقارئ الكوزموبوليتاني، الوطن ليس مفهوما لمكان ما، مجزأ بحدود سياسية، بل مفهوم للزمان، حيث لا وجود للحدود. لهذا السبب مجّد إيراسموس، بعد قرنين من السنين من دانتي، آلدوس مانوتيوس، الطبّاع الفينيسي العظيم، لأنه أمدّ القرّاء ((بمكتبة دون أسوار))، على شكل كتب الكلاسيكيات ذات قطع الثمن.

تقع المكتبة الكوزموبوليتانية أيضاً في قلب الثقافة اليهودية. بالنسبة لليهود، المولودون في التقاليد الشفاهية، من التناقض الظاهري أن يحتل الكتاب ـ كلمة الله المتجليّة ـ مركز خبراتهم الفكرية والدينية. بالنسبة لهم، الكتاب المقدس هو نفسه مكتبة، وهي الأكثر كمالا وموثوقية من كل المكتبات، ولأنها أزلية وشاملة، كانت متجذرة في الزمن، لهذا تميزت بوجود ثابت في الماضي والحاضر والمستقبل. كلمات الكتاب المقدس لها ثقل أكبر من البلاءات التي لا طائل منها للعصور والتغيرات البشرية، إذ حتى بعد تدمير المعبد الثاني، في عام ٧٩ بعد الميلاد، كان علماء الدياسبورا اللاهوتيين يناقشون، حسب قواعد " الكتاب "، في كنيساتهم المتباعدة، القواعد المادية للسلوك التي يجب أن يتمسك بها المرء في مبنى لم يعد له وجود مادي. الإيمان بأن المكتبة تحمل حقيقة أعظم من حقيقة الزمان والمكان اللذان نوجد فيهما: هذا هو الولاء الفكري والروحي الذي حاول سينيكا أن يبرهن عليه. هذا السجال تمّ أيضاً بين العلماء العرب في القرون الوسطى،

فقد آمنوا بأن المكتبة توجد في وقت واحد ((في الزمان، جاعلين من ماضي الإغريق والعصور العربية نماذج ثقافية مثالية حاضرا، وفي المكان، جامعين ما تشتت ومقربين ما كان بعيدا [...] لقد صيّروا اللامرئي مرئيا، وعلى هذاوجهوا اهتمامهم لامتلاك العالم)).

لم يكن جان جاك روسو متفقا مع نفسه حول هذه العاطفة الشمولية. في "أميل" يقول إن كلمتي patrie (وطن)وكلمة citoyen (مواطن)يجب أن تلغيا من كل لغة حديثة. لكنه أيضاً أصرّ على ((الارتياب بأولئك الكوزموبوليتانيين الذين يبحثون في أعماق كتبهم عن الواجبات التي يستنكفون عن أدائها في الوطن. هذا النوع من الفلاسفة يتظاهر بحبه للتتار، كي لا يحتاج أن يحب جاره)). في وقت ما من القرن السابع عشر كتب الشاعر توماس تراهرن ما يمكننا أن نقرأه اليوم كجواب مبتسر عن روسو، في مخطوطة ظلت غير منشورة لفترة مئتين وخمسين سنة، حتى اكتشفت مصادفة في متجر للكتب في لندن وبيعت ببنسات قليلة إلى جامع كتب فضولي. كتب تراهرن، ((أنت لن تتمتع بالعالم على نحو صحيح أبداً، حتى يجري البحر نفسه في عروقك، وحتى تكون مكسواً بالسماوات، ومتوجاً بالنجوم: وتتصور نفسك الوريث الوحيد للعالم كله وأكثر من هذا، لأن البشر في العالم كل واحد منهم الوريث الوحيد، مثلك تماماً)).

فكرة ماضي كوزموبوليتاني كانت معنا منذ قرون عديدة، ربما إلى أن قدّم ما قبل الروفائيليين فكرة المفارقة التاريخية، حاجز يفصل ما ينتمي إلى حاضرنا عما ينتمي إلى عصور مضت. بالنسبة للسير توماس براون أو لإيراسموس، كان أفلاطون وأرسطو رفاق جدال. الأفكار الأفلاطونية والأرسطوطالية تجددت في أذهان مونتاغيو وبتراركا، والحوار كان متواصلا عبر الأجيال، لا على خط زمني عمودي بل على مستوى أفقي، خلال نفس الطريق الدائري للمعرفة.

((ما كان الواقع يحمل من معنى لأسلافنا، ما زال موجوداً، وهو مخفي في كل نوع من أنواع الفن))، يقول الإمبراطور أوغستوس في كتاب هرمان بروش " موت فرجيليوس ".

((لأنه كما لو كان هناك تناسخ))، كتب السير توماس براون عام ١٦٤٢، ((وأن روح الإنسان تحولت في إنسان آخر، فعلى هذا النحو أيضاً تجد الأفكار، بعد دورات معينة، بشراً وعقولاً تجانس تلك التي نشأت منها. كي نرى ذواتنا مرة أخرى لا نحتاج إلى أن نرجع إلى زمن أفلاطون: كل إنسان هو ليس نفسه فحسب، إذ كان هناك كثير من الديوجينيين وبالقدر نفسه من التيمونيين مهما كانوا قلة بهذا الاسم: الناس يعيشون أكثر من مرة، والعالم الآن هو كما كان في العصور الماضية، إذ لم يكن حينها من أحد، لكن منذ ذلك الحين يوجد أحد ما يطابقه، وهو، إن جاز التعبير، ذاته المجددة)). بالنسبة لبراون، الماضي يصبح معاصراً من خلال قراءتنا وتفكيرنا، فالماضي بمثابة رف كتب مفتوح للجميع، ومصدر لامتناهي للذي يصبح ملكنا عبر تخصيص مستحق. لا توجد هنا قوانين حقوق النشر، ولا حدود قانونية، ولا أسوار محروسة مع لافتة "منطقة خصوصية، ممنوع الدخول".

في وقت أقرب إلى زمننا، توصل الفيلسوف ريتشارد روتري إلى الاستنتاج التالي من رؤية براون الكوزموبوليتانية حول التاريخ. ((أفضل ما يأمله نبي أو رب، هو أن يمكنه تكرار ما قيل مراراً في السابق، لكن بكلمات أفضل قليلاً)). الماضي هو الوطن الأم الكوزموبوليتناني، والوطن الأب الكوني، والمكتبة اللامتناهية، فيه يكمن (كما اعتقد السير توماس براون)أملنا في مستقبل مطاق.

تقريبا في نفس الوقت الذي كتب فيه براون هذه الكلمات في كتابه Religio Medici، كتب غابرييل نودي، في كتابه " نصائح في إنشاء

مكتبة"، منتشيا بمشاعر الغنى التي يمكن أن تمنحها المكتبة:

لأنه إذا كان ثمة إمكانية أن ننعم في هذا العالم بحاكم جيد، بسعادة محققة وكاملة، فأنا أعتقد بأن ليس هناك ماهو أكثر رغبة من الحوار والتسلية المثمرة والسارّة التي يمكن أن ينالها امرؤ حكيم من مكتبة مثل هذه، وليس بالأمر الغريب على الإطلاق أن يتملك كتباً. وحيث يمكنه أن يدعو نفسه كوزموبوليتانيا، أو مواطن العالم كله، فهو بمقدوره أن يعرف كل شيء، ويرى كل شيء ولا يتجاهل شيئا. بإيجاز، بما انه سيد مطلق لهذه القناعة، بإمكانه أن يستخدمها لو رغب، يحملها في نفسه متى شاء، يعاشرها بالقدر الذي يشاء. ودون عقبات، ودون صعوبات ودون جهد بوسعه أن يكون متعلماً وعارفاً حتى بأدق التفاصيل التي تظهر في كل شيء يوجد ووجد وسيوجد، على الأرض، في البحر، وفي أقصى بقعة خفية في السماوات.

خاتمة

الكتب هي أفضل ما نملك في الحياة، إنها خلودنا.
أشعر بندم عميق لأني لم أملك مكتبة خاصة بي.

فارلام شالاموف، مكتباتي

كنا نرغب دائماً أن نتذكر أكثر، وأعتقد أننا سنواصل دائماً نسج شبكات للإيقاع بالكلمات، على أمل انه بطريقة ما، في الكمية الهائلة للتعابير المتراكمة، في كتاب ما أو شاشة ما، سيكون ثمة صوت، عبارة، أفكار مفصّلة ستحمل ثقل جواب. كل تكنولوجيا جديدة تفيد من السابقة، لكنها ستفتقد بالضرورة شيئاً من خواص سابقتها. الألفة التي تولّد بلا شك قلة الاحترام، تولّد أيضاً الراحة، وغير المألوف يولّد الارتياب. جدتي، التي ولدت في الريف الروسي في نهاية القرن التاسع عشر، كانت تخشى استخدام الإختراع الجديد الذي يدعى الهاتف، حين تم نصبه لأول مرة في بوينس آيرس، لأنه، كما كانت تقول، لا يتيح لها رؤية وجه الشخص الذي تتحدث معه. ((إنه يجعلني أفكر بالأشباح))، بررت ذلك. النص الالكتروني الذي لا يحتاج إلى صفحة، يمكنه أن يتعايش على نحو ودي مع الصفحة التي لا تحتاج إلى طاقة الكترونية، فهما ليسا بحاجة إلى إقصاء أحدهما الآخر في سعيهما لخدمتنا أفضل. المخيلة البشرية ليست أحادية الجانب وليست بحاجة إلى أن تكون كذلك، والوسائل المبتكرة الجديدة ستجلس قريبا إلى جانب " كتاب القوة " الذي يجلس الآن إلى جانب كتبنا العادية في المكتبة المتعددة الوسائط. إذا كانت مكتبة الإسكندرية رمزاً لطموحنا بكلية المعرفة، فإن شبكة الإنترنت رمز لطموحنا بكلية الوجود، فالمكتبة التي احتوت على

كل شيء صارت مكتبة تحتوي على أي شيء. اعتبرت الإسكندرية نفسها على نحو متواضع مركزاً لدائرة محيطها محدد بعالم قابل للمعرفة، أما الشبكة، فترى نفسها، مثل أول تعريف للرب الذي ابتدع في القرن الثاني عشر، دائرة مركزها في كل مكان ومحيطها ليس في أي مكان.

مع ذلك فإن الإحساس الجديد باللانهائية الذي خلقته الشبكة، لم يضعف الإحساس القديم للانهائية الذي استلهم من مكتبات العصور القديمة، بل هو أضفى عليه فقط نوعا من صفة غير قابلة للمس ملموسة. قد تأتي تقنية جديدة لتجميع المعلومات، إزاءها ستبدو لنا الشبكة اعتيادية وبسيطة في اتساعها، مثل المباني القديمة التي ضمّت يوماً المكتبات الوطنية في باريس وبوينس آيرس، بيروت وسالامنكا، لندن وسيول.

المكتبات المجسدة من خشب وورق، أو المكتبات التي تخفق على شاشات الكومبيوتر، هي دليل على إيماننا المرن بنظام غير زمني، بعيد المدى نعرفه بالبديهة أو ندركه على نحو مبهم. أثناء العصيان المسلح الجيكي ضد النازيين في آيار ١٩٤٥، وحين دخلت القوات الروسية براغ، أدركت أمينة المكتبة إيلينا سيكورسكايا، شقيقة فلاديمير نابوكوف، أن الضباط الالمان الذين يحاولون الآن الانسحاب لم يرجعوا بعضاً من الكتب التي استعاروها من المكتبة التي تعمل فيها. قررت هي وزملاؤها أن تطالب باسترداد الكتب المتأخرة، فبدؤوا بمهمة إنقاذ عبر الشوارع التي كانت تجوبها الدبابات الروسية الظافرة. ((وصلنا إلى بيت طيار ألماني، فأعاد إلينا الكتب بهدوء تام))، كما كتبت إلى أخيها بعد بضعة شهور من ذلك. ((لكن لا أحد الآن يجرؤ على الخروج إلى الشارع الرئيسي، وفي كل مكان هناك ألمان مع بنادقهم الرشاشة))، كتبت شاكية. في خضم الإضطراب والفوضى، بدا من المهم لهذه المرأة أن مساعي المكتبة المثيرة للعواطف في الحفاظ على النظام يجب، على قدر المستطاع، أن تستمر.

مهما اعتبرنا الحلم بعالم قابل للمعرفة مصنوع « ، ورق، وبكون مليء بالمعاني مصنوع من كلمات، مغرياً، فإن مكتبة ما، مهما كانت كبيرة في حجمها، ومهما كانت طموحة ولانهائية في غاياتها، لا يمكن أن تعرض لنا عالماً "حقيقياً"، كما هو حقيقي العالم اليومي للتعاسة والسعادة. إنها تعرض لنا بدلاً من ذلك صورة مقبولة لهذا العالم الحقيقي، الذي (وفقا لكلمات الناقد الفرنسي جان رودو)((يتيح لنا بلطف أن نتخيله))، بالإضافة إلى تجربة، ومعرفة، وذاكرة شيء نستشفه بالحدس من خلال قصة، أو نحرزه من خلال تأمل شعري أو فلسفي.

يخبرنا القديس يوحنا في لحظة من الإضطراب، أنه لا يجب علينا التعلق بالعالم وبالأشياء التي في العالم لأن ((كل ما في العالم، من شهوات الجسد، وجشع العيون، وغرور النفس، ليست من "الأب" بل من العالم)). هذه الوصية هي في أفضل الأحوال تناقض ظاهري. ميراثنا المتواضع والمدهش هو العالم والعالم فقط، الذي نختبر وجوده باستمرار حين نحكي لأنفسنا قصصاً عنه. الشك بأننا والعالم خلقنا بصورة شيء متماسك على نحو عجيب ومشوش وبعيد عن إدراكنا، عالم نحن أيضاً جزء منه ؛ الأمل بأن يكون لكوننا المتفجر ولنا نحن، غباره النجمي، معنى ومنهجا يفوقان الوصف ؛ البهجة بإعادة رواية الاستعارة القديمة للعالم ككتّاب نقرأه والذي نحن فيه أيضاً مقروؤون ؛ الوهم أن ما يمكننا معرفته عن الواقع هو خيال من صنع اللّغة ـ كل هذه تجد تجليها المادي في صورة ذاتية ندعوها بالمكتبة. وحبنا لها، وطمعنا بأن نرى المزيد منها، وفخرنا بانجازاتها حين نطوف في أرجاء رفوف ملأى بكتب تعد ببهجات وبهجات كثيرة، تشكل أكثر البراهين سعادة وتأثيرا في النفس ـ بالرغم من كل آلام وأحزان هذه الحياة ـ على

تملك إيمان صميمي أكثر، ومؤاسي، وربما مستعاد في منهج هو خلف الجنون، أكثر من الإيمان بأي ألوهية يقظة يمكن أن نتمناها فوقنا.

في روايتها " الزهرة الزرقاء "، تقول بنيلوب فتزجيرالد، ((إذا بدأت قصة ما باكتشاف، فإنها لا بدَّ أنّ تنتهي ببحث))، من المؤكد أن قصة مكتبتي بدأت باكتشاف: اكتشاف كتبي، اكتشاف المكان الذي توضع فيه، إكتشاف الهدوء في المكان المضاء تحت الظلام الذي يخيم خارجاً. لكن إذا كان لا بد للقصة أن تنتهي ببحث، فإن السؤال سيكون هو: بحث عن ماذا؟ لا حظ نورثروب فراي مرّة، بأنه لو كان حاضراً لحظة ولادة المسيح، فإنه لا يظن كان سيسمع الملائكة وهي تغني. ((السبب فيما أعتقد، هو أنني لا أسمعهم الآن، وما من سبب يدعو للافتراض بأنهم توقفوا))لذلك أنا لا أبحث عن وحي من أي نوع، بما أن كل شيء قيل لي هو بالضرورة صار محدداً بما أنا قادر على سماعه وفهمه. ولا أبحث عن معرفة أكثر من تلك التي، بطريقة سرية، أملكها مسبقاً. ولا عن تنويرلا يمكنني أن أتوق إليه على نحو معقول. ولا عن تجربة، بما أنه يمكنني وحدي فقط أن أعي ماهو في داخلي مسبقاً. عن ماذا، إذاً، أنا أبحث في نهاية قصة مكتبتي؟

السلوان ربما. ربما السلوان.



بصرف النظر عن الأدب وعلم اللاهوت، فإن قلّة يمكنهم الشك بأن الميزة الرئيسية لكوننا هي افتقاره للمعنى، والهدف الواضح. غير أننا، وبتفاؤل محيّر، ماضون في حشد كل قصاصة ورق من المعلومات التي يمكننا جمعها في لفائف وكتب وأقراص كومبيوتر، في رف بعد رف من المكتبة، سواء كانت مادية، وهمية، أو غير ذلك، وعلى نحو مثير للشفقة، بهدف إضفاء شكل من الإحساس والنظام على العالم، بينما نحن نعي جيداً، مهما أردنا أن نصدق العكس، بأن مسعانا للأسف مآله الفشل.

بما أن اهتمامنا بالسرد الدقيق للتواريخ والأسماء أقل من ولعنا اللامحدود بالتجميع، فقد قررت أن أبدأ بالكتابة، لا كي أصنّف تاريخا آخر للمكتبات، أو أضيف مجلدا آخر للمجموعة الواسعة بشكل مرعب في علم المكتبات، بل كي أسجل فقط وقائع دهشتي.

كانت المكتبات، مكتبتي الخاصة أو تلك العامة التي أشارك فيها جموع القرّاء، تبدو لي دائماً أمكِنة مجنونة على نحو ممتع، وبقدر ما تسعفني الذاكرة كنت مفتوناً بمنطقها الشائك، الذي يفيد بأن العقل(إن لم يكن الفن) يحكم الترتيب المتنافر للكتب. أحسّ بمتعة المغامرة حين أفقد نفسي وسط الأكداس المكتظة، مؤمناً بشكل خرافي بأن الهرمية الراسخة للحروف والأرقام ستقودني ذات يوم لغاية موعودة.



لوحة الغلاف: كريسي جوزيبي ماريا

تصميم الغلاف: ريم الجندي


ISBN 2-84306-137-x
9 782843 061370